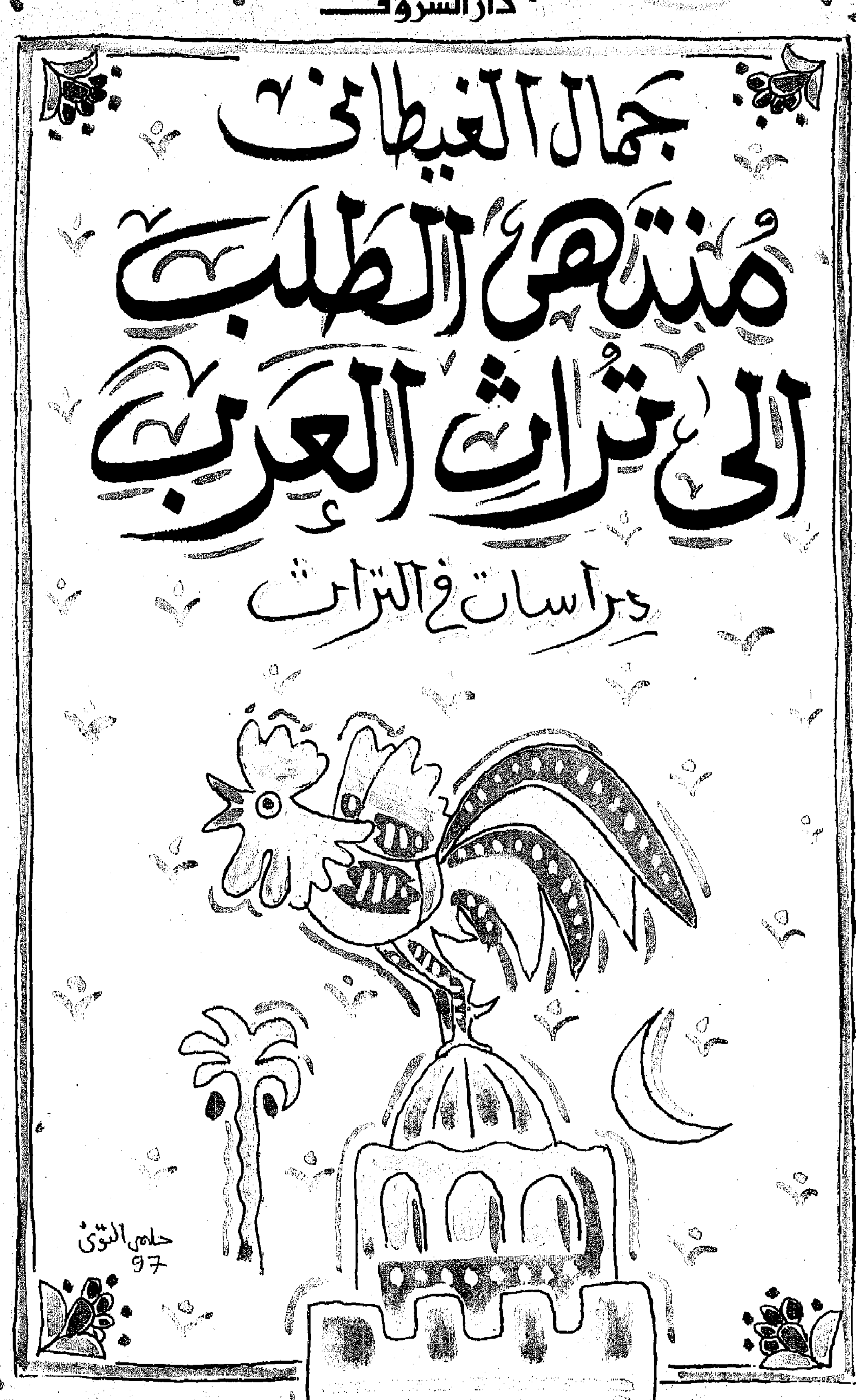

دار الشروق
جمال الغيطاني
مُنتهى الطلب
إلى تُراث العرب
دراسات في التراث
حلمي التوني
97




منتهى الطلب
إلى تراث العرب
دراسات في التراث

الطبعة الأولى

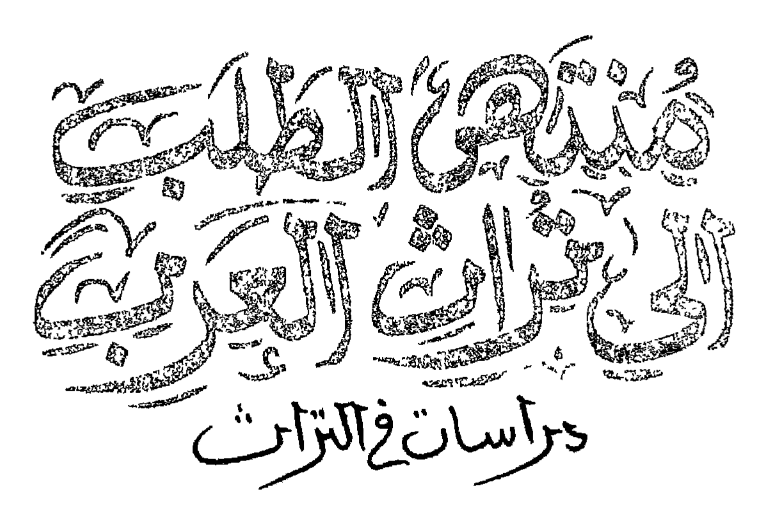
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

جمال الغيطاني



دار الشروق



التــراث العــربى
بين الســابق.. واللاحــق ..

لحسن حظـى أننى بـدأت أكتشف التراث داخلى منـذ مرحلـةمبكرة . التراث كـامن داخلنا ، فى سلوكنا ، فى حياتنا اليومية . وأعنى بذلك التراث بمفهوم شامل لا يقصره على حقبـة معينة ، أو اتجاه معين . أعنـى التراث العربـى المكتـوب ، والشفاهـى ، العمارة ، الرسم ، سائر الفنون . عوامل عديدة عمَّقـت إحساسى بالتراث ؛ منها طبيعة نشأتى فى حى عتيـق ، عريـق ، مازال التاريـخ القديـم سيالاً حيًّا فيـه ، لا يتمثل فقـط فى الآثار المعمارية ، مسـاجد كانت أو أسبلـة أو بيوتا أو مـزارات ، إنما يشمل العلاقات الإنسـانية بـالناس . إلى جـانب ذلـك رغبتى وطمـوحى منـذ أن بدأت الكتـابة فى الخمسينيـات ، وبالتحديد عام ١٩٥٩ ، إلى ابتكار أشكال جديدة من التعبير . وليس التوصل إلى أشكال فنية جـديدة فقط هو الهدف فى حـد ذاته ، لكنها الـرغبة فى إيجاد أفضل شكل يتيـح قدرًا كبيرًا من الحريـة ، الحرية فى الإبـداع ، فى التفكير ، فى تجاوز أشكال الكتـابة القـديمة . شكل يحقق لى قدرًا أكبر من حرية التعبير . وقـد وجدت، من خلال توجهى التلقائى إلى التراث العربى أن هذا التراث يحتوى على عناصر القصّ ، وفلسفـة الرؤية التى تمكننى من تحقيق هذا القـدر من الحرية . وأذكر ،عندما كتبـت قصة « هداية أهل الـورى لبعض ما جرى فى المقشرة » أن أحـد الأصدقـاء قرأهـا مخطوطـة ، وقال لى : إنها مـرحلة جـديدة فى القصة ، ويومها عـدت إلى البيت وأنا أردد بينى وبين نفسى « إنه يجاملنـى . . أحقًّا تمثل شكلاً جديدًا ؟!» ، ولكن بعد صدور مجموعتى القصصية الأولى «أوراق شاب عاش منذ ألف عام » ، كتب النقاد عديدًا من الدراسات حولها . هذه الدراسات ساعدتنى فى بلورة وتعميـق اتجاهى إلى التراث العـربـى ، والشعور الأعمـق بـالثقـة فيه ، والاتجاه إلى وصـل السابق باللاحق . إذ إننى نشأت على التراث العالمى فى الإبداع وفى نفس الوقت كنت أعى شيئًا فشيئًا أن ثمة أشكالا من القص والحكـى والرؤى ، قد انقطع عهدنا بها ، أو إذا جاز التعبير قد حدث انفصال بيننا وبينها . وقد جاء هذا الانفصال ، أو بدأت هذه الفجوة فى

تقديرى اعتبارًا من نهاية القرن الثامن عشر وبـدايات القرن التاسع عشر ، وبالتحديد منذ قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر بقيادة الجنرال بونـابرت ، حدثت هذه الفجوة فى الإبداع فى إطار تـوجه عـام إلى الحضارة الأوربيـة ، شمل جميـع المجالات ، بـدءا من المعمار وحتـى أساليب الكتابة ، وصاحب ذلك شعور عام أن الحضارة الأوربية هى المصدر وهى المرجع الذى ينسب إليه القياس ، ووصل ذلك فى بعض المراحل إلى شعور بالدونية الثقافية .

فى الفلسفة مثلاً نجد أن معظم الجهود التى تمت ، تمت فى حدود نقل فلسفات ولدت فى الغـرب ، وشرحها . وفى الجانـب المقـابل نجـد بعـض الجهـود التى اتجهـت إلى شرح الفلسفة الإسـلامية ، وإعادة نشر بعضها ، وليـس كلها أو معظمها . ولم تتـم حتى الآن محاولة متكـاملة تستهدف التوصـل إلى فلسفة ذات أصول عـربية متكاملة ، وإن تنـوعت الاجتهادات والجهـود ، وأخص منهـا بالـذكر جهـود الدكتـور إبراهيـم مدكـور فى تحقيق مصادر الفلسفـة العربية والإسـلامية وشرحها وتدريسهـا ، والجهد العلمى الممتـاز الذى بذله الدكتور حسين مروة ، والدكتـور الطيب التزينى ، والاجتهادات الأخيرة والدراسات التى يقوم بها الدكتور محمد عابد الجابرى والدكتور جلال أمين والدكتور محمد عمارة وعادل حسين والشاعر الكبير أدونيس ، كل منهم فى مجال اختصـاصه ، وفى حدود اجتهاداته . وبالطبع فإن عرض أفكار كل منهم مما يخرج عن هدف هذا المقال . إن الجهود عديدة ، والقضية مثارة فى أكثر من مجال ، ولكن ما يعنينى هـو المجال الإبداعى ، هو إعادة التئام الفجوة التى حدثت بين القديم والحديث ، بين السابق واللاحق ، بين ما تعلمته وترسب فى وجدانى من تراث عالمى ، وتراث عربى أصبح مهجورًا .

* * *

مـن خلال تجربتـى الخاصة ، ومـن خلال كتـابات النقـاد عنها ، والجهـود الفكريـة الحديثة التى تتخذ التراث العربى محورًا لها ـ ليـس من منطلق سلفى بحت ، وليس بهدف التقوقـع ، أو الاحتماء بالقـديم ــ ومن خـلال فهمى للتراث على أنـه هذه العنـاصر الحية المستمرة فى واقعنا اليومى المعيش ، وفى عناصر الثقافـة الشفاهية أو المكتوبة ، ومن خلال إحساسى بخطورة التـوجه الكامل إلى الحضـارة الأوربية ، والذى تـرجع جذوره إلى الحملة الفرنسيـة ، أمكننى بـداية تحديـد المنابـع أو المصادر التـى يمكن أن نثـرى بها فن القـص العربى . ويمكننى أن أوجزها فيما يلى :

* هناك بالطبع المصـادر التى يتحدد فيها القص العربى المباشر وأبرزها شكل المقامة ، والملاحـم العربية الكبرى التى أصبـح بعضها شعبيًّا وشائعًا ، مثل سيرة عنترة وسيرة سيف

ابـن ذى يزن ، والـزير سـالم ، والأميرة ذات الهمة ، وأبـى زيد الهلالى . هنـاك أيضًا أيـام العرب، ومـوسوعات الأمثال العـربية، وأخص بالـذكر موسوعتين ، الأولى للميـدانى ، والثانية للزمخشرى . إن أهمية هـاتين الموسوعتين لا تقتصر فقط على إيرادهما لآلاف الأمثال العربيـة التى مـا زال كثير منها حيًّا حتـى الآن ، ولكن فى إيرادهما لمئـات الحكايـات التى تشرح الأحداث التـى أدت إلى ضرب هذه الأمثال . سوف نجـد فيهما فنًّا فريـدًا للقص ، خاصة للقصة القصيرة ، أسلوبا خاصا جدًّا لا يمكن إلا أن نجده فى هذين المصدرين .

* أما الشـق الثانـى من المصـادر فلأسمه أسـاليب القـص غير المباشرة . ومـن ذلك حوليات التاريخ العربى الكبرى ، تلـك التى تسجل الأحداث التاريخية الكبرى ، والتى تصل فى دراميتها إلى مستوى العمل الإبداعى ، أو تـوحى بأعمال إبداعية كبرى . أو تلك الحوليات التى تسجـل ملامح الحياة العاديـة للناس فى أزمنة مختلفة . يمكننـا أن نجد هنا أساليب مختلفة للقص هذا من ناحية الشكل ؛ أما من ناحية المضمون فلاحدود للحوادث الموحية ، والتـى تضفى عمقًـا على الحاضر اليومى الآن . وهنـا أذكر حـوليات الطبرى ، وابن كثير ، والدينورى . أما فيما يتعلق بتاريخ مصر ، فإنه يكاد يكون مدونًا يومًا بيوم منذ الفتح العربـى وحتى يومنا هـذا ، بدءا من ابن عبـد الحكم ومرورًا بالقضـاعى والمسبحى والمقريزى وابن واصل وابن تغرى بردى وابن إياس وابن عبد الظاهر والجبرتى . بل إن هذا الشكل من الكتـابة « الحوليات » ينفرد به التراث العـربى . وهناك العديد مـن الدراسات الاستشراقية لعلم كتابة التاريخ عند العرب ، أبرزها دراسة روزنتال .

* ينفرد التراث العربـى أيضًا بوجود شكـل آخر من التأليـف ، أعتبره مصدرًا مهمًّا من مصادر القـص ، أقصد « الخِطـط » ، حيث يـدون تاريـخ المكان ، ليـس مجردًا ، إنما فى تطور ما جـرى عليه من أحداث ، وما تعـاقب عليه من بشر ، وما جـرى عليه من معمار وهدم . وأشير هنا إلى خِطط المقريزى ، وخِطط على بـاشا مبارك ، وخِطط الشام لمحمد كرد على .

* مؤلفات السِّحـر والتنجيم فى التراث العربى ، مثل شمس المعـارف الكبرى وتذكرة العارفين ، وغيرهما . وهنا أشير إلى التراث الشعبى فى هذا المجال فلـم نكن نعيشه كتراث، ولكن كواقع حى . فالطفل الذى يمرض وتعد لـه أمه حجابًا ، تفعل ذلك باعتباره تصرفًا حيًّا وجـزءًا من ممارسـاتها اليوميـة . قد يقول البعـض إننى أدعو إلى الخرافـة ـ فما أكثـر ما عانيت من سوء الفهـم ـ ولكننى أبـادر إلى القول إننى أستلفت النظر إلى أساليب القص فى هذه المؤلفات ، وهو أسلوب جدير بالدراسة .

* وللتراث العربى فرع مهم يمكننى أن أسميه « كتب البحاث » والتى هى فى معظمها تفسير للعديد من الظواهر الطبيعية التى كان الذهن البشرى يعجز عن تفسيرها بحكم محدودية العلم الطبيعى فى هذه الحقب . وأخص بالذكر كتاب عمر بن الوردى « خريدة العجائب » ، وكتاب إبراهيم بن وصيف شاه « مختصر العجائب » ، والجزء الأول من تاريخ الرسل والملوك للطبرى ، لماذا ينظر البعض إلى هذا الجزء من التراث على أنه أقل من تراث الأساطير اليونانية ؟! ألم تحفل قصائد الشعر العربى بالرموز اليونانية بينما لم يجر التعامل مع التراث العربى بنفس القدر - باستثناء المرحوم الشاعر أمل دنقل - وأعود إلى القول أيضًا إننى لست ضد الميثولوجى اليونانى أو الإغريقى ، ولكننى أدعو إلى الاهتمام بنفس القدر ، بنفس المستوى بالتراث الأسطورى العربى ، أدعو إلى عدم اعتباره أقل شأنًا من التراث الذى تعلمناه من الغرب ، إن التوجه إليه ليس فقط لتفرده ، وإنما لأنه متصل بأعماقنا ، كثير من عناصره مستمرة فى حياتنا الحاضرة ، ومؤثرة أكثر مما نتصور ، لقد وجهت اهتمامى خلال السنوات الأخيرة إلى محاولة استيعاب التراثين الفارسى والهندى ، كثيرون منا يعرفون الإلياذة والأوديسة ، لكن كم اهتم بقراءة « المهابراتا » الهندية ، أو الشاهنامة الفارسية ، وهنا يجب الإشارة إلى صعوبة الحصول على مصادر هذين التراثين ، فالشاهنامة الفارسية التى ترجمها الدكتور عبد الرحمن عزام لم تطبع إلا مرة واحدة فى الأربعينيات وكذلك ترجمات الدكتور يحيى الخشاب للقصص الفارسية ، أما المهابراتا فلم تطبع إلا مرة واحدة فى بيروت ، والأدب الفارسى يظل محصورًا فى إطار الدراسات الجامعية على الرغم من الدراسات العميقة التى قدمها الدكتور حسين مجيب المصرى والدكتور أمين عبد المجيد بدوى وغيرهما من الباحثين ، للأسف فإن معرفتنا بتراث الشعوب الأخرى والثقافات الأخرى تظل محكومة بما وصل إلينا عن طريق الغرب .

* من مصادر القص العربى أيضًا المؤلفات التى تدور حول الآخرة ، حول تصور ما سوف يجرى فى العالم الآخر . ومضمون هذه المؤلفات قائم على عملية إبداع متكاملة وأشهرها : « التذكرة فى أحوال الموتى والآخرة » للقرطبى ، ومؤلف آخر عن الآخرة للشيخ حسن العدوى ، إضافة إلى أن العديد من حوليات التاريخ تتناول هذا الموضوع .

* من أهم المصادر للقص العربى ، التراث الصوفى ، فى رأيى أن دراسة الأدب العربى لن تكتمل إلا بتوجه جديد إلى هذا التراث الروحى ، الصوفى ، وأن البحث عن أصول القصة العربية أو الرواية العربية ، أو فن القص العربى ، يجب ألا يقتصر على دراسة المقامة ، والمنامة (الوهرانى) ، والسير والملاحم إنما يجب أن يشمل التراث الصوفى ،

وبخاصة قصص الكرامات . فالكرامة باختصار هى خرق العادة ، والخروج إلى اللامألوف ، إلى تجاوز الواقع ، المكان والزمان . إنها قصص قصيرة ، مركزة ، موحية ، ضامرة المحتوى . إننى لست بصدد الخوض فى تفسير الكرامة أو تفسيرها ، ولكننى أحاول استلفات الأنظار إليها كجنس أدبى . وقد سبقنى إلى ذلك الدكتور على زيعور فى كتابه «الكرامة الصوفية» وهو جزء من موسوعته الكبرى «التحليل النفسى للذات العربية» وهى الدراسة العلمية الوحيدة لموضوع الكرامة . إن الخيال الإبداعى فى أدب الكرامة جدير بالتوقف طويلاً والتأمل . كثيرون انبهروا عندما قرءوا «مائة سنة من العزلة» وتوقفوا أمام مشهد طيران إحدى بطلاتها فى الهواء . والتراث العربى الصوفى حاشد بالذين مشوا فوق الماء ، وعدوا المسافات البعيدة فى الزمن القليل ، ولم يتوقف أمامهم أحد .

** تلك هى معظم العناصر التى توجهت إليها فى التراث العربى فى محاولة لتأصيل شكل عربى من القص . فى فرنسا ، سألنى أكثر من صحفى أو مثقف : هل عرف العرب فن الرواية ؟ وكنت أجيب قائلاً ، إن الفن القصصى العربى عرف أعظم - فى رأيى - نص قصصى فى العالم ، وهو ألف ليلة وليلة . ولكن عندما يوجه البعض مثل هذا السؤال ، فإنما يقصد الشكل الروائى كما عرفته الثقافة الأوربية ، هذا ما يبحثون عنه أو يتساءلون عنه فى التراث العربى . بالطبع لن نجد هذه الأشكال الإبداعية ، ولكن المؤكد أن التراث العربى فيه أشكاله الخاصة من القص .

* * *

إن همى الأساسى ينحصر فى البحث عن العناصر التى عرضتها سابقًا ، وتوجيه هذا كله إلى النشاط الإبداعى . غير أن الأمر لا يتم بمعزل عن أطراف عديدة ، منها مثلاً التوجه إلى الغرب ، واعتباره المصدر المهيمن الذى نستقى منه التقاليد الثقافية والأشكال الإبداعية والفلسفية ، وأساليب الحياة . إن هذا التوجه بدأ مع مجىء الحملة الفرنسية التى أحدثت صدمة حضارية لا شك فيها ، ولكن عند ما جاءت الحملة لم يكن فى منظور قائدها أو منظميها أو أفرادها نقل الحضارة الفرنسية إلى مصر ، وبالتالى إلى الشرق ، بل كان الهدف استعماريًا بحتًا . صحيح أن نابليون أتى معه بالمطبعة ، ولكنه لم يأت بها ليطبع الكتب العربية ، إنما ليطبع المنشورات التى يوجهها إلى الشعب المصرى . وصحيح أنه أتى بالعلماء الفرنسيين ، ولكن لا لينقل العلم الحديث إلى أبناء الشعب ، بل ليدرس هذه البلاد تمهيدًا لجعلها هامشًا للحضارة الأوربية ، وتابعة . إن قراءة مصادر الحملة الفرنسية تؤكد نظرة المستعمر لديهم ، سواء فى اليوميات التى كتبها بعض قادة الحملة ، أو فى

الصحيفتين اللتين أصدرهما نابليون فى مصر : « كوريبه دى ليجيبت » و « لاويكاد اجبسيان » حيث ترد تعبيرات كثيرة ، مثل « الشعب الهمجى » ، « الجهلاء » ، «المتخلفون» . . إلخ . لقد كانت الحملة الفرنسية بمثابة الحد القاطع الذى وضع حدًّا لتطور طبيعى كان يمكن أن يمضى . إننى من المؤمنين بأن كلمة « لا » لا محل لها فى التاريخ ، فما حدث حدث وما جرى جرى . ولكن ما يدعونى اليوم إلى الاجتهاد، هو محاولة لتدارك آثار التوجه التام إلى الغرب ، بعد أن وصلت إلى حد خطير فى السبعينيات دخل إلى صميم حياة الناس اليومية ، وإلى البعد القيمى للمجتمع . لقد كانت الحملة الفرنسية بمثابة بتر لتطور تاريخى ، يمكن أن يستمر فى مصر بشكل طبيعى . البعض منا لا يريد أن يرى أى إمكانية للنهوض أو التقدم خارج الأنماط الأوربية ، ولكن ما أريد أن أقوله هو أن مصر شهدت محاولات للتقدم والنهوض قبل مجىء الحملة الفرنسية بمعزل عن المؤثرات الأجنبية وأشير على المستوى السياسى إلى محاولة على بك الكبير التى أجهضت .

وفى رأيى ، أن بذور التحول الداخلى ، المنطلقة من الظروف الخاصة لواقعنا لم تدرس تمامًا . لقد بدأت بدايات نهضة مبكرة فى مصر وتركيا قرب نهاية القرن الثامن عشر ، العثمانيون بدءوا محاولة إدخال تحسينات على الجهاز العلمى والإدارى والعسكرى بدأ ذلك فى عهد سليم الثالث . ولم تكن مجرد محاولات ، بل أصبح نهجًا ثابتًا تم إقراره على الرغم من المعارضة القوية فى عهد السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ ـ ١٨٣٩) ، الذى قضى على عسكر الإنكشارية الذين كانوا يمثلون قوة محافظة تعمل على إبقاء أسس النظام القديم .

أما فى مصر، فلم يكن الأمر جامدًا عند مجىء الحملة الفرنسية ، بل كانت هناك إرهاصات أولى لهذا التطور، الذى كان ممكنا أن يمضى طبيعيًّا لولا مجىء الحملة الفرنسية . ثم اتسعت الفجوة مع مجىء محمد على . وبالقضاء على المماليك فى مذبحة القلعة ، انقطع العهد تمامًا بالقديم وكل ما كان ممكنا أن يحمله من إمكانات ، وبدأ التوجه إلى الغرب .

لقد أوفد محمد على باشا البعثات إلى أوربا فى جميع المجالات ، وإلى مصر جاء الأوربيون ليحدِّثوا الجيش ، وليؤسسوا مدارس الطب والهندسة والحربية . وأصبحت مصر فى عهده دولة قوية ، ووصلت جيوشه إلى مشارف الآستانة . غير أن نظام محمد على انهار فى عام ١٨٤٠ . هذا الانهيار استوقفنى طويلاً ، لماذا حدث ، وكأن النظام القوى الذى شيده محمد على أقيم فوق بحر من الرمال ؟! صحيح أن القوى الاستعمارية تضافرت عليه ، وقد كانت ومازالت إستراتيجية الاستعمار تحرص على عدم قيام دولة قوية فى مصر ، لأن مصر قلب العالم كما قال نابليون ، فى نفس الوقت كانت هذه القوى حريصة على تهوين الدور المصرى خصوصا الثقافى ، ومن خلال المثقفين الذين درسوا فى أوربا وعادوا إلى

مصر بـدأ الاتجاه إلى الغرب يتخـذ مسـارًا أكثر عمقًـا ، يمـس البيئة الثقـافيـة الأساسيـة للمجتمع ، ولـلأفكار ، والتقـاليد والعادات . لقـد كان هؤلاء مخلصين لـوطنهـم عنـدما درسـوا فى الغرب ونقلـوا العلـوم الحديثة إلى مصر ، ولكـن لم تبـذل محاولة فى اتجاه محاولـة استيعاب هـذا الرافد ، مـن خلال القديم ، كما أن المؤسسـات الثقافية التقليـدية اتخذت موقفًا متحجرًا وانغلاقيًا تجاه العلوم الجديـدة والأفكار الجديدة . وساهم النظام الحاكم فى تعميق الاتجاه إلى الغرب، حتى أن الخديوى إسماعيل أعلـن أنه يريد أن يجعل مصر قطعة من أوربـا . لقد أصبحـت أوربا إذن هـى المثل ، وهـى المرجع ، والمقصـد . وبدأ ذلـك ينعكس على أوجه الحياة المختلفة . ومع ذلك ،بدأ أيضًا الإحساس بالدونية تجاه الحضارة الأوربية وأنماطها الثقافية . يقول جمال الدين الأفغانى :

« لقـد شيد العثمانيـون عـددًا من المدارس على النمـط الجديـد ،وبعثـوا بطوائف مـن شبابهم إلى البلاد الغـربية ليحملوا إليهم مـا يحتاجون إليه مـن العلوم والمعارف والآداب ، وكل مـا يسمونه « تمدنـا » ، وهو فى الحقيقة تمدن للبلاد التـى نشأ فيها على نظـام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى . فهل انتفع المصريون والعثمانيـون بما قدموا لأنفسهم من ذلك ، وقد مضت عليهـم أزمان غير قصيرة ؟ . . نعم ، ربما وجد بينهـم أفراد يتشدقون بـألفاظ الحرية والـوطنية والجنسية (القـومية) وما شاكلهـا ، وسموا أنفسهم زعماء الحريـة ومنهم آخرون قلبـوا أوضاع المبانـى والمساكن وبـدلوا هيئـات المآكل والملابس والفـرش والأبنية ، وسائر الماعون ، وتنـافسوا فى تطبيقها على أجود مـا يكون منها فى الممالك الأجنبيـة وعدوها من مفاخرهم . . فنفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم ! وأماتو أرباب الصنائع من قومهم ، وهذا جذع لأنف الأمـة يشوه وجهها ويحط بشأنها ! لقد علمتنا التجـارب أن المقلدين من كل أمـة ، المنتحلين أطوار غيرها ، يكـونون فيها منـافذ لتطـرحه الأعداء إليهـا ، وطلائع لجيوش الغـالبين ، وأرباب العمارات يمهدون لهم السبيـل ويفتحون الأبواب ، ثـم يثبتون أقدامهم . . »[1] .

* * *

ربما كانت العمارة أقرب الفنون إلى الرواية ، من هنا جاء اهتمامى بها ، وبخاصة العمارة الإسلاميـة العربية التـى نشأت فى ظـلال جدرانها ، وانطبعت تفـاصيلها على الصفحات الأولى من ذاكرتـى . كما أن العمارة من ألصق الفنون بحياة الإنسـان ، إذ إنها الإطار الذى

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى : ص ١٩٥ ـ ص ١٩٧ .

يقضى فيه حياته ، سواء فى بيته أو عمله ، أو عند تأدية شعائره الدينية . يقول الدكتور ثروت عكاشة :

« . . ما من شك فى أن الإنسان منذ أن وجد على الأرض وهو دائب الجهد فى تكييف الطبيعة حوله لملاءمة حاجاته الجسدية والروحانية ، وأنه كذلك بفطرته وحسه المرهف للجمال وعشقه للإبداع قد حاول أن يصوغ كل ما تشكله يداه فى قالب فنى ، يحكيه مرة صورة ومرة تمثالاً ومرة كلمة ومرة نغمة »[1] .

إذن . . العمارة امتداد للبيئة ، جزء من الواقع نفسه ، ولكل واقع عمارته ، ومفهومه الخاص لهذا الفن النابع من الواقع ، من المناخ ، من التقاليد الاجتماعية ، من المواد المحلية المتاحة . وقد كانت العمارة العربية نابعة من الواقع نفسه ، تتكيف معه وتخضع لخصائصه . وإذا ما دخلنا أحد بيوت القاهرة القديمة ، على سبيل المثال بيت السحيمى ، سوف نجد عمارته تعكس التقاليد الاجتماعية ، والتقاليد الفنية . فالبيت مفتوح على الداخل ، حياة الإنسان الخاصة مَصُونة . النوافذ تطل على الفناء الداخلى حيث الحديقة تمامًا كلوحات الخط العربى حيث تتجه حركة الخط إلى الداخل فى حركة مستمرة لانهائية وتدور حول مركز موقعه القلب . مركز العمارة العربية ومحورها كان الإنسان نفسه . فالجدران مصممة بطريقة خاصة لتدرأ الريح والحر وقسوة المناخ ، وابتكر المعمارى وسائله الخاصة للتهوية (الملقف) ، ولتسخين المياه أو تبريدها ، وفى ذروة الحرارة ، تكون درجة الحرارة داخل بيت السحيمى أقل من الخارج عشر درجات . هكذا يقول المهندس المعمارى العظيم حسن فتحى . وفى العمارة الإسلامية العربية نفسها ، تجد فروقًا واضحة . فالمئذنة العراقية لها شخصيتها المتميزة ، ولو أن معماريًا مصريًا وضع مئذنة عراقية على بناء مسجد مصرى لما اتسق الأمر . فما البال عندما تم استيراد الطرز المعمارية الغربية بلاد الثلوج والضباب لنزرعها فى قلب مدننا الحارة ، ما البال وقد شيد المعماريون الذين درسوا المعمار الأوربى ونقلوا تصميمات أبراج الألمونيوم المصممة إلى قلب عواصمنا العربية الحارة . هنا يبدو الاتجاه الأعمى إلى الغرب ، والانقياد التام ، ولكن كنت أبتسم ساخرًا عندما أرى بعض الأثرياء الجدد وقد بنوا بيوتهم الخاصة ذات أسقف محدبة ، أسقف محدبة فى بلاد لا يسقط فيها الثلج أما مطرها فشحيح ، يقول المهندس حسن فتحى فى كتابه « عمارة الفقراء » هل يمكن تخيل شجرة ليمون تطرح ثمرة تفاح ؟ بالطبع لا ، والوضع فى العمارة

---

(١) القيم الجمالية فى العمارة الإسلامية : ص ١٢ .

التى استوحيت تصميماتها من الغرب ، يترجم هذه المحاولات الشائعة لزرع طرز مستوردة غريبة فى بيئة مختلفة ، إنه نفس المنطق الكامن وراء انتشار الأسماء الأجنبية فى السبعينيات للمتاجر والمراكز التجارية ، حتى إن متجرًا تخصص فى بيع الأزياء الإسلامية أطلق صاحبه عليه « شوبنج سنتر » ! ! لقد بدأ اتجاه العمارة إلى الغرب منذ منتصف القرن التاسع عشر ، حيث أصبحت العمارة الغربية هى النموذج الذى يحتذى مع توجه الصفوة إلى الغرب ، واعتباره المصدر، إلى أن وصل الأمر إلى ما وصل إليه فى السبعينيات . لقد تم التخلى عن تقاليد العمارة العربية ، وتحول البيت من الداخل إلى الخارج ، واستبدلت بمواد البناء مواد غير ملائمة لطبيعة المناخ (الأسمنت ـ الألمونيوم) . واليوم تقوم فى القاهرة وفى العديد من العواصم العربية أبراج هائلة تقتدى بناطحات السحاب فى نيويورك وتحمل أسماء أجنبية أصبح تداولها سهلاً وشائعًا (سكاى سنتر ــ كايرو سنتر . . . إلخ) . وانتقل التشويه إلى القرية المصرية نفسها ، فتخلى المعمارى الريفى عن المواد الملائمة للطبيعة والمناخ والتى كان الأجداد يبنون بها منذ آلاف السنين ، ليستخدموا الطوب الأحمر والأسمنت ولم تلق نظريات المهندس فتحى طريقها إلى التنفيذ ، وهى نظريات قائمة على تطويع العمارة للإنسان بحيث تكون نابعة من البيئة . لقد انمحت الخصوصية التى تعبر عن ضرورة حياتية وليس عن قيم فنية مجردة إزاء تزايد الاتجاه إلى الغرب والنقل المباشر عنه بدون مراعاة الواقع المحلى . وما يقال عن العمارة ، ينطبق أيضًا على تخطيط المدن . كان تخطيط المدينة العربية القديمة يخضع لاعتبارات عديدة نابعة من الواقع ذاته . يقول الدكتور ثروت عكاشة :

« وكان العرف المتبع فى بعض قواعد التخطيط ، مثل مراعاة العوامل الجوية ، ومتطلبات الأمن والناحية التعبيرية الجمالية مطبقًا فى كلا المستويين الواعى والتلقائى . فكانت الشوارع والحارات تخطط متعرجة ضيقة لأن المساكن والقصور والمبانى العامة تضم أفنية وحدائق تستقبل الشمس والهواء من ساحاتها الداخلية التى لا تجعلها فى حاجة إلى الشارع المتسع ، فاقتصر اتساعه على ما يفى بمطالب المرور وغدو الباعة الجائلين ، وروحاتهم ، كما كان بتعرجه وضيقه يوفر مساحات ظليلة ويتيح اختزان الهواء الرطب ليلاً حتى يشيعه أثناء ساعات القيظ ملطفًا من حرارة الجو ، على العكس من الشارع المستقيم الواسع كالبولفار الأوربى المعاصر الذى تستبيحه الريح صباحًا ومساء »[1] .

(١) القيم الجمالية فى العمارة الإسلامية ، د . ثروت عكاشة : ص ٥٨ .

لقد بدأ التغيير الكبير فى مدينة القاهرة على يدَىْ على باشا مبارك الذى وضع أساس التخطيط الأوربى الحديث للمدينة ، وشق مجموعة من الشوارع المستقيمة على نمط الشوارع الباريسية . شارع محمد على شق وكأنه نسخة أخرى من شارع ر ،نمولى بباريس . وبسبب شق هذا الشارع أزيل أكثر من ثلاثين أثرًا إسلاميًا وهكذا بدأ تغريب المدينة . وعند مراجعة ما حدث للقاهرة ، فلا يعنى هذا التهجم على دور على باشا مبارك أو الانتقاص منه ، ولكن قام بذلك فى إطار مفهوم معين يرى أن تطوير المدينة وتحديثها يجب أن يتم على النسق الأوربى ، وكان ذلك حلقة فى الاتجاه إلى الغرب . ما أريد أن أؤكد عليه أو أوضحه أن مراجعة دور على باشا مبارك أو غيره من كبار المثقفين المصريين أو العرب الذين رأوا أن النقل عن الحضارة الأوربية سوف ينتقل ببلادهم قدمًا لا يعنى النيل من شخوصهم ودورهم . لقد اجتهدوا وحق لنا أيضًا أن نراجع ما قاموا به وأن نجتهد أيضًا ، وإذا كان الاجتهاد مباحًا فى أمور الدين ، أفلا يكون مباحًا فى القضايا الثقافية ، وتاريخ الفكر ، والتطور الفنى ، والمعمارى ، إننى أرى باختصار شديد أن الاتجاه إلى الغرب أو التغريب قد وصل إلى نقطة خطيرة ، موضة فى سبعينيات هذا القرن بحيث أصبحت خصائص الشخصية القومية مهددة معظمها بالاندثار والتغيير ورافق هذا ظروف عالمية عديدة ، والاستعمار القديم فى الماضى كان يستفز المشاعر القومية ، والرغبة فى الحفاظ على السابق . وفى المغرب العربى الكبير ، سواء فى المغرب أو الجزائر أو تونس ، تمت المحافظة على الطابع المعمارى للمدن القديمة . صحيح أن العمارة الأوربية موجودة ولكنها قائمة بعيدًا عن الأقسام القديمة . فى تونس مثلاً نجد الوزارات الهامة ورئاسة الوزراء فى المدينة القديمة ، كما أن فاس القديمة ما تزال محتفظة بطابعها . لقد كان الاستعمار القديم غشومًا ، يستنفر المشاعر القومية لأنه يحمل السلاح ، ويسعى إلى الطمس التام للقديم . أما ما نتعرض له فى العقود الأخيرة فغزو من نوع آخر ، غزو هادئ ، يتم بالفيلم ، بالفكر، بتعميق الدونية الثقافية . يتم بإشاعة أنماط معينة من الحياة بمتاجر الويمبى وكنتاكى . وهو لا يأتى إلينا على ظهور البوارج ، بل إن قومًا منا يذهبون ويدفعون الأموال الطائلة ليأتوا به (انظر إلى انتشار العلم الأمريكى على الشاحنات والقمصان . . إلخ) .

وهنا يجب أن أوضح أننى لست أبدًا ضد الفكر الغربى أو الإبداع الغربى ، فمنجزات الحضارة الأوربية ملك للإنسانية كلها الآن ، ولكن ما أنبه إليه أن الخصوصية مهددة بالزوال ، وهذا يعنى فقدان الأمة لهويتها . لا أريد استخدام تعبيرات تبدو مبالغة ، لكن هذا ما أستشعره خلال السنوات الأخيرة . والقضية الأساسية التى أتصور أن الفكر العربى والفن العربى مطالبان بالتوجه إليها ودراستها والتوصل إلى نتائج محددة فيها ، هى

كيف يمكن تزاوج السابق باللاحق دون أن يطغى السابق على اللاحق ، ودون أن يطمس اللاحق ما سبق . . تلك هى القضية .

* * *

إننى من المؤمنين بعنصر الاستمرارية فى الثقافة المصرية . المجتمع المصرى قديم ، وبالتالى فإن الثقافة المصرية قديمة . عمرها المكتوب سبعة آلاف سنة ؛ أما غير المكتوب فلم يقف إنسان على مقداره بعد ، وخلال هذا التاريخ الطويل عرفت مصر حضارات متعاقبة وثقافات مختلفة ، وقد أخضعت مصر الوافدين إليها ، وكما ذاب فيها الفرس والرومان والإغريق والكرد والأتراك والعرب ، ذابت فيها أيضًا ثقافاتهم ، انصهرت وتشكلت من جديد ، إن الثقافة المصرية حية ، متجددة ، ولكنها لا تفقد جوهرها ومضمونها . وقد فصلت هذه النقطة فى بحث قصير ضمنته هذا الكتاب . ولكن ما أريد توضيحه ، هو أننى عند ما أقول التراث ، فإننى أعنى التراث الذى ينتمى إلى هذه المنطقة من العالم التى نعيش فيها ، ويمكن تشبيه حلقاته بدوائر متداخلة ، بالنسبة لى المركز منها هو التراثان العربى ، والإسلامى ، ثم التراث القبطى الذى أدعو ـ كمسلم ـــ إلى معرفته انطلاقًا من التكوين الثقافى ، كثيرًا ما أسأل نفسى ، لماذا يعرف المصرى قبطى الديانة ، أعياد المسلمين وعاداتهم وقد يلم بثقافتهم ، بينما نجهل نحن المسلمين كثيرًا من التفاصيل عن الحياة الفكرية والروحية للأقباط ، مع أننا نشكل أمة واحدة ، كذلك التراث الفرعونى الكامن فى حياتنا الحالية ، هناك عناصر عديدة مستمرة ، بدءا من التقويم القبطى ـ الفرعونى الذى مازال الفلاح المصرى يتبعه لتنظيم شئون زراعته ، وحتى بعض الألفاظ التى ما تزال مستخدمة فى لغتنا اليومية ، ثم التراث الإفريقى ، ثقافة القارة التى ننتمى إليها . ثم تراث الأمم القريبة منا : فارسية ،وهندية ، وصينية ، إضافة إلى كل الثقافات التى قامت فى هذه المنطقة : بابلية ، وآشورية، وعبرية، وبربرية ، وتراث أوربى .

إن هذه الدوائر كلها حولى . . التراث الإنسانى كله يصب فى تكوينى . إنه ملكى وأنا ملكه ، وهذا التفاعل يثرى ، بشرط ألا أغيب أو تغيب عنى الدائرة المركز ، أقصد التراث العربى بمفهومه الشامل .

* * *

فى السنوات الأخيرة، لاحظت ندرة فى مصادر التراث العربى ، أصبح من الصعب جدًّا الحصول على كتب الثعالبى ، أو التوحيدى ، أو الجاحظ ، وغيرهم من أعمدة لغة

الضاد . فى نفس الوقت الذى تنتشر فيه طبعات شتى لكتب محدودة من التراث ، تغذى اتجاهات معينة وتقصر التعامل مع التراث وتقديمه على جوانب سطحية ، شكلية تمامًا . وكثيرًا ما كنت أقف مبهورًا أمام فهارس المخطوطات العربية المكدسة فى سائر مكتبات العالم . ما من فرع فى العلم والثقافة إلا وتجد فيه مؤلفات عربية فى شتى المراحل التاريخية ، مؤلفات استفادت منها أوربا وأدت إلى عصر النهضة ، وأهملناها نحن . بل إننا أعدنا اكتشاف معظمها من خلال الغرب نفسه عندما بدأ اهتمامه بها .

وإزاء ندرة المصادر ، وعدم تعامل دور النشر الكبرى مع التراث العربى ، وتعثر إصدارات مهمة ظلت مستمرة منذ أن عرفت مصر المطبعة ، فكرت فى التعريف بمصادر تراثية ربما يصعب الحصول عليها الآن ، إما لندرتها وإما لارتفاع سعرها بما يعجز عنه الشباب محدود الإمكانية . كيف يمكن إذن لأديب فى بداية الطريق أن يتكون ؟ أذكر أننى فى بداية الستينيات اقتنيت أربعة عشر جزءًا من كتاب الأغانى ودفعت ثمنًا لها جنيهين وثمانين قرشًا ، ومازلت أذكر ليلة عودتى إلى البيت بالأغانى ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، ونهاية الأرب للنويرى ، وكل ما دفعته كان أقل من عشرة جنيهات ، الآن تباع الأجزاء المتوفرة من الأغانى فى طبعة رديئة بأكثر من مائتى جنيه . والأغانى من أعمدة الأدب العربى لا أتصور مكتبة أديب أو مؤرخ أو مفكر بدونه .

إزاء هذه الظاهرة ، فكرت فى إعداد عروض وافية لعدد من هذه المصادر المهمة ، بحيث تعطى فكرة شاملة عنها ، فإذا اهتم قارئى بكتاب معين ، فليتجه إليه ولا يعانى ما عانيناه فى البحث عنه ، وقد حرصت على ذكر الناشر والسنة التى طبع فيها الكتاب ، آثرت أن أبدأ بعرض عدد من كتب التراث المختلفة فى الأدب ، والتاريخ ، والفن الحربى ، على أن أتبع هذا المجلد ، بآخر أخصصه للتعريف بكتب التراجم فى التراث العربى ، وثالث أقدم فيه مصادر القص العربى ، ورابع أقدم فيه أهم ما كتب حول العمارة الإسلامية من القدماء والمحدثين . راجيًا بذلك أن أكون قد أسهمت بجهد ضئيل فى التعريف بتراثنا العربى ومصادره التى يصعب الوصول إليها والعثور عليها ، يومًا بعد يوم ، متمنيًا من الله العلى القدير أن يهبنا العمر والقدرة على تحقيق ما نطمح إليه من التعريف بتراثنا العريق الذى يحيا فينا ولا نراه .

جمال الغيطانى

القاهرة ٢٠ رمضان ١٤١٧ هـ

٢٩ يناير ١٩٩٧ م

عنـــاصر الاستـــمـــرارية
فـــى الثقـــافـــة المصـــريـــة

يختلف مفهوم الثقافة بمعناه الاجتماعى العلمى عن معناه العام . فطبقًا للمفهوم الأول تتضمن الثقافة كل ما يمكن أن يُعلم بواسطة العلاقات الإنسانية المتداخلة ، ويشمل ذلك اللغة ، والفن ، والصناعة ، والعلم ، والقانون ونظم الحكم ، والأخلاق ، والدين ، وكل المصنوعات التى تتجسد فيها عناصر ثقافية معينة ، مثل طرز العمارة والآلات ، وأساليب المواصلات .

إن معنى الثقافة معنى عام ، يشمل أسلوب الناس فى مجتمع من المجتمعات . من هنا فإن هذا المفهوم الشامل للثقافة يختلف اختلافًا كبيرًا عن المفهوم الذى يقصر الثقافة على نوع معين من النشاط الإنسانى ، مثل الآداب والفنون .

والثقافة أو المعرفة الإنسانية ، تتكون عن طريق وسيلتين هامتين ، هما الاكتشافات والاختراعات أولاً ، ثم التعليم الذى ينقل ما سبق معرفته إلى الآخرين ، أو من زمن إلى زمن .

والمجتمع المصرى مجتمع قديم ، وبالتالى فإن الثقافة المصرية قديمة عمرها المكتوب سبعة الآف عام ، أما غير المكتوب فلم يقف إنسان بعد على مقداره الحقيقى ، وخلال هذا التاريخ السحيق عرف المجتمع المصرى حضارات عديدة ، وتعاقبت عليه ظروف مختلفة ، وديانات بعضها اخترعه ، وبعضها وفد عليه من هذه الحضارات ، أقدم حضارة عرفها الإنسان ، وعلى الرغم من الظروف الصعبة والمظالم المتعاقبة ، والبؤس ، وتوالى الغزاة ، المجتمع المصرى فإن ظل متماسكًا ، حيويًّا مستمرًّا ، منذ آلاف الأعوام ، والعمل مستمرا لم يتوقف أبدًا على ضفتى النيل . الجهد الإنسانى يبذل فى مختلف المجالات بلا انقطاع والملاحظة العامة التى نستنتجها من قراءة التاريخ المصرى ، استمرارية الثقافة ، وحيويتها المتمثلة فى تجددها واستيعابها للظروف المتغيرة . وعلى الرغم من عنصر

الاستمرارية فى الثقافة المصرية ، فإنه من الصعب القول إنها ثقافة جامدة، محافظة على القديم . فالمصريون عبر تاريخهم الطويل غيروا من لغتهم عدة مرات ، من الهيروغليفية إلى الديموطيقية ، إلى القبطية ، إلى اليونانية ، إلى العربية واستبدلوا بدينهم دينا آخر مرة أو مرتين . جمعوا بين القديم والحديث فى العديد من مظاهر حياتهم ، واستطاعوا استيعاب كل الغزاة الذين وفدوا على أرضهم ، لم تصبح مصر فارسية أو رومانية ، أو عربية ، بل طوعت الفرس ، والرومان ، والعرب ، فأصبح جميع هؤلاء مصريين ، ذابوا فى المجتمع المصرى ، وانصهرت ثقافاتهم فى الثقافة المصرية ، أصبحت ثقافاتهم تشكل عناصر من الثقافة المصرية ، ولم تصبح الثقافة المصرية مصبوغة بهذه الثقافات الوافدة . بل إن الثقافة المصرية طوعت كثيرًا من هذه العناصر الوافدة لظروفها وعناصرها هى . وفى العصر الحديث ، نجد أن الأتراك الذين استعمروا مصر أكثر من ثلاثة قرون اضطروا إلى تعلم اللغة العربية ، نفس الأمر واجهه الإنجليز الذين استعمروا مصر لمدة سبعين عامًا خلال القرن الأخير ، لم تتحدث مصر اللغة الإنجليزية ، ولكن الإنجليز هم الذين تعلموا اللغة العربية ، ثم خرجوا فى النهاية . ويرجع هذا إلى الركائز الثقافية العريقة فى مصر ، وإلى استمراريتها، وحيويتها ، كان المصريون مجددين فى الجانب المادى والعملى من حياتهم ، فالزارع المصرى جدد أدواته الزراعية ، وأضاف إليها على مر الزمن ، واستنبط أصنافًا جديدة من المحاصيل ، كان أبرزها فى العصر الحديث القطن الذى بدأ زراعته فى بداية القرن التاسع عشر ، كما جدد أنواع الحيوان المستأنس ، وأضاف إليها ما لم يكن معروفًا من قبل .

إن ذلك يثبت بما لا يدع مجالاً للشك تجدد الثقافة المصرية وحيويتها . ويمكننا ملاحظة هذا فى الجانب غير المادى ، لقد شغلت فكرة الخلود المصريين منذ فجر التاريخ ، وأول تصور للعالم الآخر نجده فى الفكر الدينى المصرى القديم ، انشغل المصريون بهذه الحياة الأخرى ، واهتموا ببناء مقابرهم ، وحفظ أجسادهم وكان هذا الاهتمام من أعلى المستويات ، الفرعون ، حتى أفقر الناس ، وكان الجميع يهتمون ببناء المقابر ، وتزيينها ، وتزويدها بما يحتاج إليه الميت فى العالم الآخر ، والاهتمام بالعالم الآخر عند المصريين منطلق من حب عميق للحياة ، ورفض للعدم ، نلاحظ أن هذا المضمون استمر مع تغير الديانات ، وتعاقب العصور ، فى العصر الفرعونى على سبيل المثال كان أول عمل يشرع فيه الفرعون (الملك) هو بناء هرم ليكون بمثابة مقبرة تحفظ جسمه من الفناء ، وبجواره معبد تمارس فيه الشعائر الدينية ، وبعد آلاف السنين ، وبالتحديد فى العصر الوسيط ، عصر المماليك بعد فتح العرب لمصر بخمسة قرون ، نجد أن السلطان

المملوكى المسلم ـ وهو ذو أصول أجنبية ـ يشرع بمجرد توليه الحكم فى بناء مسجد ضخم يضم فيه قبة تحوى مقبرته . ويستمر ذلك حتى عصرنا الحديث ، فعندما توفى الرئيس جمال عبد الناصر عام ١٩٧٠ ، تبين أنه كان قد اختار مكان دفنه فى مسجد شارك فى تأسيسه والإنفاق على بنائه ، ودفن فيه بالفعل ، وضريحه الآن قائم يزار ، أى مصرى الآن سواء كان مسيحيًا أو مسلمًا يحتل مقره الأخير حيزًا هامًا من تفكيره ، وكثيرًا ما نقرأ على شواهد القبور الحديثة عبارات كتبت بوصية من الموتى ، نصوصها تطلب من الأحياء التذكّر والاتعاظ بما انتهوا إليه ، وقد وصل إلينا نصوص مشابهة فى المضمون من العصر الفرعونى السحيق .

إن الدين المسيحى ، والدين الإسلامى ، لم يغيرا من جوهر نظرة الإنسان المصرى إلى الموت ، وإلى العالم الآخر ، والتفاصيل العديدة تؤكد ذلك ، أذكر فى طفولتى جلوسى مع أمى فوق سطح بيتنا نتلمس أشعة الشمس ، وفجأة سكتت أمى ، وأمرتنى بالصمت ، وراحت ترقب فى رهبة ذبابة زرقاء اللون ، بعد اختفائها ، قالت لى إنها روح جدتى جاءت لتطمئن علينا ، وهذا موروث ثقافى قديم يمت إلى العصر الفرعونى ، حيث كانت الروح تتجسد أحيانًا فى شكل طائر أو ذبابة زرقاء أو قط أسود ، والمصريون على صلة دائمة بموتاهم ، وإذا ما جاء الميت فى الحلم وطلب شيئًا ما فلابد من تنفيذه ، وفى أيام الجمع ، والأعياد والمواسم ، نشاهد طوابير الرجال والنساء والأطفال متجهين إلى المقابر حاملين الزهور والصدقات من طعام وهدايا توزع على الفقراء . نجد هذا فى مصر، بينما يعد ذلك فى البلاد الإسلامية الأخرى ـ خاصة السعودية ـ من الأمور المخالفة للشرع ، ويكفى القول إنه لا توجد قبور معروفة للموتى فى الحجاز ، وأذكر أننى كنت أشهد حفلاً للمصارعة أقيم فى خلاء مدينة أم درمان وكان الناس يعبرون فوق عدة مقابر بسيطة يطئون المقبرة ، وكنت فى داخلى أستنكر ذلك .

كذلك فإن نظرة المصريين تجاه القديسين ، والأولياء لم تتغير ، عرفت مصر الفرعونية الثالوث القديم ، الآلهة إيزيس ، والإله أوزيريس ، والابن حورس ، وعند ما جاء الدين المسيحى إلى مصر لم يجد أرضا خالية ، فقد عرف الفراعنة الثالوث المقدس ، كما عرفوا التوحيد ، وسرعان ما استوعبت الثقافة المصرية الدين الجديد وحل الثالوث الجديد ، الأب والابن والروح القدس ، محل الثالوث القديم ، وبعد استقرار الدين المسيحى فى مصر ، شهدت الكنيسة صراعًا حادًا كان طرفاه الكنيسة المصرية ، والكنيسة البيزنطية ، وكان محور الخلاف طبيعة المسيح ، آمن المسيحيون بالطبيعة الآلهية لابن مريم فجاء

آريوس أحد رجال الدين بالإسكندرية ، وأنكر على المسيح أن يكون من طبيعة الأب الذى لا شريك له ، وبذلك أكد نوعًا من الوحدانية ولو أنه لم ينكر ألوهية المسيح كلية ، تمسك المصريون برأيهم ، ولا شك أن تمسك الفريق الأضعف ، المغلوب على أمره ، بعقيدة تخالف الفريق الغالب يحمل معنى مناوأة الضعيف للغالب ، والحرص على التميز ، وعدم الذوبان والتلاشى ، لم يكن المصريون يريدون لكنيستهم أن تصبح فى المرتبة الأضعف بالنسبة لبيزنطة ، وهى الأحدث مسيحية ، فإذا كانت القسطنطينية هى عاصمة الإمبراطورية بلا منازع ، فإن الإسكندرية المصرية يجب أن تظل عاصمة المسيحية فى العالم، وتفاصيل الخلاف عديدة ، ولكن موقف الكنيسة المصرية ظل استقلاليًا ، فى جوهره يمثل المحافظة على عناصر استمراريته الثقافية المصرية ، لقد احتفظت مصر الفرعونية بثقافتها الدينية وطقوسها ، ثم جاءت المسيحية وحاولت تغيير هذا ، وجد الشعب المصرى نفسه مختلطًا بشعوب الإمبراطورية الرومانية ، ومع ذلك فإن الثقافة المصرية لم تضعف ، ولم تذب ، لم تجد الثقافتان البيزنطية واليونانية سبيلاً إليها ، بل العكس هو الذى حدث ، إذ تدهورت أهمية العنصر اليونانى دون توقف ، وتبوأت اللغة القبطية ـ أى اللغة المصرية مكتوبة بحروف يونانية ــ مكانتها بدلاًمن اليونانية ، وكما كانت مصر فى أيام ضعفها تلقى بمقاليدها إلى كبير كهنة آمون ــ رع فى طيبة فإن جميع القوى الوطنية المصرية التفت حول البطريرك ، بابا الإسكندرية أصبح رمزًا للموروث الثقافى المصرى ، وقاومت الكنيسة المصرية كل محاولات التذويب واحتفظت بمذهبها الخاص إلى الآن .

ومع دخول العرب إلى مصر ، وانتشار الإسلام فى مصر ، شهدت استمرارية الثقافة المصرية فصلاً جديدًا ، فكما لم تجد المسيحية عند دخولها إلى مصر فى شعب مصر أرضا بكرًا وصحراء جرداء ، كذلك فإن الإسلام أيضًا لم يجد فى شعب مصر عند دخوله أرضًا قاحلة ، لقد استوعبت الثقافة المصرية رموز الدين الجديد وطقوسه الشبيهة أشد الشبه بما كانت تعى من رموز وأسرار ، لم تتغير النظرة إلى الموت كثيرًا إلا فى بعض التفاصيل الصغيرة، خاصة فيما يتعلق بالحرص على تحنيط الجثث أو الدفن داخل توابيت خشبية أو حجرية ، لقد أبطل الإسلام ذاك ، وبالطبع اختلفت الشعائر ، ولكن جوهر النظرة إلى العالم الآخر ظلت كما هى ، والعلاقة بالموتى ، والحرص على زيارتهم ، وتكريم ذكراهم ، والامتثال إلى مطالبهم التى يبدونها عندما يزورون الأحياء فى الرؤى والأحلام ، واستمر تقديس المصريين للقديسين وأولياء الله المسلمين ، وذلك بواسطة إقامة أضرحة لهم ، وتمجيدهم ، والاعتراف بالواجبات نحوهم والحرص على أدائها ، على الرغم من أن هذه

الطقوس مناهضة لروح الدين الإسلامى ، التى تنفر من التمسح بالأضرحة وتقبيلها ، والطواف حولها ، وهكذا نلاحظ أن المكانة التى كانت الآلهة يحتلها فى الزمن الفرعونى ، نالها بمرور الزمن القديسون المسيحيون ، وأولياء الله المسلمون ، وهؤلاء الأولياء يمارسون تأثيرهم من العالم الآخر على الأحياء فى عصرنا هذا ، وقد اكتشف باحث اجتماعى مصرى نابه هو الدكتور سيد عويس أن ظاهرة إرسال الرسائل إلى الموتى مستمرة حتى عصرنا هذا ، خاصة للإمام الشافعى ، المعروف بين الناس باسم قاضى الشريعة أو رئيس المحكمة الباطنية التى تعقد جلساتها فى العالم الآخر ، تمامًا كما كانت محكمة التاسوع الآلهى تعقد جلساتها فى العالم الآخر خلال العصر الفرعونى ، كان المصريون فى العصر الفرعونى يرسلون شكاواهم إلى الموتى مكتوبة على قطع من الخزف ، ومازال المصريون يكتبون الرسائل إلى الإمام الشافعى ، (ولد عام ١٥٠ هجرية ـ ٧٦٧ ميلادية ويعد أحد أربعة أئمة فى الإسلام) . غير أن أشهر الأولياء فى مصر قاطبة هو الإمام الحسين ، ويحتفل المصريون فى كل عام بمولد الإمام الحسين حيث يجتمع آلاف الرجال والنساء والأطفال كل مساء قبل ليلة المولد بأسبوعين ، يجتمعون يوميًا ، يتلون الأذكار ، ويرقصون ، ويغنون ، والإمام الحسين له مكانة كبيرة عند سائر المصريين ، إذ إنه سيد الشهداء ، وابن السيدة فاطمة ابنة رسول الله محمد ، ويكاد الحسين يكون قد احتل موقع أوزيريس فى عملية استمرارية الثقافة المصرية ، وأوجه الشبه عديدة بينهما ، منها الصفات المشتركة والنهاية المأساوية ، أما شقيقته السيدة زينب فتحتل فى قلوب المصريين مكانة عظيمة ، إنها نفس مكانة إيزيس الآلهة الفرعونية القديمة ، المخلصة ، النقية والسيدة زينب لها عند المصريين منزلة خاصة ، ويطلقون عليها أسماء عديدة منها « غفيرة مصر » ، و « صاحبة الشورى » و « رئيسة الديوان » ، والديوان هو مجلس يعقد فى العالم الآخر يعقد مساء كل سبت وترأسه السيدة زينب ، وينظر فى أمور العالم خلال أسبوع مقبل . وكما دافعت الإلهة إيزيس عن ابن أوزيريس شقيقها وزوجها فى الوقت نفسه ، وحمت حورس الابن ، فإن السيدة زينب شقيقة الشهيد الحسين قد حمت ابنه الوحيد الذى بقى على قيد الحياة ، على زين العابدين ، وهو الوحيد الذى تبقى من مأساة كربلاء ، من أبناء الحسين .

ونلاحظ أن تقديس المصريين لآل بيت النبى لا يعنى أنهم يعتنقون المذهب الشيعى ، والحقيقة أن المجتمع المصرى لا يعرف التفرقة بين مذهب السنة والشيعة وهما المذهبان الرسميان فى الإسلام ، ومما ساعد على عدم وجود هذه الحساسيات هو عمق الموروث الثقافى المصرى ، وقدرته على استيعاب كل الحساسيات ، لقد استمرت مكانة الآلة أوزيريس فى الضمير المصرى ، والثقافة المصرية ، وإن تغيرت صفاته وأسماؤه ، فى أسطورة

أوزيريس الفرعونية القديمة تقول الرواية إن أعداءه عندما ظفروا به قطعوه إلى أربعين جزءًا ، وفرقوا هذه الأجزاء على جانبى وادى النيل ، وإن إيزيس راحت تتبع هذه الأشلاء وتعيد دفن كل منها . حدث ذلك فى العصر الفرعونى السحيق . وفى عصرنا الحديث ، يمكن ملاحظة عدد كبير من الأضرحة تنتشر فى الريف المصرى والمدن المصرية ، كل ضريح منها يسمى « سيدى الأربعين » ، وربما يمكن القول إنه لا تخلو مدينة مصرية من « سيدى الأربعين » ومعظم هذه الأضرحة مجرد نصب رمزية خالية ، نصب رمزية لشىء أعمق وأكبر يستقر فى وجدان الشعب المصرى ، متصل بمكانة أوزيريس الفرعون ، أو الحسين فى عصرنا الإسلامى .

إن عناصر الاستمرار الثقافى عديدة ومتنوعة ، خاصة فى تفاصيل الحياة اليومية وتركيب القرية المصرية ، والمدن ، وطبيعة البيت الداخلى ، ومواعيد الزراعة التى مازال الفلاح المصرى يعرفها طبقًا للتقويم الفرعونى القديم ، وبنفس الأسماء الفرعونية القديمة ، كذلك أنواع الطعام ، وطرق إعداد الخبز وصناعة الأثاث ، ومضمون التعاويذ التى تتلى فى المناسبات المختلفة والطقوس الاحتفالية ، سواء عند الميلاد أو الموت .

هذه التفاصيل كافة تؤكد على قدم واستمرارية الثقافة المصرية فى مفهومها العام ، وقدرتها على التجدد والاستمرار .

تــراجـــــم ..

لنقرأ هذا الخبر من كتاب « طبقات الشعراء » لابن سلام الجمحى :

« . . أخبرنا أبــو خليفة . أخبرنا ابــن سلام . حدثنــى ابن جعــدبة وأبو اليقظــان عن جويرية بــن أسماء ، قال : مات كثير وعكرمة مولى ابن عباس فى يــوم واحد ، فاحتلفت قريش فى جنازة كثير . ولم يوجد لعكرمة من يحمله . . » .

* * *

ولنقرأ هــذا الخبر أيضًا مــن كتاب « الطــالع السعيــد ، الجامع أسماء نجبــاء الصعيد » للإدفوى المتوفى سنة ٧٤٨ هجرية :

« علىُّ بن إبراهيم بن عبد الملك نور الــدين ، أمين الحكم بقوص كان من عُدولها ومن الأخيار . سمــع الحديثَ وتــوجَّه إلى الحج ، فمرض بمكــة ووصَّى للأيتــام بها تناولــه من الجامكيَّة . وتُوفىِّ بمكة سنة تسع وخمسين وستمائة . روى عنه عبــد العزيز عبد الرحمن بن السُكرىّ : وكان مــن العقلاء ، ومع هذا طلَّق زوجتــه ، فتزوَّجت بالخطيب محيــى الدين بقوص ، فغاب عقله وخرج « عُريانًا إلى الشارع ، وأخبروا الخطيب بذلك ، فأخذوها مع نسوة ، فحضرت عنده وكلمته حتى سمع كلامها فسكن ، وقامت فتركته ،فرجع عقله ، وكان من عقلاء الناس ، عدلاً . . ثقة . . » .

* * *

خبران ينتميان إلى مصــدرين مختلفين ، متباعديــن فى الزمان والموضــوع . يترجم الأول لطبقات الشعراء . أما الثانى فيقدم عددًا مــن الناس الذين عاشوا فى مكان محدد ، ونبغوا فى العلم والأدب أو طابــت سيرهم . لكن يجمع الكتابين ذلــك الفن الخاص ، المزدهر فى تراثنــا العربــى ، فن كتــابة التراجــم ، والذى يُنظــر إليه حتــى الآن باعتبــاره من المصــادر التاريخيــة . ولم ينظر إليه أحــد على أنه مصدر غير مبــاشر للفن القصصى . فمــن خلال

كتب التراجم تلك تنتفض أمامنا ألوف ، وألوف من الحيوات المندثرة ، والتى كان ممكنا أن تغيب إلى الأبد ، لولا سطور تطول نادرًا ، وتقل فى معظم الأحيان ، لكنها تجسد الملامح الداخلية والخارجية . وتقص الخطوط العريضة وأحيانًا تفصل لتلك الأعمار التى اكتملت دوائرها . لتلك الشخصيات التى سعت ، من أدباء ، وسلاطين ، وأمراء ، ورجال إدارة، وأطباء ، وحكماء ، وعلماء ، ومتصوفة ، ونساء ، ومحاربين ، وأناس بسطاء ، تطالعنا هذه الملامح التى يوشك الكثير منها أن يتجسد من خلال السطور والكلمات . تنتظم هذه الطوابير الطويلة عبر صفحات كتب التراجم التى يصل بعضها إلى حد الموسوعات . هذا شكل عربى أصيل . قديم لم يتناوله أحد بالبحث المفصل ، باستثناء دراسة قصيرة ، ذات طابع تعليمى ، صدرت منذ سنوات فى القاهرة للباحث فى التراث العربى المرحوم محمد عبد الغنى حسن .

* * *

ـ التراجم باختصار نوع أدبى يتناول بالتعريف حياة إنسان ما ، تعريف يطول أو يقصر ويلزم الإحساس الروائى لتقديم الشخص من خلال الوقائع والصفات حتى تكتمل صورته حية فكأنه مازال بعد يسعى . والتراث العربى غنى بفن التراجم يفوق فى ذلك سائر الآداب الأخرى ، حتى مجال الترجمة الذاتية ، أى أن الكاتب والمكتوب عنه شخص واحد . نجد أقدم النماذج المعروفة على مستوى الأدب العالمى فى تراثنا العربى . كثير من نصوص الشعر الجاهلى تتضمن ترجمة ذاتية ، أما أول ترجمة ذاتية مباشرة فنجدها فى كتاب الاعتبار للأمير أسامة بن منقذ (٤٨٨ هـ ـ ٥٨٤ هـ) أى فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وفى نفس الفترة تقريبًا كتب الداعى الفاطمى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى (توفى ٤٧٠ هـ) كتب سيرته الذاتية . أما الشاعر اليمنى عمارة اليمنى فترجم لنفسه فى كتاب « النكت العصرية » كما ترجم لغيره من الوزراء ورجال الحكم فى أخريات العصر الفاطمى ، وقد لا يعرف الكثيرون أن المؤرخ العظيم عبد الرحمن بن خلدون ترجم لنفسه فى نهاية تاريخه الكبير ، لست أخوض فى باب المقارنة . لكن يكفى أن نعرف تاريخ صدور أول ترجمة ذاتية فى الأدب الإنجليزى . كان ذلك فى القرن السابع عشر الميلادى عندما كتب صمويل بيبيس ١٦٣٣ ـ ١٧٠٣ م يومياته ومذكراته وفى نفس القرن كتب ريتز مذكراته فى فرنسا عام ١٦٧٢ ، فى ذلك الوقت عندما بدأ فن كتابة التراجم يظهر فى أوروبا ، كانت التراجم العربية قد بلغت حدّامن الكثرة والتنوع لا نقاس به بداية غير منتظمة الخطا فى الآداب الأوروبية ، إنما أسوق المقارنة وأضرب المثل ليتبين لنا إلى أى حد

نظلم أنفسنا ونجهـل تراثنا عندما نجهـل هذا المصدر المهم الذى يمكـن أن يصبح وافدًا هامًا يثرى فنون القص وأشكاله فى أدبنا العربى .

* * *

السيرة النبويـة أوسع وأشمل مـا فى التراجم الإسلامية ، إذ كـانت المحور الـذى تدور حوله حياة الإسـلام ونشأته واتساعه وتطوره ، ثم أصبحت حيـاة الصحابة والتابعين محورًا هامًـا للتراجم فكتـب ابن سعـد موسوعتـه عن الصحـابة « الطبقـات » فى القرن الثـالـث الهجرى ، وفى نفس القرن وضع ابن سلام الجمحـى كتابه « طبقات الشعراء » ، ويلاحظ اهتمام المؤلفين فى هذه الفترة بـذكر الأسـانيد والرواة . وربما تـأثروا فى ذلـك بطريقـة رواية الأحاديث النبـوية ، وفيما تلا ذلك تنـوعت كتب التراجم والطبقـات ، والملفت للنظر أن معظم هـذه الكتب التى تنبئ بحسٍ روائى واضح عند مـؤلفيها . وضعت بمبـادرة ذاتية منهم ، لا تقرباً إلى حا كم ولا تزلفًا إلى سلطان ، ولا استجـابة لطالب ، إنما كانت بدافع ذاتى منهم . ويؤكد ذلك الحس الأدبى فى أعماقهم ، يقول ابن خلكان فى مقدمة موسوعته « وفيات الأعيان » بعد أن يشرح منهجه فى التأليف :

« وذكرت مـن محاسن كـل شخص ما يليـق به مـن مكرمة أو نـادرة أو شعر أو رسـالة ليتفكه به متأمله ولا يراه مقصورًا على أسلـوب واحد فيملَّه ، والدواعى إنما تنبعث لتصفُّح الكتاب إذا كان مُفَنَّنا . وبعد أن صار كذلك لم يكن بُدّ من استفتاحه بخطبة وجيزة للتبرك بها ، فنشأ من مجموع ذلك هذا الكتاب ، وجعلته تذكرة لنفسى . . » .

ولنتـوقـف مطـولاً أمام هـذه العبـارة الجميلـة ، الـدالـة ، الموحية « وجعلتـه تـذكـرة لنفسى . . » .

إننى أعتبر وفيات الأعيان درة فن كتابة التراجم العربية ، ولى وقفة أطول معه ، خاصة فيما يتعلق بطـريقة ابـن خلكان فى تقديـم الشخصية . فى القرن التـاسع الهجـرى ، نجد المؤرخ المصرى ابن تغرى بردى يشير فى مقدمة كتابـه « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » إلى أنه ألف كتابه هذا :

« غير مستدعـى إلى ذلك من أحـد من أعيان الـزمان . ولا مطالـب به من الأصـدقاء والخلان ، ولا مكلف لتأليفه وترصيفه من أمير أو سلطان . . » .

كان الدافع عنده ذاتيا محضا ، ليكمل كتاب « الوافى بالوفيات » لمؤلفه الصفدى المتوفى

سنة ٧٦٤ هجرية ، والذى أعقب كتاب ابن شاكر الكتبى ، « فوات الوفيات » والذى قدم فيه لمن لم يترجم ابن خلكان لهم .

أما ياقوت الحموى صاحب « معجم الأدباء » توفى سنة ٦٢٦ هجرية ، فيؤكد فى مقدمة موسوعته النادرة أنه جمع مادة كتابه هذا « لفرط الشغف والغرام ، والوجد بها حوى والهيام . لا لسلطان أجتديه ولا لصدر أرتجيه . . » .

أما ابن بسام الشنترينى ــ توفى ٥٤٣ ـ «صاحب الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة» ، والذى ترجم فيه لرجال الأندلس ، فيقول عبر مقدمة جزلة مؤثرة .

« أخذت نفسى بجمع ما وجدت من حسنات وهوى ، وتتبع محاسن أهل بلدى وعصرى ، غَيْرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بـدُورُه أهِلّة ، وتُصبح بحاره ثمادًا مُضمحِلّة ، مع كثرة أدبائه . ووفور علمائه . . » .

أما السخاوى صاحب « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » ، والذى يتميز بترجمته لعدد كبير من بسطاء الناس ، أصحاب الحرف وصغار المشايخ ، ومن خلالهم يقدم صورة حية للمجتمع المصرى فيقول فى مقدمته .

« والله أسأل أن يجنبنا الاعتساف المجانب للإنصاف وأن يرزقنا كلمة الحق فى السخط والرضا ويصرفنا عما لا يرتضى ويقينا شر القضا . . » .

كان أولئك الذين قدموا أجمل موسوعات التراجم العربية فنية ، وقدرة على الوصف ، وتجسيدًا لحيوات الناس ، مدفوعين برغبة داخلية قوية فى إعادة خلق ما اندثر من سِيَر الآخرين . وهذا ما جعل آثارهم تدنو من حدود الإبداع الأدبى المستند إلى الواقع المروى ، وتحاور كافة أشكاله فى مختلف العصور .

* * *

تنوعت كتب التراجم تنوعًا كبيرًا ، بدءا بالتراجم العامة التى تجمع عددًا من سير أناس يختلفون صناعة وطبقة وعصرًا ومكانًا . لكنهم يتحدون فى صفة الجدارة بأن يُذكروا . من هذه الكتب ، « نزهة الألباء فى طبقات الأدباء » لكمال الدين الأنبارى ، المتوفى سنة ٥٧٧ هجرية ، والثانى « معجم الأدباء » لياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ هجرية . وكتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان .

وهناك كتب التراجم التى صنفت حسب العصور ، ومنها « يتيمة الدهر » للثعالبى ، والذى ترجم فيه لأعلام الشعراء فى القرن الرابع الهجرى ، وكتاب « البدر المسافر وتحفة

المسافر » للادفوى المصرى وترجم فيه لأعلام القرن السابع الهجرى، وكتاب «الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » للمؤرخ ابن حجر العسقلانى ، ثم كتاب السخاوى «الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » ، وكتاب « الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة » لنجم الدين الغزى . و « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » لمحمد أمين المحبى وكتاب « مسلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر » للشيخ محمد خليل المرادى وفى العصر الحديث صدر كتاب « حلية البشر فى تاريخ القرن الثالث عشر » للشيخ عبد الرازق البيطار .

وهناك كتب التاريخ العام التى تعتبر من مصادر التراجم شديدة الأهمية مثل كتاب «المنتظم » لابن الجوزى . و « الكامل » لابن الأثير ، و « النجوم الزاهرة » لابن تغرى بردى، و« بدائع الزهور » لابن إياس ، و « عجائب الآثار » للجبرتى .

أما كتب الخطط التى تناولت العمران والمجتمعات العربية فتحفل بالتراجم ، وأهمها ، تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، وتاريخ جرجان للسهمى ، وتاريخ حلب لابن العديم . وخطط المقريزى ، وخطط على باشا مبارك .

وتعد كتب الطبقات من مصادر هذا الفن الفريد ، طبقات الصحابة لابن سعد وطبقات الفقهاء ، منها « طبقات الفقهاء والمحدثين » للهيثم بن عدى المتوفى سنة ٢٠٧ هجرية ، و « طبقات الفقهاء » لابن إسحق الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٦ هجرية و «طبقات الشافعية الكبرى » لتاج الدين السبكى ، توفى سنة ١٧٧ هجرية . وهذا كتاب شديد الحيوية ، يقدم صورة متكاملة واقعية جدًا للمجتمع المصرى خلال القرن الثامن الهجرى . وهناك كتاب « طبقات الشافعية » لابن قاضى شهبة الدمشقى المتوفى سنة ٨٥١ هجرية ، وهناك مؤلفات فى تراجم الحنابلة والمالكية والحنفية ، وللشيعة العديد من كتب التراجم منها (أعيان الشيعة) ، و « مقاتل الطالبيين » للأصفهانى صاحب كتاب الأغانى . وبالمناسبة فإن كتاب الأغانى الشهير فى جوهره ما هو إلا كتاب تراجم، هناك مؤلفات اختصت بطبقات المحدثين والحفاظ والقُرّاء ، والنحاة ، والشعراء ، والقضاة ، وكتاب واحد فقط فى التراث العربى للأطباء ، الذى وضعه ابن أبى أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ هجرية ، أما طبقات الصوفية فهناك العديد من الكتب الضخمة التى تحفل بتراجم رجال الصوفية وكراماتهم وخوارقهم وعاداتهم . إن المجال ليضيق بحصر تلك المؤلفات. ولكن لابد من الإشارة لثلاث موسوعات كبيرة . الأولى « حلية الأولياء » لأبى نعيم الأصبهانى ، وقد طبعت عدة مرات فى عشرة أجزاء ، وكتاب الإمام الشعرانى « لواقح الأنوار فى طبقات

الأخيار » واشتهر باسم « طبقات الشعرانى الكبرى » . وهناك كتاب هام صدر أخيرًا فى المغرب هو « التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبى العباس السبتى » لابن يعقوب يوسف بن يحيى التادلى المعروف بابن الزيات وقد صدر فى الرباط عام ١٩٨٤ بتحقيق الدكتور أحمد التوفيق . ونلاحظ فى كتب التراجم الخاصة بالمتصوفة وجود البعد الغرائبى أو العجائبى المرتبط بالرجال والنساء المترجم لهم من أصل الكرامات .

* * *

هكذا . . ما قصدت إلا الإشارة إلى ذلك الفن القديم ، العريق فى تراثنا ، قبل الإبحار فى لجة مضمونه ، ومحاولة تلمس أسراره ، طرق الرواية ، وأساليبها ، وما يميز هذا عن ذاك . وما يذخر به من تفاصيل وحيوات تضج بها السطور بعد أن خلت الأرض من أصحابها ، كما ستخلو منا يومًا . .

لطائف المنن والأخلاق
فى وجوب التحدث بنعمة الله
على الإطلاق

فى بداية سعيى ، زمن اكتمال غضاضتى ، وشروق أمرى ، لم تكن يد الوالد الكريم ، تخلو من يدى عند توجهه هنا أو هناك ، لزيارة قريب ، أو للفسحة . أو للطواف بمقام أحد الكُمل الصالحين ، الثاوين فى تراب مدينتى الشاسعة ، كان أحد مقاصده مسجد سيدى عبد الوهاب الشعرانى ، الذى ينسب إليه حى بأكمله يعد من أكثر مناطق القاهرة ازدحامًا وأصالة ، باب الشعرية ، مازلت أذكر ظلال المقام ، ورسوخ الضريح ، وخشوع القوم ، ورائحة القدم المنبعثة من أغطية الأرض الفقيرة عند الركوع مازلت أعى وقفة أبى ، وإطراقته ، والتماسه الغوث ، العون ، من الشيخ جليل القدر الذى رحل منذ حوالى خمسة قرون ، مازلت أذكر مع أن الشوط طال . والمسافات انقضت ، والصحبة انفرطت بعد التحاق أبى بالعدم . . رحمه الله .

فى السنوات الأخيرة عدت إلى سيدى عبد الوهاب الشعرانى من جديد ، هذه المرة عبر كتبه ، وآثاره ، سطوره حفزتنى لزيارته . ولكن هذه المرة بمفردى ، أترحم عليه ، وأقرأ له ولوالدى الفاتحة ، بعد أن نفذت إلى دقائق تكوينه الإنسانى من خلال ترجمته الذاتية البديعة ، الفريدة فى الأدبين العربى والعالمى ، والمعروفة بلطائف المنن والأخلاق فى وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ، هكذا كتب الإمام سيدى الشعرانى حياته ، من خلال ذكر ما مَنّ الله به عليه . وتطرق إلى أدق تفاصيل معاناته الروحية ، وعلاقاته الإنسانية ، حتى ما يتعلق بزوجته ، رسم أيضًا صورة حية ، لمجتمعه ، ولعلاقات الناس ببعضهم البعض ، بحيث جاء صورة لعصر بأكمله ، بقدر ما عبر اضطرام وثراء الحياة الروحية . لواحد من الذين تعلق بهم الشعب . وأنزله فى أرفع مكانة .

المنن ، جمع منة . وخلال حياة سيدى الشعرانى أنعم الله عليه بالعديد منها . فرأى أن يذكرها . ليقتدى إخوانه به ، فيتخلقوا بها ، يقول فى سبب تأليفه الكتاب :

« وقد مكثت متخلقًا بها عدة سنين ، ولا يشعر إخوانى بذلك ، وكنت آمرهم بالتخلق بها فلا يسمعون ، فقال لى يومًا جماعة منهم ، هذه الأخلاق التى تأمرنا بها لم نجد أحدًا تخلّق بها من أهل عصرنا حتى نقتدى به فيها ، فاستخرت الله تعالى وأظهرت لهم تخلقى بها . قطعًا لحجتهم ، وقلت لهم : انظروا إلى هذه الأخلاق التى أذكرها لكم فى هذا الكتاب ، فكل خلق رأيتمونى متخلقًا به فاتبعونى عليه .

هكذا رتب الكتاب على مقدمة . وستة عشر بابًا ، وخاتمة ، فى الباب الأول يحدد نسبه الذى ينتهى بالإمام محمد بن الحنفية وخطته فى السرد إيراد فقرات متتالية . تبدأ كل منها بجملة « فمما مَنّ الله تعالى به علّى . . . » ، يقول أثناء سرد نسبه :

« وكان جدى السابع الذى هو السلطان أحمد سلطانًا بمدينة تلمسان فى عصر الشيخ أبى مدين المغربى رضى الله عنه ، ولما اجتمع به جدى موسى ، قال له الشيخ أبو مدين : لمن تنتسب ؟ . قال والدى : السلطان أحمد . فقال له : إنما عنيت اسمك من جهة الشرف ؟ فقال انتسب إلى السيد محمد بن الحنفية ، فقال له : ملك وشرف وفقر لا تجتمع . فقال له : يا سيدى قد خلعت ماعدا الفقر ، فرباه ، فلما كمل فى الطريق أمره بالسفر إلى صعيد مصر ، وقال له أسكن بناحية « هِوّ » فإن بها قبرك ، فكان الأمر كما قال . . » .

هكذا امتثل الجد السابع لأمر شيخه . فجاء من المغرب إلى مصر . وانتقل جذر سيدنا من المغرب إلى المشرق .

* * *

ولد فى ريف مصر ، فى القرن السادس عشر الميلادى ، يقول عن طفولته :

« ومما مَنّ الله تبارك وتعالى به علىّ : وأنا صغير ببلاد الريف حفظ القرآن وأنا ابن ثمانى سنين ، وواظبت على الصلوات الخمس فى أوقاتها من ذلك الوقت ، فلا أتذكر أننى أخرجت صلاة عن وقتها إلى وقتى هذا إلا نسيانا مرة واحدة فنسيت الظهر فى طريق الحجاز حتى دخل وقت العصر من غير نية تأخير ، وكثيرًا ما كنت أصلى بالقرآن كله فى ركعة وأنا دون البلوغ . فالحمد لله رب العالمين . . » .

جاء إلى القاهرة سنة إحدى عشرة وتسعمائة ، وعمره انذاك اثنتا عشرة سنة ، أقام فى

جامع سيدى أبى العباس الغمرى . وحنن الله عليه شيخ الجامع وأولاده ، فأصبح كأنه واحد منهم ، يأكل مما يأكلون ، ويلبس مما يلبسون :

« فأقمت عندهم حتى حفظت متون الكتب الشرعية وآلاتها ، وحللتها على الأشياخ ، ولم أزل بحمد الله محفوظ الظاهر من الوقوع فى المعاصى ، معتقدًا عند الناس يعرضون على كثيرًا من الذهب والفضة والثياب ، فتارة أردها وتارة أطرحها إباحة فى صحن الجامع ، فيلتقطها المجاورون ، وكنت كثيرًا ما أطوى الأيام وأنا دون البلوغ تعففًا عما فى أيدى الناس، وخوفًا من هوانى فى أعينهم . . » .

حفظ متون الكتب ، حتى صار يعرف متشابهاتها كالقرآن . واستمع إلى شيوخه وشروحهم ، وكانوا نحو خمسين شيخًا . وكان ينسخ الكتاب والزوائد عليه لضيق ذات يده عن شرائها يقول سيدى الإمام الشعرانى :

« وكان ذهنى بحمد الله سيالاً لا يسمع شيئًا وينساه ، ولم أزل كذلك حتى ترادفت علىّ الهموم ، لما بلغت فى السن إلى نحو خمس وعشرين سنة . وذلك نحو ثلاث وعشرين من القرن العاشر (الهجرى) التى دخلت فيها إلى مصر . لما جاءت دولة بنى عثمان نصرهم الله تعالى ، وقال لى مرات بدايتك نهاية غيرك ، فانى مارأيت أحدًا تيسر له مطالعة هذه الكتب كلها فى هذا الزمن أبدًا . . » .

ثم يقول :

« ومما أنعم الله تبارك وتعالى به على حال اشتغالى بالعلم على الأشياخ حفظى من دعوى العلم والتكبر به على العامة ، فلا أستحضر أننى رأيت نفسى قط على أحد من عوام المسلمين » .

من نعم الله عليه أيضًا خفض الصوت عند حفظه . أو جدله مع رفاقه وكذلك كثرة المطالعة ، ومراجعة المشايخ سعيًا إلى الفهم الأدق وكان دائم السعى إلى نوادر المخطوطات .

« وكان الله تعالى قد سخر لى الشيخ شمس الدين المظفرى يأتينى بكل كتاب طلبته من خزائن مصر ، فجزاه الله تعالى عنى خيرًا . . » وبعد ذكر تحصيله ومجاهدته فى طلب العلم، يذكر مؤلفاته وتقريظ علماء عصره لها ، ويورد نصوص العبارات التى مدحوه بها ، ثم يقول :

« ومما أنعم الله تعالى به علىّ : موت جميع أشياخى وهم عنى راضون ، وذلك من أكبر نعم الله تعالى علىّ » .

كان سيدى الإمام يجاهد فى طلب العلم وتحصيله ، حتى أنه سعيًا إلى سهر الليالى مد حبلاً من السقف أحاط به عنقه ، يجعله حولها من العشاء إلى الفجر . ومكث على ذلك سنين ، حتى لا تأخذه غفوة .

القناعة باليسير

بعد ذكر ما حصله من كتب ، وما استوعبه من شروح ، ومتون ، يأخذنا شيئًا فشيئًا إلى عالمه الروحى . فيقول ما نصه :

« وكانت القناعة من الدنيا باليسير سداى ولحمتى ، فأغنتنى بحمد الله عن وقوعى فى الذل لأحد من أبناء الدنيا .

ولم يقع لى أننى باشرت حرفة ولا وظيفة لها معلوم دنيوى منذ بلغت ، ولم يزل الحق تعالى يرزقنى من حيث لا أحتسب إلى وقتى هذا . وعرضوا علىّ الألف دينار وأكثر فرددتها ولم أقبل منها شيئًا ، وكان المباشرون والتجار يأتون بالذهب والفضة فانثرهما فى صحن جامع الغمرى فيلتقطها المجاورون ، وتركت أكل لذيذ الطعام ، ولبست الخيش والمرقعات من شراميط الكيمان نحو سنتين وأكلت التراب لما فقدت الحلال نحو شهرين ، ثم أغاثنى الله تبارك وتعالى بالحلال المناسب لمقامى إذ ذاك ، وكنت لا آكل طعام أمين ولا مباشر ، ولا تاجر يبيع على الظلمة ، ولا فقيه لا يسد فى وظيفته . ويأكل معلومها ولا غيرهم من جميع المتهورين فى كسبهم ، وضاقت علىّ الأرض كلها ونفرت من جميع الناس ونفروا منى . فكنت أقيم فى المساجد المهجورة ، والأبراج الخراب مدة طويلة ، وأقمت فى البرج الذى فوق السور من خرابة الأحمدى مدة سنة . وما رأيت أصفى من تلك الأيام . وكنت أطوى الثلاثة أيام وأكثر ثم أفطر على نحو أوقية من الخبز من غير زيادة وضعفت بشريتى ، وقويت روحانيتى ، حتى كنت أصعد بالهمة فى الهواء إلى الصارى المنصوب على صحن جامع الغمرى ، فأجلس عليه فى الليل والناس نائمون ، ثم إذا نزلت من السلم إلى الجامع أنزل بجهد وتعب لغلبة روحانيتى وطلبها الصعود إلى عالمها ، فإنه لا يثقل الإنسان فى الأرض إلا كثرة الشهوات . وهذا هو سبب تحريك الإنسان رأسه حال الذكر ، وتلاوة القرآن ، فكأن الروح تشتاق إلى القرب من حضرة ربها ، إذا سمعت كلامه أو اسمه فتكاد تلحق بعالمها السماوى ، وقد أنشدوا فى معنى ذلك :

ولما بدا الكون الغريب لناظرى

حننت إلى الأوطان شب الركائب

يقول سيدى الإمـام الشعرانى إنه كثيرًا مـا خرج إلى موارد البرك التى يغسـل الناس فيها الفجل والخس والجزر والبقل فيلتقط منها ما يكفيه ، ثم يقول :

« وقد مكثـت أنا نحـو سنة وعمامتـى من شراميـط الكيمان وقصاصـة الجلود . حتـى وجدت الحلال ، وبالغت فى التدقيق فى الورع بحمايـة الله عز وجل لا بحولى ولا بقوتى ، حتى كنت لا آكل مـن فراخ الحمام لأكلها من زرع الناس ، ماقد لا تسمـح به نفوسهم ، ولا أمشـى فى ظل عمارة أحـد من الـولاة أو أعوانهم ، ولما عمـل السلطان الغـورى بمصر السابـاطا ـ السقف ـ الخشب الذى بين مـدرسته وقبته الـزرقاء ، تركت المرور مـن تحته ، فكنت أدخـل من سـوق الوراقين ، وأخـرج من سـوق الشرب ، وأنا بحمـد الله على مقام الورع إلى وقتى هذا . . » .

الملتفـت لا يصـل

يذكر الإمام كثيرًا من شيوخه ، ولكن الاسم الذى يتردد أكثر من غيره . هو الشيخ على الخواص ، وقد أفرد لـه ترجمة مطولة فى كتابـه لواقح الأنوار المعروف بطبقـات الشعرانى . بعد أن يذكر مجاهدته من أجل العلم . واستيعاب الفقه ، والعلوم الشرعية ، والتفاسير ، بعد أن يذكر قبسًا مـن مجاهدته الروحية ، ينتقل إلى مجاهدته على يـد سيده وسيدنا الشيخ على الخواص الـذى أمره فى أول اجتماع بـه أن يبيع جميـع كتبـه ، وأن يتصدق بثمنهـا على الفقراء ، فامتثـل مع أنه يذكر نفاسـة كتبه وندرتها ، صار عنده التفات إليهـا وحزن لكثرة كتابته الحواشى والتقييـدات عليها ، شعر كأنه سلب العلم ، فطلب منـه شيخه أن يذكر الله تعالى فإنهم قالوا : ملتفت لا يصل .

وهنا :

« عملت على قطـع الالتفات إليهـا مدة حتـى خلصت بحمـد الله تعالى مـن ذلك ، فأمرنـى بالعزلة عـن الناس مدة حتى صفـا وقتى ، فصرت أهرب من النـاس وأرى نفسى خيرًا منهم فقال لى : اعمل على قطع رؤية أنك خير منهم .

فعملت فى المجاهدة مدة حتى صرت أرى أن أرذلهم خير منى .

ثم أمرنى بـالخلطة . والصبر على أذاهـم . وعدم مقابلتهم . فعملـت على ذلك حتى قطعته . فرأيت حينئذ أننى صرت أفضل مقامًا منهم فقال لى : اعمل على قطع ذلك .

فعملت على قطعه مدة ، حتى قطعته .

ثم أمرنى بالاشتغال بذكر الله تبارك وتعالى سرًا وعلانية . وكل خاطر خطر لى بترك أكل الشهوات مطلقًا ، فتركتها حتى صرت أصعد بالهمة فى الهواء . وصارت العلوم النقلية تزاحم العلوم الوهبية ، ثم أمرنى بالتوجه إلى الله تعالى فى أنه يطلعنى على أدلتها الشرعية . فلما اطلعت عليها وصار لوح قلبى ممسوحًا من العلوم النقلية لا ندراجها فى الأدلة ، ترادفت علىّ حينئذ العلوم الوهبية ، وكان ابتداء ذلك بساحل بحر النيل عند بيوت البرابرة وسواقى القلعة ، فبينما أنا واقف هناك ، وإذا بأبواب من العلوم اللدنية انفتحت لقلبى ، كل باب أوسع مما بين السماء والأرض ، فصرت أتكلم على معانى القرآن والحديث . واستنبط منهما الأحكام وقواعد النحو والأصول وغير ذلك ، حتى استغنيت عن النظر فى كتب المؤلفين ، فكتبت عن ذلك نحو مائة كراسة . فعرضت بعض ذلك على سيدى على الخواص فأمرنى بغسله ، وقال : هذا علم مخلوط بفكر وكسب . وعلوم الوهب منزهة عن مثل ذلك . فغسلتها وأمرنى بالعمل على تصفية القلب من شوائب الفكر ، وقال : بينك وبين علم الوهب الخالص ألف مقام . فصرت أعرض عليه كل شىء فتح به علىّ ، وهو يقول : اعرض عن هذا واطلب ما فوقه . إلى أن كان ما كان . فهذا كان صورة فتحى بعد المجاهدة المذكورة . فالحمد لله رب العالمين .

* * *

هكذا ، بدأ سيدى الإمام الشعرانى طريق القوم . وفى ختام الباب الأول الذى خصصه لشرح عناصر تكوينه ، يورد سطورًا لشيخه سيدى على الخواص .

« كان إبراهيم بن أدهم رحمه الله يقول : مررت على حجر مكتوب عليه اقلبنى تعتبر، وذلك أيام سياحتى ، قال : فقلبته فوجدت فى باطنه مكتوبًا : « أنت بما تعلم لم تعمل فكيف تطلب علم مالم تعلم فوالله إن أمثالنا لم يطلب العلم إلا لإقامة الحجة عليه لا غير، ومن ادعى غير ذلك كذبته أفعاله ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . . » .

يقول الإمام الشعرانى فى مفتتح الباب الثانى إن من نعم الله عليه عدم اصغائه منذ طفولته إلى من يزعم أنه يعرف علم الكيمياء ، أو يقدر على فتح المطالب ، وهذا من النعم الجليلة ، فقد تلف فى ذلك حال كثير من الفقراء وطلبة العلم ، كان سيدى إبراهيم المتبولى يقول : ثلاثة من الناس لا يرجى فلاحهم لاستحكام المقت فيهم ، من يحب اللواط . ومن يعمل الكيمياء ومن يريد فتح المطالب .

واضح أن المجتمع المصرى كان مشغولاً بالأمرين معًا ، الاشتغال بالكيمياء لتحويل الحديد إلى ذهب . والعثور على الكنوز الخبيئة التى تضم الذهب والمجوهرات النفيسة ،

يقول الإمام الشعرانى إن سيدى « أبو » البقاء بن البارزى أخبره عن شخص نصب عليه . فأتلف عليه نحو ثلاثين الف دينار ، فصار يأخذ منه دفعات من المال ، ويطبخ ـ أى يجرى التجارب ـ فتطلع الطبخة فاسدة ، فيقول له : المرة الثانية تصح إن شاء الله تعالى ، واستمر الأمر حتى نفد جميع ما معه من مال .

سأله مولانا الشعرانى : وأين ، كان عقلك ؟

فقال : وهل لمحب الدنيا من عقل ؟

المطـــالب

أما الشيخ محمد أبو شعر الماوردى فكان من أصحاب سيدى الشيخ « أبو » السعود الجارحى . أخبر مولانا الشعرانى أن رجلاً نصب عليه قال له : بلغنى أن فى قاعتك مطلبًا عظيمًا ومقصودى أفتحه لك ، ولكن يحتاج إلى نحو سبعة وعشرين ألف نصف نشترى بها بخورات ، ونحلى بها ضام الجن الذين يحرسون الكنز ، وكان النصاب يعرف علم الكيمياء ، فاخذه وأدخله القاعة ، وأطلق له عشبًا معروفًا عنده فرأى بمخيلته أن بابًا انفتح ، فنزل هو وإياه فوجدا أكوامًا من الذهب والفضة كالتلال الصغيرة ، وإذا بملك الكنز وحارسه نائم على سرير قوائمه من ذهب وهو مغطى بثياب من حرير ، وعليه شبكة من لؤلؤ. فقال له : بقى عندك شك ؟ ، فقال : لا ، فقال : أعطنى من المال لآتى لك بالبخور الذى يبطل الموانع لتبخر به ، فأعطاه جميع ما بيده من النقد ، وأخذ أساور أمه الذهبية ، وباع حتى ملابس زوجته ، وبعد أن أخذ النقود كلها اختفى ، ولم يعثر له على أثر حتى اليوم ، وبعد أن يأتى إمامنا الشعرانى بحكايات عديدة حول الذين سعوا إلى كشف الكنوز ، أو تحويل الحديد إلى ذهب ، يقول :

« وقد لعب الشيطان بجماعة كثيرة يدعون التصوف والسلوك فأتلفوا ما كان بأيديهم وأيدى أصحابهم من الأموال . وصاروا كلهم فقراء من الدنيا يأكلون بدينهم وصلاحهم ومجالسهم فى الذكر خبزًا وطعامًا وثيابًا . فكان الذى يأكل بالطبل والمزمار أحسن حالاً منهم . لأنه قد قيل بحل الأكل بالطبل والمزمار فى الجملة » .

ثم يحدثنا عن امتحانه لأحد الصوفية المشهورين فى عصره :

« وقد امتحنت سيدى محمد الجعفى لما حججت ، وقلت له : أنا أعرف علم الكيمياء فصار يخدمنى أشد الخدمة ، فلما عزمت على الرجوع من الحج تبعنى . وقال : علمنى ما وعدتنى . فقلت له : هيهات . . كيف أعلمك شيئًا يشغلك عن الله تعالى . فمازال

يقسم عليَّ فلا أجيبه ، ثم قلت له : يا شيخ محمد أين شهرتك بالزهد فى الشام ومصر والحجاز والروم ، وأنت تحب الدنيا ؟ قال ، فاستغفر وتاب على يدى . وكلح منى » .

الشفقة

من نعم الله العظمى على مولانا إحساسه بالآخرين . لم يكن ذاهلاً أو غائبًا عن مجتمعه أو ناسه .

« كثرة شفقتى على جميع المسلمين ، وولاة أمورهم ، حتى أنى ربما أمرض لمرض ولى أمرى . وأشفى وقت شفائه ، ومن شفقتى أننى أحوطهم فى كل يوم وليلة بما ورد فى الأخبار والآيات مما يدفع عنهم الآفات المعلقة على ذلك ، حتى أنى أحوط جسورهم أيام زيادة النيل خوفًا من أنها تنقطع قبل وقتها أو يقطعها العصاة كذلك فيعدم الناس رى أراضيهم أو بعضها ، وكذلك أحوط زروعهم من الدودة والهياف ـ المشرات ـ والفأر ، ونزول المطر الذى يحرق الزرع بعد اشتداد حبه ونحو ذلك إلى طلوع الثريا » .

والمقصود بالحوطة التى يذكرها مولانا أنه يقرأ آيات من القرآن الكريم وأورادًا تقيم حاجزًا وسياجًا حول الشىء المراد التحويط عليه لحمايته ، وقد وقع لى مثل ذلك فى طفولتى بصعيد مصر ، عندما كانت جدتى لأمى ترفع أصبعها وتحركها حولى رأسى متمتمة بما لا أعلمه وبين الحين والآخر تقول إنها تحوطنى من عين الحسود والمرض وأخطار الطريق والمجهول ، يقول مولانا وسيدنا :

« وكذلك أحوط زهر الفواكه والخضراوات خوفًا من البرد والحر الشديدين ، لأنهما يسقطان الزهر فيخسر الناس الذين يزنون المال على ذلك معجلاً ، وكذلك أحوط من يغفل عن الله عز وجل من رعاع الناس ، فى مثل يوم خروج المحمل أو خروج الحجاج أو دخولهم . أو كسر النيل أيام الوفاء ، أو دخول نائب جديد البلد ، أو عمل مولد . أو عرس . أو نحو ذلك . كالتفرج على البهلوان ، فأحوط جميع هؤلاء وأحوط دورهم خوفًا أن تسرق اللصوص ما فيها حال غيبتهم » .

بلغ من رهافة إحساسه بالآخرين ، أنه كان إذا سمع امرأة تجتاز مخاضًا صعبًا ، يشعر هو بآلام الوضع حتى تلد ، كان يرحم جميع الخلق ، فلكل مخلوق عنده رحمة تناسب حاله من مؤمن وكافر ، والرحمة على الخلق مقام لم يتفرد به إلا قلة محدودة جدًا من الصوفية ، ويحدثنا إمامنا عن رؤيا مرت به فى شبابه ، إذ رأى فى المنام أنه فى أرض من بللور واسعة وعليها سور شاهق نحو السحاب ، وليس له باب ، وهو خلف الشيخ نور الدين

الشونى ، شيخ مجالس الصلاة على رسـول الله صلى الله عليه وسلم فى مصر وقراها ، فبينما هما ما شيـان إذ نزل من السماء قربـة من ماء فى سلسلـة من ذهـب ، إلى أن وقف بقـدر ما يصلها فمـه ، شرب الشيخ نـور الديـن منها ، ثـم أعطاه الفضلـة ، تركـه حتى تجاوزه ، عندئذ نزل شيء يشبه اللوح وهو فى سلسلة مـن فضة إلى أن وقف بقدر ما يصل إليه الفم كـذلك ، فـرأى ثـلاثة عيـون تتفجر بماء بـارد ، على العين العليـا مكتوب ، هـذه العين مستمدة من حضرة الله تعالى ، أمـا الوسطى فمن العرش ، والسفلى من الكـرسى ، ألهمه الله تعالى أن يشرب من الـوسطى . ولما قص رؤاه على الشيخ شهاب الهرامـزى فسرها له . قال له إن ذلك يعنى الرحمة بجميع العـالم . لأن الحق تعالى ما ذكر أنه استوى على العرش إلا باسم الرحمن .

الأكـــل

يحدثنا مـولانا الشعرانى على امتـداد كتابه مرارًا عـن الأكل ، فمن منن الله عليـه أنه لم يأكل من طعـام فيه شبهة ، وإذا استراب فيه فإنه يتقيؤه ، كذلـك عدم الشبع من الحلال فضلاً عن الحرام والشبهات ، وذلك من أكبر نعم الله تبارك وتعالى عليه ، فإن أكل الحرام أو الحلال الزائد عـن الحاجة يجلب النـوم ، والنوم أخـو الموت ، لأنه يورث الغفلـة . عن جميع المصالح ، والخير ، كل الخير فى اليقظة ، والشر فى النـوم والغفلة ، ومن النعم أيضًا عدم اشتهائه شيئًا من المطاعم والملابس إذا دخل السوق وإذا رأى فإنه يرى ببصر عقله لا بقلبه . كذلـك كرهه الأكل من الصدقـات الخاصة . وأيضًا حمايته من الأكل مـن هدايا الظلمة وأعوانهم من العمال ، ومشايخ العرب ، والكشاف ، وشيوخ البلد ، والمباشرين ، أى من يمتون إلى السلطة ، قال تبارك وتعالى « ولا تـركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكـم النار » فنهى عـن الركون والاستكـانة إلى الظلم . كـان سيدى إبراهيـم المتبولى يقول : إيـاكم أن تأكلوا مـن طعام من يعتقد فيكم الصلاح مـن الأمراء وغيرهم . فإنكم تأكلـون بدينكم . وكان رضى الله عنه يرد هدايا الولاة . وقد أرسل إليه شخص من جند السلطان فى رمضان صحن كنافـة مبخرة ، ونثر عليها السكر والفستـق ، فأكل منها لقمًا ، فقسـا قلبه جمعة ، وعجـز عن إخـراجه بـالقىء . ومـرة أخـرى أفطر عنـد شخص مـن مباشرى القلعـة فى رمضان ، فوجد على مائدته أكثر من خمسة عشر لـونًا ، علم أنه متهور فى مكسبه ، فأكل لأجل خاطره ثلاث لقم بورق فجل ، وفى الليلـة نفسها رأى فى المنام من يقول له : استعد لمن يحاذيك على الصراط من أجل الثلاث لقم التى أكلتها الليلة بورق الفجل . عبثًا حاول أن يتقيأ فلم يتيسر له . يتساءل مولانا : فإذا كـان هذا فى مثل ثلاث لقم بفجل ، فكيف

الحال فيمن يشبع ، فأسأل الله تعالى مـن فضله أن يحمينى و إخـوانى من مثل ذلـك بقية أعمارنا ، أمين والحمد لله رب العالمين .

الـولاة الحـكام

يشعر إمامنا الشعـرانى بآلام الحكام ، حتى أنه يمرض لمرضهـم ، ولكنه يحسهم كولاة لأمور المسلمين وليس باعتبـارهم حكامًا ذوى سلطة ، وقد نشـر فى صفحات كتابه الكثير من المنن المتعلقـة بعلاقته بهم ، ومعظمها يعكـس تعففا ، وتجنبًا وشجاعـة فى مواجهتهم عنـد وقوع الضرورة . يـؤكد أنـه لا يخاف من مخلـوق مطلقًا ، حتـى الحيات أو العقـارب والتماسيح واللصوص والجان ، ولكنه قبل ذلك يقول :

« ومما أنعم الله تبـارك وتعالى به علىّ : عدم خوفى مـن أحد من الولاة بسبـب كلام نقله لهم بعض الحسدة فى حقهـم عنى أو نحو ذلك إلا إن كان الخوف منهـم يرجع إلى الخوف من الله عز وجل » .

ويروى إمـامنا عـن الأمير خضر كاشـف الشرقية والقليـوبية أن الشيـخ المتصوف على البرلسى لقيه فى طريق قليوب ، ومعه العسكر فقبـض على طوقه وأنزله من فوق الفرس ، وصار يصفعـه ويضربه على عمامتـه ، حتى هدمهـا فى عنقه بحضرة عسكـر السلطان ، حتى أن الأمير صار يرتعد من هيبته .

« ومن هنا تصدر العلماء العاملون لإزاله منكرات الولاة كالشيخ محيى الدين النووى ، والشيخ تقى الدين الحصنى ونحوهما لكمال زهدهم فى الـدنيا ، ولو أنهم كانوا يحبون الدنيا لما قدر أحد منهـم على مخاصمة أحد الولاة » .

يقـول الإمـام الشعـرانـى إنـه حمل دائمًا على العلماء الـذيـن يـدخلـون على الأمـراء ولا ينصحونهم ، ولا يـأمرونهم بمعروف ، ومـن منن الله عليه نفـوره من مدح الأمـراء ، وقلة عبادته للظلمة ، وفى المقابل فإنه يشارك الخلق كل بلاء يقع عليهم ولا يهدأ إلا إذا ارتفـع .

« ومما مَنّ الله تبارك وتعـالى به علىّ : مشاركتى لكل من بلغنى أنـه فى ضيق فى جميع ما يصيبه ، وينزل عليه من البلايا والمحن » .

« ومما يقع لى أنه إذاكان عندنا امرأة فى المخـاض أحس أنى أطلق مثلها ، إذا بلغنى ما هى فيه من الوجع . وكذلك . إذا بلغنى أن أحـدًا يعاقب فى بيت الوالى أحس بالمقارع ، والكسارات وعصر الرأس ، ووضع الخوذة المحماة بالنار على رأسى . . » .

وفى المقابل يقول إن من منن الله عليه حب الفقراء له ، واعتقادهم فيه حتى أن بعضهم يحلفون بـه ، ويقولـون لبعضهم : وسر سيـدى عبد الـوهاب . فيحلفـون به كما يحلفـون بالمشـايخ الموتـى ، المدفونين فى التـوابيت « مـع أنى لسـت بشيخ ، وإنما الله تعـالى مازال يسترنى بين عباده بوجوه شتى ، فله الفضل والمنة على سترتى بين عباده » .

الحيـاة الخـاصـة

لا أظن أن ترجمة ذاتية فى الأدب القديم أو الحديث حوت مثل صراحة امامنا الشعرانى وهو يسرد لطائف مننه ، خـاصة فيما يتعلق بزوجته ، وعندما تـوجه إلى زيارة سيدى أحمد البدوى فى طنطـا صحب زوجته . كان قـد عقد عليها منـذ سبعة شهور وما تـزال بكرًا ، جاءه السيد أحمد البدوى ، وقال له : اختل بها فى ركن القبة الذى على يسار الداخل وأزل بكارتها ، ففعل .

« ومما أنعـم الله تبارك وتعالى بـه على : كثرة شفقتـى على ذريتى من قبـل أن تحمل بهم أمهم . وذلك أنى لا أجامع أمهم قط وأنا غـافل عن الله تبارك وتعالى ، ولا أجامعها وأنا غضبان ولا وأنـا مقبل على الدنيا ، ولا وأنـا مخاصم أمهم لحظ نفس ، ولا وأنـا حسود أو متكبر على أحد من المسلمين » .

ومن لطـائف المنن أيضًا كثرة صبره على زوجتـه إذا مرضت ، حتى أنـه لا يستنكف أن يمسـح ما تحتهـا من القـاذورات إذا عجـزت عن الـذهاب إلى الخلاء ، أو الجلـوس على الطشت مثلاً . كما كانت تفعل معه إذا مرض ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

« وإن طـال مـرضها واحتجـت إلى التـزوج لم أتـزوج عليهـا لئـلا أجمع بذلـك عليهـا مرضين . حسيًا ومعنـويًا ، وإن خفت العنت استعملت الأدوية المسكنـة لهيجان الشهوة إلى وقت شفاء زوجتى أو مـوتها . كل ذلك قيامًا بحق الصحبة ولـو ليلة واحدة . وشفقة على خلق الله تعالى بمثل ما أصنع معها إذا مرضت » .

يقول إن من منن الله عليه عدم بخله عليها بأجرة الحمام ، سواء كان لإزالة جنابة جماع أو نفاس ، أو حيـض . لأن ذلك من جملة المعـاشرة بالمعروف ، فمن بخـل على زوجته لم يعاشرها بمعـروف ، وعلى امتداد الكتاب يوصـى بغض الطرف ، وعدم النظـر إلى محاسن امرأة الجار ، أو تلك التى غاب زوجها ، والرحمة بالأبناء ، والمودة والقربى للزوجة .

* * *

لطائف المنن دستور إنسانى رفيع فيما يجب أن تكون عليه علاقة الإنسان بمجتمعه، بأسرته ، بصحبه ، بالحكام والولاة ، يفصل أحوال المجتمع المصرى فى القرن السادس عشر الميلادى ، ويثبت أن المتصوفة الكبار كانوا على صلة وثيقة بأدق تفاصيل الحياة اليومية ، كانوا طرفًا أساسيًا فى المجتمع ولم يكونوا على هامشه ، وقد أدرك الناس ، خاصة البسطاء حقيقة هذه النفس الشفافة . الإنسانية ، فأنزلوا صاحبها فى حياته أرفع منزلة ، حتى أنهم حلفوا به . وبعد وفاته رفعوه إلى مرتبة الأولياء الصالحين . وإننى إذ أمضى لزيارة ضريحه فى زمنى القاهرى العتيق ، احتوى بنظرى مئات الساعين إليه ، القادمين من قرى قصية ، أو أماكن بعيدة ، يطوفون بمرقده ، يقرءون الفاتحة ، ويبثون نجواهم ، ومواجعهم . لقد عبر جوهره الإنسانى الحقب والعصور المتتالية . فصار ضوءًا مشعًا ، هو الذى لم يقدم على تدوين لطائف المنن التى أنعم بها الله عليه ، إلا ليقتدى به الآخرون، ويتبعوه ، فتصح إنسانيتهم .

ابـن سينـا .. يتحـدث عن نفسـه

تبدو الترجمة الذاتيةفى أدبنا العربى لغير المدقـق ، الخبير بجوانب هذا التراث نادرة بل قد يقول البعض إنها منعـدمة ، غير أن الواقع لا يؤيد ذلك ، فإلى جـانب النصوص التى كتبت كترجمة ذاتية مباشرة ، أى أن الكاتب والمكتوب عنه شخص واحد ، مثل (الاعتبار) لأسامة بـن منقذ ، و (المنقذ من الضلال) لـلإمام الغزالى ، و« السيرة المؤيديـة » للمؤيد الشيرازى ، هناك نصوص عـديدة فى بطون الكتب ، إلى جـانب الشعر العربـى القديم ، الذى نجد فى العديد مـن قصائده ترجمة ذاتيـة للشاعر ، وهـذا موضوع يحتـاج إلى بحث ودراسة منفصلة ، وبـالطبع فإننى أتحدث عـن الترجمة الذاتية ، أما عـن كتب التراجم فما أغنى الأدب العربى بها ، وكتب الطبقات والتراجم يزخر بها تراثنا فى مختلف العصور .

من النصوص المندسة فى بطون الكتب ، نص فريـد يتحدث فيه ابن سينا عن نشأته ، وتكوينه أملاه على أحـد المقربين منه ، أبى عبيد الجوزجانى وهذا النـص موجود فى كتاب «عيون الأنباء فى طبقـات الأطباء » لابن أبى أصيبعـة ، والذى حققه وشرحه الـدكتور نزار رضا ، وصدر فى بيروت عن منشورات دار مكتبة الحياة منذ عدة سنوات . يقول المحقق فى مقدمة الكتاب :

« من أطباء العرب المعروفين وأدبائهم المرموقين ، رجل ترجم فى كتاب واحد ، لم يؤلف غيره . أطباء العالم المشهورين منذ بدء التاريخ حتى يـومه الذى هو فيه ، إنه موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبى أصيبعة السعدى الخزرجى » .

ولد فى دمشـق عام ٦٠٠ هجـرية ، وكان والـده طبيبًا تلقـى علم الطـب فى دمشق ، والقاهـرة ، وذاعت شهرتـه حتى وصلت إلى أمير صرخـد ، إحدى مدن جبـال حوران ، فأرسل يطلبـه ، فرحل إليه ، وهناك عاش حتـى توفى فى ٦٦٨ هجرية ، وضع كتـابه هذا لأمين الـدولة وزيـر الملك الصـالح ، وقـد بـدأ فيه بترجمة كبـار الأطباء زمـن الإغريـق ،

والـرومان، والهنـود ، والعرب ، والعجـم . ترجـم لأطباء مصر والشـام ، كل قطـر على حدة. طبع لأول مرة على يد المستشرق الألمانى مـولر الذى عثر على نسختين مخطوطتين منه عام ١٨٨٤ . ثـم قامت المطابـع المصرية بطبعه مرة أخرى ، نقلاً عن طبعة مـولر، إلا أن العثور على طبعاته القـديمة بات صعبًا ، ولم يصبح متاحًا إلا بعـد التحقيق الجديد الذى قدمه الدكتور نزار رضا .

* * *

ابن سينا أو الشيخ الرئيس ، أو إمام العلـوم كلها ، ولد عام ٣٧٠ هـ (٩٨٠ م) قرب بخارى . كان أبـوه من أهل بلخ . أتـم دراسته فى اللغة والأدب وهو فى سـن العاشرة على يدىْ رجل مجهول لم تذكره الترجمة التى نتحدث عنهـا . ويقول الأستاذ محمد ثابت الفندى فى تعليقه على المادة التى كتبهـا المستشرق دى بور لدائرة المعارف الإسلامية إن هـذا الرجل من المحتمل أن يكون هـو أبا بكر أحمد بن محمد البرقى الخوارزمى (يـراجع كشف الظنون لحاجى خليفـة الجزء الثالث ـ ص ٣٧٦) ، وتقـول الترجمة إنه درس الطب بمفـرده ، من جهـة أخرى يـروى أنـه تلقاه على أبـى سهـل المسيحـى ، وأبى منصـور الحسـن بن نـوح القمرى، عـام ٣٩٢ هـ ، وبعـد سقوط عرش السـامانيين بين يـدىْ أمير غزنـة السلطان محمود بن سبكتكين ، خرج من كركانج إلى جـرجان عام ٤٠٣ هـ ، فارًا من وجه سلطان غزنة أيضًـا ، ويذكر فريد الـدين العطار أنه التقـى بالشيخ أبى سعيد بـن أبى الخير شيخ متصوفـة هذا العصر فى نفـس هذا العام ، فى عـام ٤٠٦ هـ يظهـر ابن سينـا فى المدى ثم نجده فى همذان حيث تولى الوزارة مرتين ، إلا أنه من المؤكد أنه ترك الوزارة عام ٤١١ هـ ، إذ نجد فى أخبار هذا العام عنـد ابن الأثير ذكرًا لوزير آخر ، بعد تركـه الوزارة اضطهد من قبل أمير همذان الجديد ، بـث حوله البصاصين ، بل إنـه سجن لفترة ، وأخيرًا . . فر إلى أصفهان عام ٤١٤ هـ ، وعاش مقربًا من أميرها علاء الدولة بن كاكاويه . ثم توفى فى عام ٤٢٨ هـ . ويروى ابـن خلكان فى وفيات الأعيان روايـات مختلفة عن موضـع وفاته ، كما ذهب بعـض المستشرقين إلى القول بأنه تـوفى بالأندلس إثـر دسيسة من ابن رشـد ، ولكن هذه أقـاويل تفتقر إلى أبسـط الأدلة ، وحتى الآن فإن قبره مـازال بهمذان يزار . كـان ابن سينا قويًا ، جلدًا ، وفى نص ترجمته صـورة حية ، بليغة تصف مواصلته السهر لتحصيله العلم ، وسكبه المياه الباردة على رأسه كلما أوشك على النوم حتى يفيق ، فى السادسة عشرة كان قد استوعب الطب ، والمنطق ، والآلهيات ، وعنـدما تمكن من علاج سلطان بخارى نوح بـن منصور سمح لـه بدخـول دار كتبه ، ولأنه كـان يتمتع بقوة ذاكـرة مدهشـة فقد

استطاع فى فترة وجيزة أن يحصل من العلم الكثير . وفى الواحدة والعشرين بدأ يصنف الكتب . تعرضت حياته لا ضطراب بعد وفاة والده ، إلا أنه كتب أهم مؤلفاته خلال فترات الراحة والهدوء التى كان ينعم بها فى بلاطى همذان ، وأصفهان ، وقد أتم فى هذه الفترات دائرة معارفة الفلسفية (الشفاء) ومصنفه الطبى (القانون فى الطب) . وقد تركت مؤلفاته الموسوعية أثرًا عميقًا على الفكر الإسلامى ، والعصور التالية له ، وبعد موته تكونت له فى الأذهان ملامح أسطورية . والترجمة التى نورد نصها تلقى الضوء على بعض سيرته ، خاصة سنوات تكوينه ، إلا أننا ننبه إليها من زاوية محاولة تسليط الضوء على بعض الجوانب المجهولة فى الأدب العربى ، خاصة وأن كتابًا مثل (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) قد لا ينظر إليه دارسو الأدب العربى باهتمام . وكثير من المصادر التى يمكن أن تثرى أدبنا الحديث فى بطون كتب غير مطروقة . وهذا النص يؤكد وجود شكل السيرة الذاتية فى تراثينا العربى والإسلامى ، إلى جانب نصوص أخرى سوف نحاول تسليط الضوء عليها تباعًا .

* * *

إن أبى كان رجلاً من أهل بلخ ، وانتقل منها إلى بخارى فى أيام نوح بن منصور واشتغل بالتصوف . وتولى العمل فى أثناء أيامه بقرية يقال لها خرميثن من ضياع بخارى ، وهى من أمهات القرى . وبقربها قرية يقال لها أفشنة ، تزوج أبى منها بوالدتى وقطن بها وسكن ، وولدت منها بها ، ثم ولدت أخى ، ثم انتقلنا إلى بخارى ، وأحضرت معلم القرآن ومعلم الأدب وأكملت العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب ، حتى كان يقضى منى العجب . وكان أبى ممن أجاب داعى المصريين ويعد من الإسماعيلية ، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذى يقولونه ويعرفونه هم ، وكذلك أخى . وكانوا ربما تذكروا بينهم وأنا أسمعهم وأدرك ما يقولونه ولا تقبله نفسى ، وابتدءوا يدعوننى أيضًا إليه ، ويجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند ، وأخذ يوجهنى إلى رجل كان يبيع البقل ، ويقوم بحساب الهند حتى أتعلمه منه ، ثم جاء إلى بخارى أبو عبد الله النائلى وكان يدعى المتفلسف ، وأنزله أبى دارنا رجاء تعلمى منه ، وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه والتردد فيه إلى إسماعيل الزاهد ، وكنت من أجود السالكين ، وقد ألفت طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على العجيب على الوجه الذى جرت عادة القوم به .

ثم ابتدأت بكتاب إيساغوجى على النائلى ، ولما ذكر لى حد الجنس ، إنه هو المقول

على كثيرين مختلفين بالنوع فى جواب ما هو ، فأخذت فى تحقيق هذا الحد بما لم يسمع بمثله، وتعجب منى كل العجب وحذر والدى من شغلى بغير العلم . وكان أى مسألة قالها لى أتصورها خيرًا منه ، حتى قرأت ظواهر المنطق عليه . وأما دقائقه فلم يكن عنده منها خبرة . ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسى وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق . وكذلك كتاب أقليدس فقرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه ، ثم توليت بنفسى حل بقية الكتاب بأسره . ثم انتقلت إلى المجسطى ، ولما فرغت من مقدماته وانتهيت إلى الأشكال الهندسية ، قال لى الناتلى تول قراءتها وحلها بنفسك ، ثم اعرضها على لأبين لك صوابه من خطئه ، وما كان الرجل يقوم بالكتاب ، وأخذت أحل ذلك الكتاب فكم من شكل ما عرفه إلى وقت ما عرضته عليه وفهمته إياه . ثم فارقنى الناتلى متوجهًا إلى كركانج ، واشتغلت أنا بتحصيل الكتب من النصوص والشروح ، من الطبيعى والآلهى، وصارت أبواب العلم تنفتح علىّ .

ثم رغبت فى علم الطب وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه . وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة ، فلا جرم أنى برزت فيه فى أقل مدة حتى بدأ فضلاء الطب يقرءون علىّ علم الطب ، وتعهدت المرضى فانفتح علىّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف . وأنا مع ذلك أختلف إلى الفقه وأناظر فيه وأنا فى هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة . ثم توفرت على العلم والقراءة سنة ونصفا ، فأعدت قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة . وفى هذه المدة نمت ليلة واحدة بطولها ، ولا اشتغلت النهار بغيره وجمعت بين يدى ظهورًا فكل حجة كنت أنظر فيها أثبت مقدمات قياسية ورتبتها فى تلك الظهور ، ثم نظرت فيما عساها تنتج ، وراعيت شروط مقدماته حتى تحقق لى حقيقة الحق فى تلك المسألة . وكلما كنت أتحير فى مسألة ولم أكن أظفر بالحد الأوسط فى قياس ترددت إلى الجامع ، وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل ، حتى فتح لى المنغلق ، وتيسر المتعسر .

وكنت أرجع بالليل إلى دارى وأضع السراج بين يدى ، واشتغل بالقراءة والكتابة . فمهما غلبنى النوم أو شعرت بضعف ، عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما تعود إلىّ قوتى ، ثم أرجع إلى القراءة . ومهما أخذنى أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها ، حتى إن كثيرًا من المسائل اتضح لى وجوهها فى المنام . وكذلك حتى استحكم معى جميع العلوم، ووقفت عليها بحسب الإمكان الإنسانى . وكل ما علمته فى ذلك الوقت فهو كما علمته الآن لم أزدد فيه إلى اليوم ، حتى أحكمت على المنطق والطبيعى والرياضى . ثم عدلت إلى الآلهى ، وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة . فما كدت أفهم ما فيه ، والتبس على

غرض واضعه ، حتى أعـدت قراءته أربعين مرة وصار لى محفوظًا . وأنـا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به ، وأيست من نفسى وقلت : هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه . وإذا أنا فى يوم من الأيـام حضرت وقت العصر فى الـوراقين وبيد دلال مجلـد ينادى عليـه . فعرضـه علىّ فرددتـه رد متبرم معتقد أن لا فائدة مـن هذا العلم . فقال لى اشتر منـى هذا فإنـه رخيص أبيعكه بثلاثة دراهـم وصاحبه محتاج إلى ثمنـه ، واشتريته فإذا هو كتاب لأبى نصر الفارابى فى أغراض كتـاب ما بعـد الطبيعة : ورجعت إلى بيتـى وأسرعت قـراءته ، فـانفتح على فى الوقت أغراض ذلك الكتاب بسبب أنه كان لى محفـوظًا على ظهر القلب . وفرحت بذلك وتصدقت فى ثانـى يومه بشىء كثير على الفقراء شكرًا لله تعـالى . وكان سلطان بخارى فى ذلك الوقت نوح بـن منصور ، واتفق له مرض التّج الأطباء فيه وكـان اسمى اشتهر بينهم بالتوفـر على القراءة ، فأجروا ذكرى بين يـديه وسألوه إحضـارى ، فحضرت وشاركتهم فى مداواته وتـوسعت بخدمته فسألته يـومًا الإذن لى فى دخول دار كتبهم ومطالعتهـا وقراءة ما فيها من كتب الطـب ، فأذن لى فدخلت دارًا ذات بيوت كثيرة فى كل بيـت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض . فى بيت منها كتب العربية والشعر، وفى آخر الفقه وكذلك فى كل بيت كتب علم مفرد .

فطالعت فهرست كتب الأوائل وطلبت ما احتجت إليه منها . ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط ، وما كنت رأيته من قبل ولا رأيته أيضًا من بعد . فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها ، وعرفت مـرتبة كل رجل فى علمه . فلما بلغت ثمانى عشرة سنة من عمرى ، فرغت من هذه العلـوم كلها . وكنت إذ ذاك للعلم أحفظ ، ولكنه اليوم معى أنضج ، وإلا فالعلم واحد لم يتجدد لى بعده شىء وكان فى جوارى رجل يقال له أبو الحسين العروضى فسألنى أن أصنف له كتابًـا جامعًا فى هذا العلم ، فصنفت له المجموع وسميته به . وأتيت فيه على سائر العلوم سوى الرياضى . ولى إذ ذاك إحدى وعشرون سنة من عمرى . وكان فى جوارى أيضًا رجل يقال لـه أبو بكر البرقى ، خوارزمى المولد ، فقيه النفس ، متوحد فى الفقه والتفسير والزهد ، مائل إلى هذه العلوم، فسألنى شرح الكتب له فصنفـت له كتـاب الحاصـل والمحصول فى قـريـب من عشريـن مجلـدًا ، وصنفت لـه فى الأخلاق كتـابًا سميته كتاب البر والإثـم . وهذان الكتابـان لا يوجدان إلا عنده فلـم يعر أحـدًا بنسخ منهما ثـم مـات والـدى وتصرفت بـى الأحـوال ، وتقلـدت شيئًا مـن أعمال السلطـان ، ودعتنى الضرورة إلى الإخـلال ببخـارى والانتقال إلى كـركـانـج . وكان أبـو الحسين السهلى المحب لهذه العلـوم بها وزيرًا ، وقدمـت إلى الأمير بها وهو على بن مـأمون

وكنت على زى الفقهاء إذ ذاك بطيلسان وتحت الحنك ، وأثبتوا لى مشاهرة دارة بكفاية مثلى ، ثم دعت الضرورة إلى الانتقال إلى نسا ، ومنها إلى باورد ، ومنها إلى طوس ، ومنها إلى شقان ، ومنها إلى سمنيقان ، ومنها إلى جاجرم رأس حد خراسان ، ومنها إلى جرجان ، وكان قصدى الأمير قابوس ، فاتفق فى أثناء هذا أخذ قابوس وحبسه فى بعض القلاع وموته هناك ، ثم مضيت إلى دهستان ومرضت بها مرضًا صعبًا وعدت إلى جرجان ، فاتصل أبو عبيد الجوزجانى بى وأنشأت فى حالى قصيدة فيها بيت القائل :

لما عظمت فليس مصر واسعى لما غلا ثمنى عدمت المشترى

قال أبو عبيد الجوزجانى ، صاحب الشيخ الرئيس ، فهذا ما حكى لى الشيخ من لفظه .

* * *

إلى هنا ينتهى النص الذى ورد فى عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ويكمل أبو عبيد الجوزجانى قائلاً :

هذا ما حكى لى الشيخ من لفظه !

الاعتبـــــار

للأمير أسامة بن منقذ

وهو مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكنانى الشيزرى

« إن ركـوب أخطار الحروب لا ينقـص أجـل المكتوب ، فـإننـى رأيـت معتبرًا يوضـح للشجـاع العـاقل ، والجبـان الجاهـل أن العمـر مـوقـت ، مقدر ، لا يتقـدم أجلـه ولا يتأخر. . » .

ما خطه الأمير العربى أسامة بن منقذ فى كتابه « الاعتبار » الذى بدأ تدوينه بعد أن بلغ التسعين من العمر ، عمر طويل شهد فيه أحداثا جسيمة وحاسمة ، الحروب الصليبية ، زوال الدولة الفاطمية فى مصر ، عرف صلاح الديـن الأيوبى والعادل نور الدين ، وعاش فى البلاط الفاطمى وكـان طرفًا رئيسيًا فى الصراعات التى جـرت فى عهد الخليفة الحافظ ، والخليفة الفائز ، خاض معارك لا حصر لها ، كان فارسًـا شجاعًا ، وشاعرًا أديبًا ، وقطع سنوات طـوالا من عمره جوابًـا ، ولد فى ٢٠ جمادى الآخر ٤٨٨ هـ (٤ يـوليو ١٠٩٥) . أطلق عليه والده اسم أول قائد عربى عهد إليه فتح الشام ، نشأ فى قلعة شيزر على ضفاف نهر العاصمة . قضى معظم شبابه ما بين بـلاط نور الدين فى دمشق ، والبلاط الفاطمى فى القاهـرة ، كهولته قـد أمضاها فى الموصـل ، فى حصن كيفا المطـل على نهر دجلة ، زار بيت المقـدس فى فلسطين وحج إلى الحرمين ، وتنقل بين معظـم البلاد الإسلاميـة وخلال سنوات عمره الأخيرة ، وفى حصـن كيفا ، كان يشرف على السنوات الطويلـة التى قطعها فى هذه الحياة الـدنيا ، يتأمل ، ويسجل ، ويستخلص العبرات ، وفى حـدود ما أعلم ، فإن هذا الكتاب فريد من نوعه فى التراث العربى ، إذ يمكن اعتباره سيرة ذاتية متكاملة فى الأدب العـربى ، الكـاتـب والمكتوب عنـه شخص واحـد ، فهـو سيرة ذاتية تتطـرق إلى تفاصيل إنسانية لم تتطرق إليها السير الأخرى كعلاقة مؤلف بوالده ، وإحساسه بالطبيعة ،

والزمـن ، مما يجعـل الكتاب أثرًا فـريدًا فى الأدب العربـى ، حيث لا يتكلـف السجع أو يستعرض فخـامة الألفـاظ ، إنما يترك أسلوبـه ليسترسل على سجيتـه ، هناك سيرة ذاتيـة أخرى تسبق الاعتبار بسنوات قليلة لأحد الدعاة الفاطميين ، وهو المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى المتوفى ٤٧٠ هــ غير أن الطابـع العقائدى يغلـب عليها ، كما أنها لا تتطـرق إلى التفاصيل .

مخطوطـة كتاب الاعتبـار وحيدة لا أخت لها ، محفـوظة فى مكتبـة الاسكوريـال ، وقد نشرت لأول مرة فى ليـون عام ١٨٨٤ . وفى عـام ١٩٣٠ نشر الأستاذ فيليـب حتى السفـر العربى محققه فى الولايات المتحدة . وقـد أعيد نشره فى بيروت منذ عدة سنوات ، وفى هذا الإعداد الذى أقدمه أحـاول أن أجعل النص متاحًا للقارئ ، لا أتدخل قـط بالتعديل فى الأجزاء التى أقتطعها منه ، وقد حرصـت على توضيح خلفيات بعض الحوادث التاريخية ، وإعادة ترتيب بعض الأجـزاء حتى يكون متاحًا ، واضحًا للقارئ الذى تبـدو أمامه كتب التراث كالألغاز والأحاجى . وتنأى عن المتناول بسبب ظروف عديدة فى حياتنا الثقافية :

أسـامة فـى مصـر

(. . الدولة الفاطمية فى مصر تمزقها الانقسامات ، والاضطرابات ، تزايد الصراع بين أطراف الدولة المختلفة ، فى هذه الأوقات العصيبـة وصل إلى مصر من الشام الأمير أسامة ابن منقذ . .) .

« . . فكان وصولى إلى مصر يـوم الخميس الثانى من جمادى الآخرة سنـة تسع وثلاثين وخمسمائة (٥٣٩ ـ ١١٤٤ م) . فأقـرنى الحافظ لدين الله ساعـة وصولى ، فخلع على بين يديه . ودفع لى تخت ثيـاب ومائة دينار . وخوّلنى دخول الحمام ، وأنـزلنى فى دار من دور الأمير الأفضل بن أمير الجيوش فى غـاية الحسن ، وفيها بسطها وفرشهـا ومرتبة كبيرة وآلتها من النحاس . كل ذلك لا يستعاد منه شىء ، وأقمت بها مدة . إقامة فى إكرام واحترام ، وإنعام متواصل ، وإقطاع زاج .

(فى ذلك الوقت كان يتولى الوزارة رضوان بن الـولخشى ، كان شاعرًا وجنديًا مقدامًا ، ثم عزل من الوزارة ففر إلى الشام وطلب إلى زنكى أتابك الموصل مساعدته ، كان يريد غزو مصر . غير أن الأمير أسامة بن منقذ أثناه عن ذلـك ، واسترضاه بثلاثين ألف دينار دفعها لـه من أمـوال الخليفة الفـاطمـى ، عاد الـوزير رضـوان إلى القـاهرة بعـد أن أمنه الخليفـة الفاطمـى الحافظ غير أنـه لم يف بعهـده . فقد حبسـه عشر سنوات تمكـن فى آخرهـا من

الفـرار. وجمع أنصـارًا كثيريـن ، واستقر فى الجامـع الأقمـر أمـام القصر ، غير أن جنـود الخليفة السـودانية هـزموا أنصـاره ، وأسروه ، فقطعوا رأسـه ، وقطعوا جسمـه ، والتهموه اعتقادًا منهم أنهم بذلك يماثلونه فى بأسه وشجاعته . . وبعد يومين من مقتل رضوان توفى الخليفة الحافظ . .) .

« . . وجلس بعـده الظافـر بأمر الله . وهـو أصغر أولاده ، واستوزر نجـم الديـن بن مصال ، وكان شيخًا كبيرًا ، والأمير سيف الديـن « أبو » الحسن ، على بن السلار ، رحمه الله إذ ذاك فى ولايته . فحشـد وجمع وسار إلى القاهرة ونفـذ إلى داره فجمع الظافر بـأمر الله الأمراء فى مجلس الـوزارة ونفذ إلى داره ، فجمع الظافـر بأمر الله الأمراء فى مجلـس الوزارة ، ونفذ النبأ زمام القصور يقول « يا أمراء هذا نجـم الدين وزيرى ونائبى ، فمن كان يطيعنى فليطعه ويمتثل بأمره . » .

قال الأمراء : « نحن مماليك مولانا سامعون مطيعون » .

فقـال أمير من الأمـراء ، شيخ يقـال له « لكـروان » : « يا أمـراء نترك على بن السـلار يقتل؟» قـالوا : « لا والله » قـال « قوموا » فنفـروا كلهم وخـرجوا مـن القصر . شدوا على خيلهم وبغالهم وخرجوا إلى معونة سيف الـدين بن السلار ، فلما رأى الظافر ذلك وغلب عن دفعه أعطى نجم الدين بـن مصال مالاً كثيرًا وقال « اخرج إلى الحوف ، اجمع واحشد وانفق فيهـم . وادفع ابـن السلار . . » ودخل ابـن السلار القـاهرة ، ودخـل دار الوزارة واتفق الجند على طاعتـه ، وأحسن إليهـم ، وأمرنى أن أبيت أنـا وأصحابى فى داره وأفرد لى موضعًا فى الدار أكون فيه .

(دارت الحرب بين ابن السـلار ، والوزير المخلـوع إبن مصـال وكان الأمير أسامـة بن منقذ فى جانب ابن السلار ، وعند مدينة الواسطى بالوجه القبلى دارت معركة حاسمة هزم فيها ابـن مصال . واستقـر ابن السلار عنـوة فى منصب الـوزارة غير أن الخليفة الظـاهر لم يكف عن الكيد له . .) .

« . . فعمل على قتلـه ، وقرر مـع جماعة مـن صبيان الخاص وغيرهـم ممن استمالهم ، واتفق فيهم أن يهجموا داره ويقتلـوه وكان شهر رمضان والقوم قد اجتمعـوا فى دار بالقرب من دار الملك العـادل ينتظرون توسط الليـل وافتراق أصحاب العادل (ابن السـلار) وأنا تلك الليلة عنده .

فقد فرغ النـاس من العشاء وافترقوا ، وقد بلغـه الخبر من بعض المعاملين (المتـآمرين)

عليه ، أحضر رجلين مـن غلمانه وأمرهما أن يهجما عليهم للـدار التى هم فيهـا مجتمعون . وكانت الدار لما أراده الله من سلامة بعضهم ، لها بـابان ، الواحد قريب من دار العادل ، والآخر بعيد ، فهجمت الفرقة الواحدة من الباب القريب قبل وصول أصحابهم إلى الباب الآخر ، فـانهزموا وخرجوا مـن ذلك الباب ، وجـاءنى منهم فى الليل مـن صبيان الخاص نحو عشرة رجـال ، كانوا أصـدقاء غلمانى فخبـوهم . وأصبـح البلد فيه الطلـب لأولئك المنهزمين ، ومن ظفر بهم منه قتل .

وأعجب ما رأيـت فى ذلك اليوم أن رجلاً مـن السودان الذين كـانوا فى العملة انهزم إلى غلو دارى ، والرجال بالسيوف خلفه ، فـأشرف على القاعة من ارتفاع عظيم ، وفى الدار شجرة نبق كبيرة ، فقفـز من السطح إلى تلك الشجرة فثبـت عليها ثم نزل ودخـل من كم مجلس قريب منه فوطئ على منـارة نحاس فكسرها ، ودخل إلى خلف رجل فى المجلس . وأشرف أولئك الذيـن كانوا خلفه . فصحـت عليهم وأطلقت عليهم الغلمان . دفعـوهم ودخلت إلى ذلك الأسود . فنزع كساء عليه وقال « خذه إليك » قلت « أكثر الله خيرك ، ما أحتاجه » .

وخرجته ، وسيرت معه قومًا من غلمانى فنجا . .

(استدعى الأمير أسامة بن منقذ لمقابلة الوزير ابن السلار ، الذى طلب منه أن يتجهز للمسير إلى الملك العادل نور الدين ، يطلب مساعدتـه لغزو مدينة طبرية التى كان يحتلها الصليبيون ، فيمنع بذلك غزو الصليبين لمصر ، وفى هـذه الأثناء يسير الوزير ابن السلار لغزو غزة وعسقلان .

(يخرج الأمير أسامـة من مصر مـوفدًا فى مهمة مـن قبل الوزيـر ابن السـلار إلى الشام لمقابلة الملك العادل نور الدين ، يطلب منه العون ضد الصليبيين) .

يقول أسامة بن منقذ

« . . وسرت وقد أزاح علـة سفرى بكل مـا أحتاجه مـن كثير وقليل ، فلما مـن الجفر «واحة بين مصر وفلسطين » قال لى الأولاد :

« هذا مكان لا يكاد يخلو من الأفرنج » .

فأمرت اثنين من الأولاد ركبـا مهرتين وسارا قدامنا إلى الجفر ، فما لبثـا أن عادا والمهارى تطير بهما ، قالا :

« الفرنج على الجفر ! » .

فوقعت وجمعت الجمال التى عليها ثقلى ورفاقًا من السفارة كانوا معى ورددتهم إلى الغرب ، وندبت ستة فوارس من مماليكى وقلت :

« تقدمونا وأنا فى أثركم »

فلما وصلت الجفر ، وفيه مياه وعشب وشجر ، فقام من ذلك العشب رجل عليه ثوب أسود فأخذناه ، وتفرق أصحابى فأخذوا رجلاً آخر وامرأتين وصبيانا ، فجاءت امرأة منهما ، مسكت ثوبى وقالت : « يا شيخ أنا فى حسبك » . قلت « أنت آمنة مالك ؟ » .

قالت : « لقد أخذ أصحابك لى ثوبًا وناهقًا ونابحًا وخرزة » .

قلت لغلمانى : « من كان أخذ شيئًا يرده » .

* * *

« ومن طريف ما جرى لى فى الطريق أننى نزلت ليلة أصلى المغرب والعشاء قصرًا وجمعا ، وسارت الجمال ، فوقفت على رفعة من الأرض ، وقلت للغلمان : « تفرقوا فى طلب الجمال ، وعودوا إلى . فأنا ما أزول من مكانى » .

فتفرقوا . وركضوا . كذا وكذا فما رأوهم ، فعادوا إلى وقالوا :

« ما لقيناهم ، ولا ندرى كيف مضوا » .

« نستعين بالله تعالى ونسير على النوء » .

فسرنا ونحن قد أشرفنا من انفرادنا عن الجمال فى البرية على أمر صعب وفى الأدلاء رجل يقال له « جزّية » فيه يقظة وفطنة ، فلما استبطأنا علم أنا قد تهنا عنهم ، فأخرج قداحه وجعل يقدح وهو على الجمال . . والشرار من الزند يتفرق كذا وكذا ، فرأيناه على البعد ، فقصدنا النار حتى لحقناهم . ولولا لطف الله وما ألهمه ذلك الرجل كنا هلكنا .

* * *

ومما جرى فى تلك الطريق أن الملك العادل (الوزير ابن السلار) قال لى : لا تعلم الزملاء الذين معك بالمال . فجعلت أربعة آلاف دينار فى خرج على بغل سروجى مجنوب ، معى وسلمته إلى غلام وجعلت ألفى دينار فى خرج على حصان مجنوب معى وسلمته إلى غلام ، فكنت إذا نزلت جعلت الأخراج فى وسط بساط ، ورددت طرفية عليها ، وبسطت

فوقه بساطًا آخر ، وأنام على الأخراج وأقوم وقت الرحيل قبل أصحابى ، يجئ الغلامان اللذان معهما الخرجان فيتسلمانها ، فاذا شداهما على الجنائب ركبت وأيقظت أصحابى ، فهممنا بالرحيل ، فنزلنا ليلة فى تيه بنى إسرائيل فلما قمت للرحيل جاء الغلام الذى معه البغل المجنوب أخذ الخرج وطرحه على وركى البغل ودار يريد شده ، فنزل البغل وخرج يركض وعليه الخرج ، فركبت حصانى ، وقد قدمه الركابى ، وقلت لواحد من غلمانى : « اركب . . اركب » . وركضت خلف البغل فما طقته ، وهو كأنه حمار وحش ، وحصانى قد أعيى من الطريق ، ولحقنى الغلام ، فقلت « اتبع البغل» فمضى وقال : «والله يا مولاى ما رأيت البغل ، ولقيت هذا الخرج قد شلته » ، فقلت : « للخرج كنت أطلب والبغل أهون مفقود » ، ورجعت إلى المنزلة وإذا بالبغل قد جاء يركض دخل فى طوالة الخيل ووقف ، فكأنه ما كان قصده ألا تضييع أربعة آلاف دينار .

* * *

« ويمضى أسامة إلى الشام ، يلتقى بأسد الدين شركوه ، وبالعادل نور الدين ، يرفض نور الدين محاربة الصليبيين فى هذه الفترة ، لأن أهل دمشق لم يكونوا معه ، وبرغم ذلك سمح للأمير أسامة أن يجند تحت لوائه عددًا كبيرًا من المتطوعين وسمح لعدد من جنود حرسه الخاص الانضمام إليه لينسب إلى نفسه ما قد يحوزه أسامة من نصر ، ويحاصر أسامة الفرنج فى عسقلان مدة أربعة شهور ، غير أن قواته اندحرت لعدم ثباتها أمام الفرنج من جهة ، ولإهمال قائده تنفيذ أوامره ، سار أسامة بعد ذلك إلى الجنوب غير أن ابن السلار أمره بالعودة إلى القاهرة ، وفى القاهرة كانت تنتظره أحداث جسام » .

« لقد كان بصحبة أسامة شاب اسمه عباس ، وهو فى نفس الوقت ابن زوجة الوزير ابن السلار . وكان عباس متألمًا بسبب سفره إلى الشام لمحاربة الصليبيين ومغادرة مصر الجميلة ذات المناخ الجميل ، كذلك كان يضيق بعبء الحياة العسكرية . وفى بلبيس أفضى عباس بمتاعبه إلى أسامة . ويقال إن أسامة أراد حينئذ أنه فى إمكانه أن يتجنب هذا كله بقتل الوزير ابن السلار ، زوج أمه ، وعندئذ أرسل عباس ابنه المسمى «نصر» إلى القاهرة ، وقام باغتيال الوزير ابن السلار ، وعاد عباس إلى القاهرة وتقلد الوزارة بدلاً من ابن السلار .

« يقول ستانلى لين بول : إن مقتل ابن السلار بيد حفيد زوجته نصر ، وما تبعه من قتل الخليفة بنفس هذه اليد الآثمة يعتبر من أخفى حوادث التاريخ فى مصر » .

غير أن الخليفة لم يكتف بقتل ابن السلار ، بل راح يحرض « نصر » على قتل أبيه

عباس ، كان نصر والخليفة فى نفس السن تقريبًا ، وكانا صديقين ، غير أن تدبير الخليفة انقلب عليه .

يقول الأمير أسامة بن منقذ :

« كانا يخرجان فى الليل متنكرين وهما أتراب ، وسنهما واحدة فدعاه إلى داره ، وكانت فى سوق السوفيين ، ورتب من أصحابه نفرًا فى جانب الدار ، فلما استغربه المجلس خرجوا عليه فقتلوه ، وذلك ليلة الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وأربعمائة (١٥ ابريل ١١٥٤) ورماه فى جب فى داره ، وكان معه خادم له أسود لا يفارقه يقال له سعيد الدولة فقتلوه ، وأصبح عباس ، جاء إلى القصر كالعادة للسلام يوم الخميس ، فجلس فى خزانة فى مجلس الوزارة كأنه ينتظر جلوس الخليفة الظافر للسلام ، فلما جاوز وقت جلوسه استدعى زمام القصر وقال :

« مالمولانا ما جلس للسلام » ؟

فتبلد الزمام فى الجواب ، فصاح عليه وقال :

« مالك لا تجاوبنى » ؟

قال :

« يا مولاى ، مولانا ما ندرى أين هو » ؟

قال :

« مثل مولانا يضيع ؟ ارجع فاكشف الحال » .

فمضى ورجع وقال :

« ما وجدنا مولانا » .

فقال عباس :

« ما بقى الناس دون خليفة ، أدخل إلى الوالى أخوته ، يخرج منهم واحد نبايعه » .

فمضى وعاد وقال :

« الوالى يقولون لك ، نحن مالنا فى الأمر شىء ، والده عزله عنا وجعله فى الظافر والأمر لولده ، بعده » .

قال :

« أخرجوه حتى نبايعه » .

وعباس قد قتل الظافر ، وعزم على أن يقول « أخوته قتلوه » ويقتلهم ، فخرج ولد

الظـافر ، وهـو صبى محمـول على كتف أستـاذ مـن أستاذى القصر ، فـوجده عبـاس ، فحمله ، وبكى النـاس ، ثم دخل به إلى مجلـس أبيه وفيه أولاد الحافظ ، الأمير يـوسف ، والأمير جبريل ، وابن أخيهم أبو البقى .

« أثار قتل الخليفة وأهله أهالى القاهرة ، فنشبت المعارك فى طرقات المدينة وأخذ النسوة والأطفال يـرجمون اتباع الـوزير بـالحجارة من نـوافذ دورهـم ، ولم يلبث هـؤلاء الأعوان أن اعتزلوه ولم يكن لعباس طاقة بمقاومة سلطـة الأهالى وثورتهم ففر هو وابنه إلى الشام ، كان الأمير أسامة قريبا من عباس فتأهب لمغادرة مصر » .

يقول الأمير أسامة بن منقذ :

« فلما خرجنـا من بـاب النصر وصلوا إلى الأبواب أغلقـوها وعـادوا إلى دورنا نهبـوها ، وأخذوا مـن قاعـة دارى أربعين غرارة مخاطة فيهـا من الفضة والـذهـب والكسـوات شىء كثير، وأخذوا من اصطبلى ستة وثلاثين حصانًا وبغلة مسروجية بمروجها بسروجها وعدتها كـاملات ، خمسة وعشرين جملاً ، وأخذوا من إقطاعى مائتى رأس بقر ، ولما سرنا عن باب النصر اتجهت قبائل العرب الـذين استحلفهم عباس وقاتلونا من يـوم الجمعة وضحى نار إلى يوم الخميس العشريـن من ربيع الأول ، فكانوا يقـاتلوننا النهار كله . فـإذا جنَّ الليل وأغفلـونا إلى أن ننـام ، ثم يـركبون فى مـائة فـارس ، ويدفعـون فيلهم فى بعـض جوانبنـا ويرفعون أصواتهم بالصياح ، فما نفر من خيلنا وخرج إليهم أخذوه . .

وانقطعت يومًا عن أصحابى وتحتى حصان أبيض ، هو أردى خيلى ، شده الركابى ولا يـدرى ما جـرى ، وما معـى من السـلاح غير سيفى ، فحمـل علىّ العرب فلـم أجد مـا أدفعهم بـه ، ولا ينجينى منهـم حصانى ، وقـد وصلتنى رماحهـم ، قلت : « أثـب عن حصانى وأجذب سيفى ، أدفعهم » . فجمعت نفسـى لأثب ، فتفتح الحصان ، فوقعت على حجارة وأرض خشنة ، فانقطعت جلدة من جلدة رأسى ودخت حتى ما بقيت أدرى بما أنا فيه . فوقف علىّ منهم قوم ، وأنا جالس مكشوف الرأس ، غائب الذهن ، وسيفى مرمـى بجهازه ، فضربنى واحـد منهم ضربتين بالسيـف وقال : « هات الـوزن » ، وأنا لا أدرى ما يقـول ، ثم أخذوا حصـانى وسيفى ، ورآنـى الأتراك فعادوا إلىّ ، ونفـذ لى ناصر الدين بن عباس حصانا وسيفًا وسرت وأنا لا أقدر على عصابة أشد بها جراحى ، فسبحان من لا يزول ملكه .

وسرنا وما مع أحـد منا كف زاد ، وإذا أردت أشرب ماء ترجلت شربـت بيدى ، وقبل أن أخرج بليلة جلست فى بعض دهاليز دارى على كرسى وعرضوا علىّ ستة عشر جمـلاً» .

. . ويستمر الأمير أسـامة فى طـريقه إلى دمشق ، يلقـى مصاعـب جمة ، وفى دمشق يتصل مرة أخرى بخدمة الملك العادل نور الديـن ، غير أن أسرته كانت ما تزال بالقاهرة ، وأرسل الملـك العادل إلى الوزيـر الفاطمى الصـالح طـلائع بن رزيك يطلـب منه السماح بسفر أسرة الأمير أسـامة ، فرد الصـالح قائلاً إنه يخاف عليهـم من الفرنـج ، وفكر الأمير أسامة فى العودة إلى مصر .

يقول الأمير أسامة بن منقذ :

« ففاوضت الملك العادل ، واستطلعت أمره فقال :

يا فلان ، ما صدقت متى تخلص مصر وفتنتها ، تعود إليها ، العمر أقصر من ذلك ، أنا أنفذ أخذ لأهلك الأمان من ملك الفرنج وأسير من يحضرهم » .

فأعاد ، رحمه الله ، أخذ أمان الملك وصليبـه فى البر والبحر ، وسيرت الأمان مع غلام لى وكتاب الملك العادل وكتابى إلى الملك الصـالح ، فسيرهم إلى دمياط ، وحمل لهم كل ما يحتاجـونه من النفقـات والزاد ، ووصى بهم ، وأقلعـوا من دمياط فى مـركب من مـراكب الإفرنج ، فلما دنوا من عكا والملك نفـذ رحمه الله ، فيها نفذ قومًا فى مركب صغيرة ، كسروا المركب بالفـؤوس ، وأصحابى يرونهم ، وركـب ، ووقف على الساحل نهب كـل ما فيه ، فخرج إليه غـلام لى سباحة ، والأمان معه ، وقال لـه : « يا مولاى الملك ما هـذا أمانك؟ «قال » : بلى . . ولكن هذا رسم المسلمين : إذا انكسر لهم مركب على بلد نهب أهل ذلك البلد ، « قال » : فتسبينا ؟ « قال » : لا « وأنزلهم لعنـة الله فى دار وفتش النساء حتى أخذ كل ما معهن ، وقد كان فى المركب حلى أودعـه النساء وكسوات وجوهر ، وسيوف وسلاح وذهب وفضة بنحو من ثلاثين ألف دينار ، فأخذ الجميع وترك لهم خمسمائة دينار ، وقال: « توصلوا بهذه إلى بلادكم » .

« لا يكتب الأمير أسـامة ما يشير إلى تحسره على سرقة مـاله ، ومتاعه ، غير أن حـديثه عن كتبه يختلف » .

يقول الأمير أسامة :

« . . وكنت إذ ذاك مع الملك العادل فى بلاد الملك مسعـود (قونية) فهوّن علىّ سلامة أولادى ، وأولاد أخى ، وحرمنا ذهاب ما ذهـب من المال ، إلا ما ذهب لى من الكتب . فإنها كـانت أربعة آلاف مجلد مـن الكتب الفاخرة فـإن ذهابها حزازة فى قلبى مـا عشت . فهذه نكبـات تزعـزع الجبال وتفنـى الأموال . والله سبحـانه يعـرض برحمتـه ويختم بلطفـه

ومغفرتـه . وتلك وقعات كبـار شاهدتها مضـافة إلى نكبـات نكبتها سلمت فيهـا النفس لتوقيت الآجال . وأجحفت بهلاك المال .

. . يتوقف الأمير أسامة بن منقذ عن سرد الحوادث التـاريخية التى عاشها ، ثم ينتقل إلى نوع من التذكـر ، استرجاع التفاصيل الدقيقة التى لم تغب عـن ذهنه وقد بلغ التسعين من العمر . .

« . . ترى فى أى موضع من حصنى كيف المطل على نهر دجلة كان يجلس الأمير أسامة ابن منقذ ، يحملق فى مياه النهر ، أمواجه المتـابعة كسنوات عمره التسعين ، لابد أنه كان يستدعى أيامه البعيدة ، ما مر به من أحـداث ، ومن مخاطر يستعيد ملامح من عرفهم فى البلاط الفاطمى ، فى دمشق ، ملامح صلاح الدين الأيوبى ، كان يطل على ذلك الماضى الطويـل العريـض ، ثم يغمـس ريشته فى المداد ، وفى هـدوء الليل ، أو صمـت النهار يستعيد ، ويدون . . يدون . . » .

يقول الأمير أسامة بن منقذ وهو يحدثنا عن أول مرة خاض فيها القتال :

. . ومثل ذلك ما جرى لى على أفامية (بلدة فى الشـام) ، فإن نجم الدين بن الياورزى ابن أرتق ، رحمه الله ، كسر الإفرنج على البلاط ، وذلـك يوم الجمعة خامس جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، وأفناهم وقتل صاحب الكاكيت روجار وجميع فرسانه ، فسار إليه عمر عز الدين أبو العسـاكر سلطان ، رحمه الله ، وتخلف والدى ، رحمه الله فى حصن شيزر ، وقد وصاه أن يسيرنى إلى افاميه بمن معى بشيزر من الناس ويستنفر الناس والعرب لنهب زرع افـامية ، وكـان قد هـدف من العـرب إلينا خلـق كثير ، فلما سار عمـى نادى المنادى بعد « يوميات » من مسيره ، وسرت فى نفر قليـل ما يلحق عشرين فارسًا ، ونحن على يقين أن أفامية مـا فيها خيالة ، ومعى غـلام عظيم من النهابة والبـادية فلما صرنا على وادى « أبو » الميمـون ، والنهابة والعـرب متفرقون فى الزرع ، خـرج علينا من الإفـرنج جمع كثير، وكان قـد وصلها تلك الليلة ستـون فارسًا وستـون راجلاً ، فكشفونا عـن الوادى ، فاندفعنا بين أيديهم إلى أن وصلنا الناس الذين فى الزرع ينتبهونه ، فضجوا ضجة عظيمة ، فهان على الموت لهلاك ذلك العـالم معى ، فرجعت على فارس فى أولهم قد ألقـى عنه درعه وتخفف ليجـوزنا من بين أيدينـا ، فطعنته فى صدره فطـار عن سرجه ميتا ، ثـم استقبلت خيلهم المتتابعة فولوا وأنا غر من القتال ما حضرت قتالاً قبل ذلك اليوم ، وتحتى فرس مثل الطير ، ألحق أعقابهم لأطعن فيهم ثم أجتن عنهم ، وفى آخرهم فارس على حصان أدهم مثل الجمل بالدرع ولأمة الحرب ، أنا خائف منه لا يكون جاذبًا لى ليعود على ، حتى رأيته

خرب حصانه بمهمازه فلوّح بذنبه فعلمت أنه قد أعيا . فحملت عليه طعنته فنفذ الرمح من قدامه نحوا من ذراع ، وخرجت من السرج لخفة جسمي وقوة الطعنة وسرعة الفرس ، ثم تراجعت وجذبت رمحي وأنا أظن أنى قتلته ، فجمعت أصحابى وهم سالمون ، وكان معى مملوك صغير يجر فرسًا لى وهماء مجنوبة وتحته بغلة مليحة سروجية وعليها مركوب ثقيل فضة ، فنزل عن البغلة وسيبها وركب الحجرة فطارت به إلى شيزر ، فلما عدت إلى أصحابى وقد مسكوا البغلة سألت عن الغلام « راح » فعلمت أنه يصل شيزر ويشغل قلب الوالد ـ رحمه الله ـ فدعوت رجلاً من الجند وقلت : « تسرع إلى شيزر تعرف والدى بما جرى » .

وكان الغلام لما وصل أحضره الوالد بين يديه وقال :

« أى شىء لقيتم ؟ قال : يامولاى . . خرج علينا الإفرنج فى ألف : وما أظن أحدًا يسلم إلا مولاى . . « قال : » « كيف يسلم مولاك دون الناس ؟ » قال : « رأيته قد لبس وركب الخضراء . . » .

هو يحدثه وذلك الفارس قد وصله وأخبره باليقين ووصلت بعده فاستخبرنى رحمه الله ، فقلت :

« يا مولاى ، كان أول قتال حضرته ، فلما رأيت الإفرنج قد وصلوا إلى الناس هان علىّ الموت ، فرجعت إلى الإفرنج لأقتل أو أحمى ذلك العالم . . » .

* * *

« ثم ينصح الأمير أسامة من وصل إلى الطعن أن يشد ذراعه ويده على الرمح ، ويدع الفرس يعمل ما عمله فى الطعنة ، فإنه متى حرك يده بالرمح ومدها به لم يكن لطعنته تأثير. . ويتذكر مواقف مرت به أثناء القتال » .

يقول الأمير أسامة :

. . شاهدت رجلاً من رجالنا يقال له ندى بن تليل القسيرى ، وكان من شجعاننا ، وقد التقينا نحن والأفرنج وهو تعرى ، ما عليه غير ثوبين فطعنه فارس من الإفرنج فى صدره فقطع هذه العصفورة التى فى الصدر ، وخرج الرمح من جانبه ، فرجع وما نظنه يصل منزله حيًا ، فقدر الله سبحانه أن سلم وبرأ جرحه ، لكنه لبث سنة إذ نام على ظهره لا يقدر إن يجلس أن لم يجلسه إنسان بأكتافه ، ثم زال عنه ما كان يشكوه وعاد إلى تصرفه وركوبه كما كان .

قلت : فسبحان من نفذت مشيئته فى خلقه يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير » .

. . غير أن أسامة إذ يفرغ من تذكره لهذا الرجل الذى عاش بعد أن قطع قلبه بالسيف ، يذكر آخرًا مات بسبب إبرة .

« كان عندنا رجل من المصطنعة ، يقال له عتاب ، أجسم ما يكون من الرجال وأطولهم ، دخل بيته فاعتمد على يده عند جلوسه على ثوب بين يديه ، كانت فيه إبرة ، دخلت فى راحته فمات منها ، وبالله كان يئن فى المدينة ، فيسمع أنينه من الحصن لعظم خلقه وجهارة صوته . . يموت من إبرة وهذا القشيرى يدخل فى صدره قنطارية (رمح) تخرج من جنبه لا يصيبه شىء » ؟!

* * *

يتذكر الأمير أسامة فارسًا إفرنجيًا هزم أربعة من المسلمين :

« . . وكان بافامية فارس من كبار فرسانهم يقال له بدرهوا فكان أبدا يقول :

« ترى ما التقى جمعة فى القتال » .

وجمعة يقول :

« ترى ما التقى بدرهوا فى القتال » ؟

فنزل علينا عسكر انطاكية وضرب خيامه فى الموضع الذى كان ينزله وبيننا وبينهم الماء ، ولنا موكب واقف على شرف مقابلهم ، فركب فارس من الخيام وسار حتى وقف تحت موكبنا ، والماء بينه وبينهم وصاح بهم :

« فيكم جمعة » ؟

قالوا :

« لا . . » .

وكان ذلك الفارس « بدرهوا » ، فالتفت فرأى أربعة فوارس منا من ناحيته ، فحمل عليهم فهزمهم ، ولحق واحدًا منهم طعنه طعنة فشله ما ألحقه حصانه ليمكن الطعن ، وعاد إلى الخيام .

ودخل أولئك النفر إلى البلد فافتضحوا واستخفهم الناس ولاموهم وأزروا بهم وقالوا :

أربعة فوارس يهزمهم فارس واحد ! كنتم افترقتم له فكان طعن واحدًا منكم ، وكان الثلاثة قتلوه ولاقد افتضحتم ، وكان أشد الناس عليهم جمعة النميرى ، فكأن تلك الهزيمة منحتهم قلوبًا غير قلوبهم وشجاعة ما كانوا يطمعون فيها ، فانتحوا وقاتلوا واشتهروا فى الحرب وصاروا من الفرسان المعدودين بعد تلك الهزيمة .

أما « بدرهوا » فإنه سار بعد ذلك من افامية فى بعض شغله يريد انطاكية ، فخرج عليه الأسد فى طريقه ، فخطفه عن بغلته ودخل به إلى الغاب أكله ـ لا رحمه الله .

« كثيرة تلك التفاصيل التى يتذكرها الأمير فى آخر حياته ، إن ذاكرته تعج بأصوات صليل السيوف ، وركض الخيول لا ينسى قط أنه طعن فارسًا من رجاله على سبيل الخطأ وأن طعنة واحدة من فارس مسلم أودت بحياة فارسين من الإفرنج فى وقت واحد ، لا ينسى هذه اللحظة التى جرح فيها عمه فى جفن عينه ، وكيف أن الجفن سقط وبقى معلقا بجلدة من مؤخرة العين ، والعين تلعب لا تستقر ، حتى جاء الطبيب وأدواها فعادت كحالها الأولى ، لا تعرف العين المطعونة من الأخرى ، يتذكر قتاله مع الفارس الشجاع جمعة ، وكيف أنهما هزما ثمانية فرسان من الإفرنج ، ولا يلبث أن يتذكر كيف هاجمهما شاب صغير منهم واضطرهما إلى الفرار ، طويل ذلك العمر الذى عاشه الأمير، وخلال حروبه مرت به مواقف كثيرة كان يمكن أن يقتل خلالها ، ومن هنا يحدثنا عن عجائب السلامة » !

يقول الأمير أسامة :

« . . ومن عجائب السلامة إذا جرى بها القدر وسبقت المشيئة أن الأمير فخر الدين قرا ارسلان بن سقمان بن ارتق ، رحمه الله ، عمل على مدينته أحد عدة مرار ، وأنا فى خدمته ، ولا يبلغ عنها مقصوده ، وكان آخر ما عمل عليها أن أميرًا من الأكراد كان مديونًا بأمد راسله ومعه جماعة من أصحابه وقدر الأمر أن يصله العساكر فى ليلة تواعدوا إليها ويطلعهم بالحبال ويملك فخر الدين فى ذلك المهم على خادم له إفرنجى يقال له ياروق ، والعسكر كله يمقته ويكرهه لسوء أخلاقه ، فركب فى بعض العسكر وتقدم ، وركب باقى الأمراء فتبعوه . وتوانى هو فى السير فسبقه الأمراء إلى أمد ، فأشرف عليهم ذلك الأمير الكردى وأصحابه من برج ودلوا إليهم الحبال وقالوا : «اطلعوا» ، فما طلع منهم أحد ، فنزلوا كسروا أقفال المدينة وقالوا : « أدخلوا » فما دخلوا ، كل ذلك لاعتماد فخر الدين على صبى جاهل فى هذا المهم العظيم دون الأمراء الكبار ، وعلم بذلك الأمير كمال الدين على بن نيسان والبلاية والجند ففرغوا إليهم ، فقتلوا بعضهم ورمى بعضهم نفسه وقبضوا

بعضهم ، ومد بعض الذين رموا نفوسهم وهو نازل فى الهواء يده كأنه يريد شيئًا يتمسك به ، فوقع فى يده حبل من تلك الحبال التى دلوها أول الليل وما طلعوا فيها فتعلق به فنجا دون أصحابه . إلا أن كفيه انسخلتا من الحبل ، وأنا حاضر ، وأصبح صاحب أمد يتبع الذين عملوا عليه فقتلوهم ، وسلم ذلك من دونهم ، فسبحان من إذا قدر السلامة أنقذ الإنسان من لهاة الأسد ، فذلك حق لا مثل .

كان فى حصن الجسر رجل من أصحابنا من بنى كنانة يعرف بابن الأحمر ، ركب فرسه من حصن الجسر يريد كفر طاب لشغل له فاجتازوا بكفر نبوذا ، وقافلة عابرة على الطريق ، فرأوا الأسد ومع ابن الأحمر جربة تلمع ، فصاح إليه أهل القافلة : « ياصاحب الخشب البراق ! دونك الأسد » ، فحمله الحياء من صياحهم أن حمل على الأسد فحاصت به الفرس ، فوقع ، وجاء ، فخبرك عليه ، وكان لما يريد الله من سلامته ، الأسد شعبان ، فالتقم وجهه وجبهته ، فجرح وجهه وصار يلحس الدم وهو بارك عليه لا يؤذيه ، قال : «ففتحت عينى فأبصرت لهاة الأسد ، ثم جذبت نفسى من تحته ، ورفعت فخذه عنى ، وخرجت تعلقت بشجرة بالقرب منه ، وصعدت فيها ، فرآنى وجاء خلفى ، فسبقته وطلعت فى الشجرة ، فنام الأسد تحت الشجرة وعلاتى من شىء عظيم على تلك الجراح (والذر يطلب جريح الأسد كما يطلب الفأر جريح النمر) قال : فرأيت الأسد قد قعد وأنصب أذنيه كأنه يتسمع ، ثم قام يهرول ، فإذا قافلة قد أقبلت على الطريق ، كأنه سمع حسها » فعرفوه وحملوه إلى بيته ، وكان أثر أنياب السبع فى جبهته وخديه كوسم النار ، فسبحان المسلم .

« . . لا ينسى الأمير أسامة أن يبدى رأيه فى العدو ، لقد خبر الفرنج سنوات طويلة ، وقاتلهم وقتل منهم ، وبارز فرسانهم فكيف رآهم بعد هذا العمر كله » ؟

يقول الأمير أسامة :

« . . والإفرنج خذلهم الله ، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان ، ولا عندهم ناس إلا الفرسان فهم أصحاب الرأى وأصحاب القضاء والحكم ، وقد حاكمتهم مرة على قطعان غنم أخذها صاحب بيناس من الشعراء ، وبينته بينهم صلح ، وأنا إذ ذاك بدمشق ، فقلت للملك فلك بن فلك . « هذا تعدى علينا وأخذ دوابنا » فقال الملك لستة سبعة من الفرسان : « قوموا اعملوا له حكمًا » ، فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شىء واحد وعادوا إلى مجلس الملك ، فقالوا : « قد حكمنا أن صاحب بيناس عليه غرامة ما

أتلف من غنمهم » ، فأمره الملك بالغرامة فتوسل إلى وثقل على وسألنى حتى أخذت منه أربعمائة دينار وهذا يفيده ولا ينقصه ، فالفارس أمر عظيم عندهم .

يحدثنا الأمير عن تصرفات حمقى من بعضهم ، وعن طبهم ولكنه يشيد بالطب العربى فى مواجهة طب الإفرنج ويستمر فى ذكر عاداتهم وأخلاقهم كما خبرها وعرفها . .

يقول الأمير أسامة :

« . . فطل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقًا من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين ، فمن جفاء أخلاقهم ، قبّحهم الله ، أننى كنت إذا زرت البيت المقدس دخلت إلى المسجد الأقصى وفى جانبه مسجد صغير قد جعله الإفرنج كنيسة ، فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى ، وفيه الداوية (فرسان من الفرنج) ، وهم أصدقائى ، يخلون لى ذلك المسجد الصغير أصلى فيه ، فدخلته يومًا فكبرت ووقفت فى الصلاة ، فهجم على واحد من الإفرنج مسكنى ورد وجهى إلى الشرق ، وقال : « كذا صل » فتبادر إليه قوم من الداوية أخذوه ، أخرجوه عنى وعدت إلى الصلاة ، فافتعلهم وعاد هجم على ذلك بعينه ، ورد وجهى إلى الشرق ، وقال : « كذا صل » ، فعاد الداوية دخلوا إليه وأخرجوه واعتذروا إلى ، وقالوا « هذا غريب وصل من بلاد الأفرنج فى هذه الأيام، وما رأى من يصلى إلى غير الشرق » فقلت « حسبى من الصلاة ! » فخرجت فكنت أعجب من ذلك الشيطان وتغيير وجهه ورعدته وما لحقه من نظر الصلاة إلى القبلة .

« . . وليس عندهم شىء من النخوة والغيرة يكون الرجل منهم يمشى هو وامرأته ، يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فإذا طوّلت عليه خلاّها مع المتحدث ومضى .

ومما شاهدت من ذلك أنى كنت إذا جئت إلى نابلس أنزل فى دار رجل يقال له معز داره عمارة المسلمين لها طاقات تفتح إلى الطريق ، ويقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل إفرنجى يبيع الخمر للتجار يأخذ فى قنينه من النبيذ وينادى عليه ، ويقول « فلان التاجر قد فتح بنية (قارورة) من هذا الخمر من أراد منها شيئًا فهو فى موضع كذا وكذا » وأجرته عن ندائه النبيذ الذى فى القنينة فجاء يومًا ووجد رجلاً مع امراته فى الفراش فقال له : «أى شىء أدخلك إلى عند امرأتى؟ » قال : « وجدت فراشًا مفروشًا نمت فيه . قال : « والمرأة نائمة معك ؟ » قال : « الفراش لها كنت أقدر أمنعها من فراشها ؟ « قال : » وحق دينى إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت » .

فكأن هذا نكيره ومبلغ غيرته !

« لا يتوقف سيـل الذكريات وتتـابعها ، ولكن أرقها بـلا شك تلك المتعلقة بـوالده ، بأعمامه ، بما يدور حول المرأة العربية » .

الــوالــد

. . يقول أسامة بن منقذ عندما يحدثنا عن والده :

كـان الوالـد رحمه الله ، كثير المباشرة للحـرب ، وفى بدنـه جراح هـائلة ، ومـات على فراشه .

هكذا فى بساطة وعمق يلخص أسامة سيرة والـده الذى ترك فيه أثرًا عميقًا ، لقد تولى والده إمارة الدولة المنقذية بشيزر فى سوريا بعد وفاة شقيقه الأكبر « أبو » المرهف ، غير أن شغفه بالصيد ، ونسخ القرآن الكريم جعلـه يتنازل عن السيادة والإمارة لأخيه الأصغر عز الدين أبى العساكر ، وكان يردد :

« والله لأوليتها ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها » .

وما دوّنه أسامة عن والده يؤكد صورة هذا الرجل الصالح الذى يفيض بالتقوى يقول : « وذلك أن والـدى رحمه الله ، كان قـد فرغ زمـانه لتـلاوة القرآن ، والصيـام ، والصيد فى نهاره، وفى الليل ينسـخ كتاب الله تعالى ، فكان قـد نسخ ستًا وأربعين ختمـة بخطه رحمه الله، منها ختمتان بـالذهب جميع القرآن ، ويركـب إلى الصيد يومًا ويستريح يـومًا ، وهو صائم الدهر . . » .

ويقول فى موضع آخر مشيرًا إلى علم والده بالنجوم :

« وكان رحمه الله له اليد الطولى فى النجوم مع ورعه ودينه وصومه الدهر وتلاوة القرآن ، وكان يحرضنى على معـرفة علـم النجوم فأبـى وأمتنع فيقول : « فاعـرف أسماء النجوم ، ما يطلع منها ويغرب » ، فكان يرينى النجوم ويعرفنى أسماءها .

وبرغم زهـد والده ، وتفرغه للعبادة ، إلا أنه كـان صيادًا ماهرًا ومقاتلاً متمـرسًا يقول أسامة عنه :

« والله ما رأيت الوالد ، رحمه الله ، نهانى عن قتال ولا ركوب خطر ، مع ما كان يرى فىّ وأرى من إشفاقه وإيثاره لى » .

لم يكن والـده ـ كما نرى من خـلال صورته التـى تركها لنـا فى الكتاب ـ له شغـل سوى

الحرب وجهاد الإفرنج ونسخ كتاب الله ، ومن العبارات ذات الدلالة قوله لابنه : « ياولدى فى طالعى أننى لا أرتاع » ، ومن الحوادث التى يرويها أسامة ويرد فيها ذكر الوالد، ووقائع الصيد ما يرويه عن فهدة كان يمتلكها والده :

« وكـان للوالـد رحمه الله فهدة فى الفهـود مثل اليحشـور فى البزاة ، اصطـادوها وهـى وحشية من أكبر ما يكون من الفهود ، فأخذهـا الفهاد وقرمها واستجابها ، وكانت تركب ولا تريد الصيد ، وكانت تصرع كما يصرع المصاب بعقله وتزيد ، ويقدم إليها الخشف فلا تطلبه ولا تـريده ، حتى إذا شمته عضتـه ، وبقيت كذلك مـدة طويلة نحوا مـن سنة ، فخرجنا يومًـا إلى الأزوار ، فدخلت الخيل إلى الزور وأنا واقـف فى فم الزور ، وألفها وبهذه الفهدة قريب منى ، فقـام من الزور غزال وخرج إلىّ ، فدفعت حصانًـا كان من تحتى من أجـود الخيل أريـد أرده إلى الفهدة ، وعـاجله الحصـان بصـدره ، رماه ، فـوثبت الفهـدة صادمة ، فكأنها كانت نائمة انتبهت وقـالت : « خذوا من الصيد ما أردتم » ! ، فكانت مهما قام لها من الغزلان أخذته ، ولا يستطيع الفهاد ضبطها فتجذبه ترميه .

وكانت هـذه الفهـدة دون باقى الفهود فى دار الوالد رحمه الله ولـه جارية تخدمها ، ولها فى جانـب الدار قطيفـة مطويـة تحتها حشيـش يابـس ، وفى الحائط سكة مضروبـة يجىء الفهـاد بها مـن الصيد إلى بـاب الدار ، وتدخـل إلى الـدار ، إلى ذلك المكـان المفروش لها فتنام فيه ، وتجىء الجارية تربطها إلى السكة المضروبة فى الحائط ، وفى الدار ، والله ، نحو من عشرين غـزالا آدميا وأبيض فحول ومعزى وخشـوف قد توالدت فى الـدار فلا تطلبهم ولا تروعهـم ولا تزول عـن موضعهـا ، وتـدخل إلى الــدار وهى مسيبـة فلا تلتفـت إلى الغزلان .

يفرد أسـامة الجزء الأخير من كتـابه للحديـث عن ذكريـات الصيد الذى كـان يمارسه الوالد ، خـروجه إلى البرية ، الطيور ، الحيـوانات التى كان يصطـادها ، يرسم لنـا لوحة متكاملـة لأحد جـوانب الحياة فى هـذه العصور النـائية ، ويبرز أيضًا أحـد ملامـح الحياة العربية ، يقول أسامة عن والده :

« وكان ، رحمه الله ، مع ثقل جسمه وكبر سنه ، وأنه لا يزال صائمًا يركض نهاره كله ، وكان لا يتصيد إلا على حصان أو أكدميش كـواد ، ونحن معه أربعة أولاد ، نتعب ونكل وهو لا يضعف ولا يكل ولا يتعب » .

يبدو أسـامة خبيرًا بالصيد ، صيـد الطيور ، وصيد الحيوان ، عـالمًا بوسائله ، وطـرقه وأساليبه ، والفرق بين الحيوانات المتوحشة وطبائعها وخصالها ، يسردها من خلال الوقائع

التى عايشها ومن خلال التجربة المباشرة وبـأسلوب الرواية الذى يكسب النص فرادته فى التراث العربى المكتوب .

* * *

كانـت والدته قـوية الشخصية ، ويبدو ذلـك من خلال حـادثة أوردها أسـامة ، إذ حدث أن هـاجم الإسماعيليـة شيزر ، وكـان الجنود خـارجها ، عنـدئذ قامـت أم أسامـة ووزعت السلاح ، وألبست ابنتها الخف والأزار وأجلستهـا فوق مرتفع مشرف على الوادى حتى إذا ما انتهى الأعداء إليهـا تدفعها وترميها إلى الوادى ، تقتلها بيدهـا . وتراها ميتة . ولكن أبـدًا . . لن تـراها أسيرة منتهكة ، على امتـداد ذكريات الأمير أسـامة نلمـح ، بل ويلفت نظرنا احترامه للمرأة ، يذكر العديد من أعمال البطولة التى قمن بها . وكان ينادى خادمته العجوز « يا أمى » ، ومن مؤلفاته التى وضعها كتاب أفرده لأخبار النساء .

* * *

فى آخر حيـاته ، بعد أن بلغ مـن الكبر عتيا وأتم التسعين ، يـدون تأملاته التـى يبدو فيها رؤية آخر المرحلة ، ونهاية الشوط :

« لم أدر أن داء الكبر عام ، يعدى كل مـن أغفله الحمام ، فلما توقلت ذروة التسعين ، وأبلانـى مر الأيـام والسنين ، صرت كجواد العـلاف ، لا الجواد المتلاف ، ولصقـت من الضعف بالأرض ، ودخل من الكبر بعض فى بعض ، حتى أنكرت نفسى ، وتحسرت على أمسى .

ثم يقول :

« فلا يظن ظـان أن الموت يقدمه ركوب الخطـر ، ولا يؤخره شدة الحذر ، ففـى بقائع أوضـح معتبر ، فكـم لقيـت مـن الأهـوال ، وتقحمـت المخـاوف والأخطـار ، ولاقيـت الفرسان ، وقتلت الأسـود ، وضربت بالسيوف ، وطعنت بالرماح ، وجـرحت بالسهام ، والجروح ، وأنا من الأجل فى حصن حصين ، إلى أن بلغت تمام التسعين ، فرأيت الصحة والبقاء ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « كفى بالصحـة داء » ، فأعقبت النجاة من تلك الأهوال ، مـا هو أصعـب من القتل والقتـال ، وكان الهلاك فى كنـه الجيش ، أسهـل من تكاليف العيش ، استرجعـت منى الأيام بطول الحياة سائر محبـوب اللذات ، وشاب كدر النكد صفو العيش الرغد » .

ثم ينشد :

تناسـتنى الآجـال حتـى كأننـى ... دريئـة سـفر بالفـلاة حسيـر
ولـمـا تـدع منـى الثمـانون منـة ... كـأنى إذا رمـت القيـام كسير
أؤدى صـلاتى قـاعدًا وسجودها ... علىّ إذا رمـت السجـود عسـير
وقـد أنـذرتنى حطـة الحـال أننى ... دنـت رحلـة منـى وحـان مسيـر

هذا هو الأمير أسامة بن منقذ ، الفارس ، والشـاعر ، والأديب ، هذا هو يلخص لنا تجربة عمـره الطويـل ، والتى مـن أجلها سمى كتـابه « الاعتبـار » ، أقدم تـرجمة ذاتية فى التراث العربـى طبقًا لما وصـل إلينا ، أسـامة بن منقـذ سماه المؤرخ الذهبـى بأحـد أبطال الإسـلام ، أما ابـن الأثير فـوصفه بـأنـه « كان مـن الشجـاعـة فى الغايـة التـى لا مزيـد عليها . . ».

كتاب العصا

هذا نص أدبي نادر ، غير شائع ، وغير معروف حتى لبعض المهتمين بالتراث العربي ، والمخطوطات القديمة ، المؤلف هو الأمير أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكلبي الشيرزي . وقد عرضنا له .

ونتوقف الآن عند كتابه (العصا) . وهذا العنوان ليس من ابتداعه إذ يذكر لنا في المقدمة الباعث له على تأليف الكتاب ، يقول الأمير أسامة « . . وبعد فإن النفس ترتاح لما سمعت . وتُلِحُّ في الطلب إذا مُنِعت . وكان الوالد السعيد مجد الدين أبو سلامة مرشد ابن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ رضي الله عنه ، حدثني أنه لما توجه لخدمة السلطان ملكشاه رحمه الله وهو إذ ذاك بأصفهان ، قصد القاضي الإمام الصدر العالم أبا يوسف القزويني رحمه الله ، عائدًا ومسلمًا بمعرفة قديمة بينهما ، ويد كانت عنده للجدّ سديد الملك ذي المناقب أبي الحسن عليّ بن مقلد رحمه الله . وذلك أن القاضي المذكور سافر إلى مصر في أيام الحاكم صاحب مصر ، فأحسن إليه وأكرمه ، ووصله بصلات سنية فاستعفى منها ، وسأله أن يجعل صلته كتبًا يقترحها من خزانة الكتب فأجابه إلى ذلك ، فدخل الخزانة واختار منها ما أراده من الكتب ، ثم ركب في مركب وتلك الكتب معه ، يريد بلاد الإسلام التي في الساحل ، فتغير عليه الهواء فرمى بالمركب إلى مدينة اللاذقية فخاف على نفسه وعلى ما معه من الكتب ، فكتب إلى جدي سديد الملك رحمه الله تعالى كتابًا يقول فيه :

« قد حصلت بمدينة اللاذقية بين الروم . ومعي كتب الإسلام . وقد وقعت لك رخيصًا ، فهل أجدك حريصًا . . » .

فسيّر إليه من يومه ولده عمي عِزّ الدولة أبا المرهف نصرًا رحمه الله ، وسير معه خيلاً كثيرًا من غلمانه وجنده ، وظهرًا لركوبه وحمل أثقاله ، فأتاه وحمله وما معه فأقام عند جدي

رحمه الله مدة طويلة وكانت له بالوالد رحمه الله عناية « وإلف . فلما اجتاز ببغداد قصده ليجدد به عهدًا . . » .

ويذكر والد الأمير أسامة أنه رأى كتاب العصا عند هذا الشيخ وهنا يقول الأمير :

« ولى منذ سمعت هذا نحوا من ستين سنة اتطلب كتاب العصا بالشام ومصر والعراق والحجاز والجزيرة وديار بكر ، فلا أجد من يعرفه . وكلما تعذر وجوده ازددت حرصًا على طلبه . إلى أن حدانى اليأس منه على أن جمعت هذا الكتاب وترجمته بكتاب العصا ، ولا أدرى أكان ذلك الكتاب على هذا الوضع أم على وضع غيره . . » .

هكذا يخبرنا الأمير أسامة أنه عندما أدركه اليأس من الحصول على كتاب العصا ، أقدم هو على تأليف كتاب حول الموضوع نفسه ويقول المرحوم الأستاذ عبد السلام هارون إنه يعتقد أن الكتاب الذى أمضى الأمير أسامة عمرًا يبحث عنه ، ماهو إلا كتاب « العصا » للجاحظ . وهو من مشتملات كتاب البيان والتبيين . وأن الأمير أسامة التبس عليه الأمر فظن ذلك الكتاب الذى دار حوله الحديث كتابًا مستقلاً لمؤلف آخر غير الجاحظ .

والأستاذ عبد السلام هارون هو الذى نشر كتاب (العصا) للأمير أسامة ضمن مجموعة « نوادر المخطوطات » التى حققها وصدرت فى القاهرة .

العصـــا

بعد المقدمة يذكر لنا المؤلف لماذا سميت العصا ؟

قال أبو بكر محمد بن دريد رحمه الله : إنما سميت العصا عصا لصلابتها . مأخوذ من قولهم ، عَصّى الشيء وعصا وعسا إذا صلُب . واعتصت النواة . إذا اشتدت . فأنما العصا مثل يضرب للجماعة . يقال شق فلان عصا المسلمين والجماعة . وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم « اياك وقتيل العصا » . يريد المفارق للجماعة فيقتل . وألقى الرجل عصاه ، إذا أطمأن مكانه . ويقال عصا وعصوان والجمع العُصِيّ .

ويقال عصوت الجرح . إذا دوايته .

والعصيان ، فلان الطاعة .

وينقل الأمير أسامة عن كتاب الأوائل لأبى هلال العسكرى ما نصه قال أبو هلال العسكرى ، أول من خطب على العصا وعلى الرّاحلة قس بن ساعدة الإيادى ، فما ورد عنه من خطبه قوله :

« أيها الناس ، اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ماهو أت أت، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وجبال مرساة وأرض مدحاة . وأنهارًا مجراة . ما بال الناس يذهبون فلا يرجعون . أرضوا فأقاموا . أم تُركوا فناموا، يقسم قس بالله قسمًا لا أثم فيه : أن لله دينا هو أرضى وأفضل من دينكم . الذى أنتم عليه ، أنكم لتأتون من الأمر منكرًا ، ثم انشأ يقول :

فى الذاهبين الأولين	من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردًا	للقوم ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها	يمضى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى إلىّ	ولا من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محالة	حيث صار القوم صائر

ثم يقول أسامة :

تقول العرب : فلان ممن قرعت له العصا إذا كان يرجع إلى الصواب وتقول : فلان صلب العصا . إذا كان ذا نجدة وحزامة وتقول إذا تفرقت الخلطاء واختلفت آراء العشيرة ومَرِج الأمر : انشقت العصا ، وتقول للمسافر إذا آب واستقرت به داره : ألقى عصا التسيار .

قرع العصا

الفصل الثانى بعنوان « قرع العصا » . يبدؤه بحديث شريف للرسول عليه الصلاة والسلام :

« ما قرعت عصا على عصا إلا فرح لها قوم وحزن آخرون » . ويذكر قصة عامر بن الظّرب العدوانى . وكان حكمًا للعرب ، يُرجع إلى حكمه ورأيه . فكبر وأفناه الكبر والدهر وتغيرت أحواله ، فأنكر عليه الثانى من ولده أمرًا من حكمه فقال له : إنك ربما أخطأت فى الحكم ويُحمل عنك ، فقال : اجعلوا لى أمارة أعرفها ، فإذا أخطأت وقرعت لى العصا رجعت إلى الحكم ، فكان يجلس أمام بيته يحكم ويجلس ابنه فى البيت ومعه العصا ، فإذا زلّ وهفا ، قرع له الجفنة بالعصا .

ثم يذكر الأمير أسامة بعضا من أقوال العرب ، فالقول بأن فلانا (صلب العصا) ، إذا كان جلدًا قويًا على السفر والسير .

وفى القرآن الكريم « إذا ضربتم فى الأرض » أى سافرتم ، وضرب بالعصا أى شرع فى السير .

ويقال . فلان يشق العصا . إذا كان لا يدخل تحت حكم ولا طاعة مخالفًا لأمر الآخرين . ويستعمل شق العصا فيمن يتفرق عنه أحبابه ويرحل عنه أصحابه ، فيظهر مكنون سرّه ، ويبوح مخفى أمره ، لضرورة البين الداعية إلى ذلك .

ويقال (ألقى العصا) أى ألقى عصا التسيار . إذا أقام وترك السفر ، أو وصل الإنسان إلى مراده ، وراحته ، ومظنة استراحته وعن الجاحظ يقول الأمير أسامة :

« الدليل على أن أخذ العصا مأخوذ من أصل كريم ، ومعدن شريف ، اتخاذ سليمان ابن داود عليه السلام العصا لخطبته وموعظته ومقاماته وطول صلواته وتلاوته وانتصابه . فجعلها لتلك الخصال جامعة و « المحجنة » أى العصا المعوجة . وفى الحديث المرفوع أنه صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت يستلم الأركان بمحجنه .

والعرب تقول « لو كان فى العصا سير ، للمقلّ والضعيف » .

وتقول أيضا : قد أقبل فلان ولا نت عصاه ، إذا أصابه السُّوّاف ـ وهو ذهاب المال ـ

وتقول العرب « العصا من العُصَيّة ، والأفعى من الحية » ، أى أن الأمر الصغير من الكبير .

* * *

يتضمن كتاب العصا عدة حكايات رواها الأمير أسامة عن مشاهدة ومعاينة ، وهذا أسلوب يتفرد به . ويبدو واضحًا فى أرقى صوره فى كتابه الاعتبار ، ويذكر الأستاذ عبد السلام هارون ، أن كتاب العصا تضمن تسعين بيتًا من الشعر لم يتضمنها ديوانه المطبوع ومن هذه الأبيات .

مع الثمانين عاث الضعف فى جلدى ... وساءنى ضعف رجلى واضطراب يدى
إذا كتبت فخطى جِدُّ مضطربٍ ... كخَطِّ مرتعشِ الكفين مرتعد
وإن مشيت فى كفى العصا ثقلت ... رجلى كأنى أخوض الوحل فى الجَلَد
فاعجب لضعف يدى عن حملها قلمًا ... من بعد حَطْم القنا فى لَبّة الأسد
فقُلْ لمن يتمنى طول مدته ... هذى عواقب طول العمر والمددِ

وينقل الأمير أسامة عن شاعر مجهول قوله :

حملتُ العصا لا الضعف أوجب حملها ... عَلَيّ ولا أنى تحنّيتُ مِنْ كِبَره
ولكننى ألزمت نفسى حَمْلها ... لأعلمها أن المقيم على سفره

المنـــازل والـديـــار

للأمـــير أســـامـــة بن منقـــذ ..

.. ثمة نصوص أدبية . قريبة من النفس ، كتبت من مداد ، من حروف ولكن تنشأ بينها وبين الإنسـان صلات وثيقة . فكـأنها نسيج بين مخلوقين مـن لحم وأعصاب ودم . وخلال إبحارى الطويـل فى لجة التراث العربى . عرفت عددًا كبيرًا مـن هذه النصوص . أطالعها لأول مـرة فتبدأ العلاقة ، وتمضى فترة زمنيـة ثم أعود مرة أخرى وكـأنى أتطلع إلى رؤية صاحب حميم . أحيانًا يطالعنـى المؤلف نفسه من بين سطوره . فأكاد أرى ملامحه . وأوشك أن أشعر بحالته النفسية عند تسطير هذه الصفحة أو تلك ، بل أوشك أحيانًا أن أتخيل نوعية النظرة فى عينيه ، أسيانة ، فرحانة ، أو حزينة .

من هـؤلاء الـذين قام بينى وبينهـم وثيق صلة ، الأمير أسامـة بن منقذ ، بالـرغـم من عشـــرة قـرون وعـــدة سنـوات تفصـــلنى عنه ، نشـأت العـــلاقة بعـد أن قـرأت كتـابـه «الاعتبار» . أقـدم ترجمـة ذاتيـة معـروفة حتـــى الآن فى الأدب العـربى ، بدأت البـحــث عـن كتـاب له بعنوان « المنـازل والديار » ، قــرأت أن النسخة الوحيـدة الموجـودة منه فى العـالم ، توجـد ، فى لينتجـراد بـالاتحاد السوفيتـى . وأن طبعـة صـدرت فى موسكـو أول الستينيـات ، تضم النـص العربى ، والترجمـة الروسـية . وكتبت إلى الصديقة الـدكتورة فـاليريا كيربتشنكـو ، المستشرقة المعـــروفة ، أسـألها أن تـوفر لى نسخـــة من الكتـــاب . وأجـابتنى قائلـة إن المؤلف طبع فعلاً فى موسـكو . ولكن الطبعة كانـت محـدودة جدًا . وإن النسخـة الواحدة منها تعتبر الآن فى مصاف التحف ، والحصول عليها صعب جدًا ، الحق أننى شعـرت بالضيـق ، فلا شـىء يكـدرنى مثـل رغبتى فى الحصـول على كتاب ، وأبقـــى أنا فى نـاحية ، والكتـاب فى ناحيـة أخـرى مجهـولة لى ، لم يكـن هنـاك حـل إلا الانتظـار حتى سفرى إلى الاتحاد السوفيتى ، وإلى لينتجـراد بالتحـديد . وهناك ، أحاول

تصوير نسخة من المخطوطة الأصلية . هذا إذا ووفقت ، وقبل ذلك إذا سافرت إلى روسيا وإلى لينينجراد بالتحديد .

طبعًا لم يدركنى اليأس فى القاهـرة . وأوصيت عددًا من معارفى المتخصصين فى العثور على الكتب النـادرة ، أن يبحثوا لى عن نسخة مـن « المنازل والديار » ، ربما تكـون إحدى نسخ الطبعة الروسية قد وجدت طريقها إلى القاهرة ، أو . . من يدرى ، ربما طبع فى جهة ما .

إلى أن وقعت المفاجأة ذات صباح .

المنــازل .. والــديــار

جاءنى صديق من ذوى الخبرة فى الكتب القديمة . وقال مبتسمًا .

ـ لقد عثرت لك على نسخة من المنازل والديار . .

تطلعت إليه غير مصدق . لكم طال شوقى عبر سنوات عديدة إلى هذا الكتاب ، وعندما فتح حقيبته الجلدية القديمة . وأخرج منها النسخة ، فوجئت أكثر ، لم تكن طبعة روسية . ولا إنجليزية ، ولا هندية . كانت طبعة مصرية وحديثة نسبيًا .

نعم . . فوجئت أن الكتاب حقق تحقيقًا علميًا رائعًا ، وصدر عام ثمانية وستين وتسعمائة وألف فى القاهرة ، عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وهذا المجلس يضم لجنة لإحياء التراث الإسلامى ، تصدر سلسلة من المطبوعات الهامة ، ولكنها لا توزع بشكل جيد ، ومحدودة الانتشار ، كما أن معظم النسخ تقدم كهدايا ، وفى الأغلب الأعم ، تضل الكتب طريقها عن مستحقيها الحقيقيين عندما تقدم هدية ، خاصة لمن لم يسع إليها ، ولمن لم يطلبها .

على أية حال ، ها هو الكتاب أمامى ، بتحقيق الأستاذ مصطفى حجازى ، حملته بعناية . وفى اليوم نفسه بدأت أرحل معه وفيه .

رحلة الكتاب

يقول المحقق ، الضالع ، المتمكن ، مصطفى حجازى فى مقدمته ، إن ناشرى مؤلفات الأمير أسامة أشاروا إلى هذا الكتاب ، وذكرت دائرة المعارف الإسلامية أن نسخته الوحيدة محفوظة فى لينجراد ، وكان أول من نبه إليه المستشرق السوفيتى كراتشكوفيسكى ،

الذى كتب عنه مقالاً عام ١٩٢٥ فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق . وفى عام ١٩٦١ قام معهد الشعوب الآسيوية بموسكو بنشره ، بطريقة تصوير المخطوط ـ وهى الطبعة التى كنت أبحث عنها ـ وكتب له المقدمة المستشرق أنس خالدوف ، والنشر بهذه الطريقة يعنى توفير صورة من المخطوط لا غير . ويقول الأستاذ المحقق مصطفى حجازى إنه شعر بضرورة تحقيق الكتاب ، وفق مناهج التحقيق الحديثة ، وقد اكتشف خطأ بالطبعة الروسية فى ترتيب الصفحات .

المنهج

رتب الأمير أسامة كتابه أو قسمه فى ستة عشر فصلاً سردها فى آخر المقدمة . الفصل الأول فى ذكر المنازل ، والثانى فى ذكر الديار ، والثالث فى المغانى . ويستمر حتى يصل إلى آخر فصول الكتاب وقد خصصه فى بكاء الأهل والإخوان .

إنه يبدأ الفصل غالبًا بما يجده مناسبا له من آيات الكتاب العزيز ، يردفه بتفسيرها من المأثور ، وربما يورد بعد ذلك ما يناسبه من الحديث الشريف إن وجد ، ثم يفيض فى مختاراته الشعرية . وهذا أسلوب مألوف فى كثير من المؤلفات الأدبية العربية ، منها «الغُرر والغرر» للوطواط و « محاضرات الأدباء » للأصفهانى ، و « العقد الفريد » لابن عبد ربه .

أحيانًا كان يفصل معنى اللفظ اللغوى كما فعل فى فصل « الديار » وفصل « الآثار » لكنه لم يلتزم بذلك فى معظم الفصول .

المدخل

بشعور أسيان ، وبقلب يقطر حكمة ، وتجربة ، يبدأ الأمير أسامة مؤلفه ، يقول :

« الحمد لله ، وإن تنقلت بنا الدنيا تنقل الظلال ، وتقلب بنا الدهر من حال إلى حال ، وعفت رسوم آثارنا ، واستولت يد الاعتداء على ديارنا ، وتصدع شملنا أيدى سبأ ، وتشعبت بنا سُبل المذاهب ، وأخنت الحوادث على معشرى وآلى ، وأفنى الموت أسودى وأشبالى ، كل ذلك بقدَرٍ جرى به القلم فى القدم ، وقضاء سبقت به المشيئة قبل الخروج إلى الوجود من العدم . . . .

ويمضى الأمير فى خطبة الكتاب ، أو المدخل الحزين . الأسيان ، ثم يخاطب القارئ مباشرة بأن يدعو له .

ـ وبعد جعلك الله بنجوة من النوائب . وأصفى لك الحياة من كدر الشوائب . ولا راعك بحادثة تُنسى ما قبلها . وتُصَغِّر ما بعدها وتفتح من النكبات أبوابًا لا تستطيع سدها .

ثم يقول متحدثًا عن كتابه .

ـ وقد جعلت هذا الكتاب فصولاً ، فافتتحت كل فصل بما يوافق حالى ، ثم أفضْتُ فيما يوافق ذا القلب الخالى ، لكيلا يأتى الكتاب وهو كله عويل ونياحة . ليس فيه لذوى البث راحة ، على أن رزايا الدنيا كالأجل ، تُمْهل ولا تهمل ، فإن تولت اليوم فغدًا تقبل .

ويبدأ الأمير أسامة بن منقذ فصول كتابه ، أو يبدأ فى عد الحبات التى انتظمتها هذه السبحة ، لتفرز أرق المشاعر وأجلها حزنًا . والتى عبق بها وازدحم هذا الأثر الأدبى الرقيق النفيس ، فماذا نجد فيه .

يبدأ الأمير أسامة مؤلفه ، ناقلاً عن شخص اسمه ابن أبى مريم قوله ، إنه مر بسويقة عبد الوهاب . وهى محلة قديمة بمدينة بغداد . فلقى المحلة قد خربت وعلى أحد الجدران المهدمة هذه الأبيات .

هــذى منــازِلُ أقــوام عَهِــدْتهُمُ ... فى خَفْضِ عيــش وعِزّ مــاله خَطَــرُ
صَاحَتْ بهم نائِبــاتُ الدَّهــر فانقلبُوا ... إلى القُبــورِ ، فــلا عيــن ولا أثــر

هكذا ، مباشرة يدخل الأمير فى موضوعه ، مبتدئًا الفصل الذى خصصه لذكر المنازل ، ثم يورد أبياتًا من الشعر ، يشرح غوامضها . ويفسر غريبها ، وإننى لأتوقف عند بعض مختاراته فى ذكر المنازل . أى أننى أختار مما وقع عليه اختيار الأمير . وهو يكتب ليتسلى فى محنته .

يقول ابن أبى طاهر .

يـا منــزلاً لعــب الزمــان بأهْــلِه ... طَــوْرًا يفــرقهــم . وطــورًا يجمــع
ايــن الذيــن عهــدتهم بــك مــرّةً ... كــان الزمــان يَضُــرُّ بهــم وينفــعُ

وينقل عن البحترى قوله :

فَيْــئ إليْــكَ ، فَقَــدْ تَخَــوَّنَ أُسْرتى ... حتــف الــرَّدى وتحـامــل النَّكبـاتِ
تلــك المنــازِلُ مــا تُمَتّــعُ واقِفًــا ... بزُهَى الشُّخوصِ . ولا وغى الأصواتِ
لــن تُــخْلِــفَ الأيـامُ لى بـدَلا بهــم ... أيهــات مــن بــدل بهــم أيهــات

ومُعيرِّى بالـدَّهـرِ يعلمُ فـى غدٍ　　أنَّ الحصـادَ وراءَ كُـلِّ نبـاتِ

ويقول شاعر مجهول :

دعْنِى وتسكابَ دمعى فى منازِلهم　　فللشئُون ولى من بعدهم شانُ
أحبابنا ما الديـارُ اليوم بعدكُم　　تلك الدّيـارُ ولا الأوطان أوطانُ !

ولا يكتفى الأمير أسامة بإيراد الشعر الذى يتضمن رثاء المنازل ، وإنما يذكر الحكايات المتعلقة بنفس الموضوع . يقول نقلاً عن زنام الـزّامرِ : لما اشتد المرض بالمعتصم ـ فى مرضه الذى مات فيه ـ أفاق فى بعض الأيام ، فقال : هيئوا لى الزّلال . لأركب فيه فى دِجْلة غدًا ، فعملوه . فركب : وركبت معه ، فهو فى دجلة بإزاء منازله فقال يا زنام ازْمُر لى :

يـا مَـنْـزلاً لـم تَبْـلَ أطـلالُـه　　حـاشـا لأطـلالك أن تبْلَـى
لـم أبـكِ أطـلالـك . لكننـى　　بكيـت عيشـى فيـك إذ ولـى

ومازال ينتحب حتى عاد إلى منزله .

وتتوالى المقتطفات الشعرية الآسيانة التى اختارها الأمير أسامة ، حتى يقول ما نصه :

« لى على من تقدم ذكره من الشعراء فضل المزيَّة . إذ كنت دونهم صاحب الرزية ، فكان شعرى أولى أن يقدم على اشعارهم . وأن قصَّرت بى البلاغة عن اقتفاء آثارهم . لكن للمتقدم السبق ، وهو بالتقدمة أولى وأحق . وإن كنت وهم كما قال ذرّ لأبيه : يا أبت مالك إذا تكلمت أبكيت الناس ، وإذا تكلم غيرك لم يبكهم . قال : يا بنى ليست النائحة المستأجرة كالثكلى .

ثم يورد أشعاره هو التى نظمها حزنًا على أهله الذين أبادهم الزلزال . ومن أرق شعره هذا البيت :

أبكيـك . أم أبكـى زمـانـى فيـكِ أم　　أهْلِيـك ، أم شَـرْخَ الشبـابِ الـزائِلِ

الـديـار

من المنازل ينتقل الأمير أسامـة إلى الديار ، يبدأ بذكر آيات القرآن الكـريم التى ذكرت الديار .

قال تعالى « ولا تخرجون أنفسكم من دياركم . . » ـ سورة البقرة ٨٤ .

ثم يمضى طبقًا لمنهجه ، فيورد مختارات من الشعر العربى ، كلها تدور حول الديار وفرقتها . والحنين إليها ، وتعكس هذه المختارات سعة اطلاع الأمير وغزارة ثقافته ، يذكر كثير بن عبد الرحمن الخزاعى .

لمن الديارُ بأبرقِ الحنَّان ... فالبُرْقِ فالهضباتِ من أدمانِ
أقوت منازِلُهُمْ وغيّر رسمها ... بعد الأنيسِ تعاقبُ الأزمانِ

وعن البحترى :

متى تَسْتَزِدْ فضلاً من العُمْرِ تَغْتَرِفْ ... بسَجلَيْكَ من أذى الخطوبِ وصابها
يُسَرُّ بعُمرانِ الديار مَضَلَّلُ ... وعمرانُها تدونو به من خرابها
ولم أرتضِ الدنيا أوان مجيئِها ... فكيف أرتضائيها أوانَ ذهابِها

وعن أبى عبد الله الطبرى ينقل الأمير أسامة قصة يقول فيها : قال رجل لأبى محمد الحريرى : كنت على بساط الأنس . وفُتح لى طريق إلى الانبساط ، فزلَلْتُ زَلّة ، فَحُجُبْتُ عن مقامى ، فكيف السبيل إليه ؟ دُلّنى إلى الوصول إلى ما كنت عليه ، فبكى أبو محمد وقال : يا أخى ، الكُلّ فى قهر هذه الخُطَّة ، وفى أسْرِ هذه الرزية ، ثم شهق ، ثم سكت ساعة وأنشد :

قف الديار فهذه آثارُهم ... نَبْكِ الأحِبَّة حَسْرة وتَشوقًا
كم قد وقفت بها أسائل مخبرًا ... عن أهلها ، أو صادرًا ، أو مشفقًا
فأجابنى داعى الهوى فى رسمها ... فارقتَ من تهوى فعزَّ المُلْتَقَّى

ويذكر الأمير نص قصيدة نظمها الأمير طلائع بن زريك رجل الدولة الفاطمية القوى فى مصر ، يعزى فيها الأمير على فقد أهله . يبدؤها قائلاً :

لَهْفَ نفسى على ديار من السُكـ ... إنِ أقْوَتْ . فليس فيها عريبُ
ولكم حَلَّها فانسته أوطا ... نَ صباه والأهل يومًا غريبُ

ويذكر الأمير أسامة أنه كان بقرية « فنك » القريبة من سمرقند ، فقرأ على حائط مسجد البيت التالى مفردًا :

تَجَنَّبتُ غِشْيَانَ الدِّيَارِ وليس فى تجنُّبها بعد الفِراقِ مَلامُ

* * *

عندئذ اضاف الأمير أسامة تحته :

وما كنت أهوى الدار إلا لأهِلها على الدارِ بعد الظَّاعنينَ سلامُ

* * *

المغانى ، الأطلال ، الربع

المغانى هى المنازل التى هجرها أهلها . يفرد لها الأمير أسامة فصلاً . ومن مختاراته . أبيات لابى تمام :

شهدتُ لقد أقْوَتْ مغانيكُمْ بعدِى ومَحَّتْ كما مُحّت وشائع من بُرْدِ
فانجد تم من بعد اتهام داركم فيادمع أنجدنى على ساكنى نجدِ
لعمْرى لقد أبليْتمُ جِدَّةَ البُكا بِلاىَ ، وجَدَّدْتُم علىَّ بلَى الوجْدِ

ويلى المغانى فصل فى ذكر الأطلال . تطالعنا فى بدايته أبيات امرئ القيس الشهيرة .

إلا أنعم صباحًا أيها الطلل البالى وهل ينعمن من كان فى العصر الخالى

وتعد مختارات الأمير فى هذا الفصل من أرق وأغنى المختارات فى الكتاب ، أو فى المجموعات الشعرية التى خصصها أصحابها لجمع ما اختاروه من الشعر العربى ، فما أكثر الوقوف على الأطلال فى الشعر العربى ، والوقوف على الأطلال هو قمة التعبير عن الإحساس المر بمرور الزمن ، وزوال الوقت ، والمكان معًا . يلى الأطلال ، فصل عن الربع ، والربع أى المنزل ، ودار الإقامة . ومن المقطوعات الشعرية التى اختارها الأمير نورد أبياتًا لأبى الطيب المتنبى :

أيــــدرى الـــربـــع أىَّ دَمٍ أراقـــا ... وأى قــلـوبِ هــذا الركــبِ شــاقا
لنـــا ولأهـــله أبـــدًا قلـــوبٌ ... تـلاقى فــى جســوم مـا تــلاقى
فليْـــتَ هَـوى الأحـبّة كـان عـدْلا ... فحَمَّـل كـل قـلب مـــا أطــاقــا

* * *

الـــدمـــن ، الـــرســـم ، الآثـــار

الدمن ، جمع دمنة ، ودمنة الدار ، أى أثرها ، والـدمنة أيضًا آثار الناس وما سودوا . وقيل ما سودوا من آثار البعد وغيره ، عن البحترى ينقل :

دِمَـنٌ لزيـنبَ قبـلَ تشـريدِ النَّوى ... مــن ذِى الأداك بــزينـب ولَعُّــوبِ
تأبـى المنـازل أن تجيـب ومـن جَوى ... يـوم الدِّيـــار دعــوتُ غيــر مُجِيبِ

بعد الدِمَن ، يذكـر الأمير أسامة ما قيل فى الرسم . والرسـم أى الأثر ، وهو ما لصق بالأرض منها ، ورسم الدار ما كان من آثارها لاصقًا بالأرض ، وعن العرجى يذكر .

أفــى رسْــم دارٍ دمعُــكَ المتحــدِّرُ ... ســفاها . وما استنطـاقُ ما ليس يُخْبر
تغـيّر ذاك الرسْـــم مــن بعـد جِــدَّةٍ ... وكـــلُّ جــديـــد مـــرَّةً يتغيــرُ

أما الفصل الذى خصصه للآثار . فيبدأ بقوله تعالى :

« إِنَّا نحْنُ نُحْيِي الْموْتَى . ونَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وآثارَهُمْ . . . » ـ سورة يس .

ويمضى بنفس النهج موردًا مقتطفات مما قيـل من شعر فى الآثار ، ثم يخصص فصلاً واحدًا لذكر المساكن ، والمعاهد ، والمعاهد جمع المعهد وهو الموضع الذى عهده الإنسان ، أو عهد هوى لـه فيه ، والمعهد أيضًا هو المنـزل الذى ارتحل عنه القوم ثم رجعـوا إليه ، أما المحـال ، فمفرده محل . وهـو موضـع الحلول ، والمحلـة ، أى المكـان ينزلـه القوم . أمـا العرصات فهى جمع عرصة أى وسط الدار ، أو هى كل بقعة فسيحة بين الدور .

المساكن ، المعـاهد ، المحال ، العرصات ، لكـل يفرد الأمير أسامة فصـلاً ، يورد فيه ماقيـل من شعـر ذكر فيه كـل من هـذه المعالم . ثم يخصـص فصلاً كبيرًا لـذكر الأرض ، وينقسم هذا الفصل إلى جزأين ، فى الأول يورد مقتطفات معانى البكاء على فراق الأرض ، مثل قول شاعر مجهول :

سقـى الله أرضـًا لـو ظفـرت بتربــهـا كَحِلْـتُ بهـا من شدة الشوق أجفانى

فهــل بعــد هـــذا للمحبيــن غـايةٌ وهـل أحدٌ أشجانه مثـل أشجـانى ؟!

أمـا الجزء الثانـى فيحض على مفـارقـة الأرض التى وقعـت بها المصائب ، فـأرض الله واسعة ، ومن ذلك قول الشنفرى :

وفى الأرض منـأى للكـريــم عـن الأذى وفيهـــا لمـــن رام القلـــى مُتحـــوَّلُ

لعَمـرُك مـا بالأرضِ ضيـقٌ على امـرئٍ سَــرَى راغبـًا أو راهـبًا وهـو يعْقِــلُ

ونفس الشيء نجـده فى الفصل الذى خصصه للأوطـان . فى الجزء الأول نجد أشعارًا تبكى الأوطان ، وتحن إليها ، وتذرف أبياتًا مبلولة بـالدمع من أجلها ، يقول ـ على سبيل المثال ـ القاضى أبو محمد عبد الوهاب بن على بن نصر :

أهيـم بـذكر الشـــرق والغـرب دائمـًا ومـا بـى لا شـــرقُ البلاد ولا الغَـرْبُ

ولكـــنَّ أوطـــانًا نــــأَتْ وأحسبتــه فقـدتُ ، متى أذكـر عهـودهم أَصْبُ

أما الجزء الثـانى فيتضمـن أشعارًا تحض على الغـربة ، وهنـا نجد أنفسنـا أمام معـان تتناقض مع البكاء على الأطلال ، والمنازل ، والديار ، يقول شاعر مجهول :

لأرْحَــلَنَّ المطَـــايا رِحْـلَةً عجَــبًا يَكـونُ أدنـى مـداهـا الصينُ أو عَـدَنُ

فـكُلُّ خِـــلٍّ إذا صـــافيتــه ســـكَنٌ وكـل أرْضٍ إذا أحــمـدتهـــا وطـــن

ثـم يخصص فصـولاً للمـدن ، والبلاد ، ويعـود مـرة أخـرى ليفرد قسمًا للـدار ، أى البيت ، وهذا أطـول فصول الكتاب ، ثم يفرد فصلاً للبيـت ، يذكر فيه قصة بنـاء سيدنا إبراهيم للكعبة ، ويذكر الآداب المتعلقة بدخول البيوت :

« وقد قيـل : إن وقعت العينُ على العينِ قبل الاستـئذان ، فالأولى تقديـمُ السلام على الاستـئذانِ ، وإن لم تقـع العينُ على العين قبـل الإذن . فـالأولى تقـديـم الاستـئذان على السلام . . » .

ويختتم الكتاب بذكر ما قيل فى بكاء الأهـل والإخوان ، يقول الأمير أسامة بن منقذ إن هذا الفصـل كان موضعـه فى مقدمة الكتـاب ، لكنه أخَّره ليختـم به كتابـه ، ويكاد المرء

يشعر بانحنـائه ، وشجوه ، وحزنه ، إذ كان يخط الأبيـات التالية ، من شعـره هو ، وهو يوشك على اختتام واحد ، من أرق ، وأجمل ، كتب التراث العربى ، وأغزرها إنسانية .

يقول الأمير :

نافستنى صـُروفُ دَهْرِى فـى الفَـوْ ... زِ بِبـرٍّ الآبـاءِ فـى الـرَّحَـمِ

لـو كُنَـتُ أستطيـع أن أزورهمـا ... مشـيًا علـى الـرأسِ لا علـى القـدم

بـادرت أمشـى إلـى ثـرى جَـدَثَىْ ... أعـزٍّ أهْلـى علـىّ كالقـلمِ

لكـنْ بمصـر قبـر وفى شـيزر قبـر ... ودارى بمنتـأى العجـم

والظـلمُ فـى الأرض مـا نِعِى كُـلُ ... مـا أبنيـه حتـى زيـارة الـرحـم

ومـا ظننـت الذى لقيـت مـن الـدُّ ... نيـا تـراه عينـاىَ فـى الحُـلُمِ

رحمه الله ورحم أهله أجمعين !

الـــذخـــائـــر والتـــحـــف

« الذخائر والتحف » للقاضى الرشيد بن الـزبير ـ القرن الخامس الهجرى ـ كتاب نادر وفريد ، كثيرًا ما وقعت عيناى على اسمه أثنـاء معايشتى لخطط المقريزى الشهيرة ، إذ ذكره عدة مرات ، ثم اكتشفـت منذ عدة سنوات أن هذا الكتاب حقق وطبـع فى الكويت عام ١٩٥٩ ، وصـدر كـأول مطبوع فى سلسلـة التراث العـربـى التـى كـانت تصـدرهـا دائرة المطبوعات والنشر ، للكتاب نسخة واحدة فقط فى العـالم . مخطوطة فى مكتبة بلدة «أفيون قرة حصـار » فى تركيا ، مؤلفـه القاضى الـرشيد أبو الحسين أحمد بـن الرشيد بن القـاضى الزبير ، لا توجد ترجمة له فى المصادر التاريخية المتداولة ، ولكن من خلال نصوص عديدة فى الكتاب نفسـه نجد بعـض المعلومات عنـه ، ومنها يمكـن الاستدلال على أنـه كان فى خدمة أبى كا ليجار . وعندما انتهت الدولة البويهية هاجر وأقام بمصر ، وعمل فى خدمة الفاطميين ، والمؤلـف يجمع فى هـذا الكتاب حكـايات وأخبـارا عن هـدايا الملـوك وكبار الأمـراء، الـولائم المشهـورة ، الإعـذارات ، الأيـــام المشهـودة والاجتماعـات ، الغـرائب الموجودات والـذخائر المصونـات ، الترك الموروثات ، المغـانم فى الفتوحـات . النفقات، حول هذه الموضوعات يورد المؤلف العديد من الحكايات التى تقترب فى بعض أجزائها من الفن القصصى ، ويصف فيها بعض التحف وصفًا دقيقًـا مما يجعل الكتاب مصدرًا هامًا للفنون الإسلامية ، إضـافة إلى تسليطه الضوء على جوانب اجتماعيـة لم تتعرض لها مصادر التاريخ الكبرى . كما أنـه يعرض أيضًا للعلاقات السيـاسية بين الشرق والغرب فى العصر القديم ، هكذا يبرز الكتـاب أحد الجوانب الفريدة لحضارتنا الإسـلامية . حقق الكتاب الدكتور محمد حميد الله ، وقدمه وراجعه الدكتور صلاح الدين المنجد .

الهدايــا

الباب الأول خصص للهدايا ، ويضم ستا ومائة حكاية قصيرة ، من الهدايا فى العصر الإسلامـى يذكر أولاً هـدية جريـج بن مينـا ـ المقوقـس ـ عامـل قيصر الروم على مصر إلى

الرسول صلى الله عليه وسلم ، بعد أن راسله يدعوه إلى الإسلام . عاد الرسول وكان حاطب بن أبى بلتعة الضبى إلى النبى بجواب الرسالة ومعه رسول من قبل المقوقس ، ومعه هدية بينها أربع جوار ، منهن جاريتان أختان هما مارية وسيرين ، وكان لهما شأن عظيم فى القبط ، جميلتان جدًا ، وخصى مجبوب لخدمتهما . وبغلة شهباء ، سماها الرسول الكريم « دلدل » . وماتت فى خلافة معاوية . وحمار سماه عليه السلام « يعفور » ، وفرس ، وألف مثقال ذهب وعشرون ثوبًا من قباطى مصر ، وعسل من بنها .

يقول المؤلف إنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يرد هدية أحد ، ويكافئ عليها . وتزوج مارية . ووهب أختها سرية لحسّان بن ثابت ، ووهب الثالثة لمحمد بن مسلمة الأنصارى ، والرابعة لجهم بن قيس العدوى ، وتصدق بالمال ، وأعجبه العسل فدعا لعسل بنها بالبركة ، وعندما كتب ملك الصين إلى معاوية بن أبى سفيان يطلب منه إرسال من يشرح له الإسلام ، بعث إليه بهدية عبارة عن كتاب يتضمن بعضًا من أسرار العلوم ، يقول المؤلف إنه انتهى إلى خالد بن يزيد بن معاوية . وكان يعمل منه الأعمال العظيمة من الصنعة وغيرها .

ومن غرائب الهدايا قضيب الزمرد الذى أهداه أحد ملوك الهند إلى الرشيد ، كان أطول من الذراع . وعلى رأسه تمثال طائر من ياقوت أحمر ، لا قدر له من النفاسة ، فوهبه لأم جعفر زبيدة زوجته ، وانتقل منها إلى الأمين بالله ، ثم إلى أخيه المأمون ، ثم صار إلى المعتصم بالله بعدهما ، وجلس المعتصم بالله يومًا ، فشرب ، وعنده ندماؤه فطرح إليهم قضيب زمرد كان بيده . وسأل عما إذا كان أحدهم يعرف هذا القضيب ؟ فلم يعرفه أحد منهم . حتى صار إلى عبد الله بن محمد المخلوع فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، هذا قضيب أهداه ملك الهند إلى الرشيد . وكان على رأسه طائر ياقوت أحمر قيمته مائة ألف دينار ، ولست أراه ، فأمر المعتصم بطلبه ، وتوعد المسئولين عن الخزانة بالقتل إذا لم يحضروه من ساعته . فجاءوا به وركّب على القضيب .

وفى عصر المأمون أهداه أبو دُلف بن عيسى مائة حمل زعفران ، على مائة حمار . فوصلت الهدية وكان المأمون عند حديمه ، وأحب أن ينظر إليها على حالها . لكنه فى نفس الوقت كره أن يكون بين الحمير شىء لا يصح للنساء أن ينظرن إليه ، فسأل : أهى أُتُنٌ (إناث) أم ذكور ؟ . فقيل له إن الحمير كلها إناث مرباة ، فسرَّ لذلك وقال ، علمت أن الرجل أعقل من أن يوجه إليه حميرًا غير إناث . وهو عند حريمه !

قطر النـدى

ويذكر المؤلف تفاصيل هدية قطر النـدى أشهر عروس فى التاريخ العربى ، إذ أهدت إلى الخليفة العباسى المعتضد بالله سنة ٢٠٢ هجرية ، هدية ضمت عشرين صينية ذهبًا ، فى عشر منها علب عنبر زنتها أربعة وثلاثـون رطلاً ، وفى العشر الأخرى علب ندّ معجون وزنها أيضًا أربعة وثلاثون رطلاً ، وعشريـن صينية فضة بها صندل ، وزعفران ، وعشرين صينية من الذهـب مغلفة بالزجاج ، بها مسك وزنه أكثر مـن ثلاثين رطلاً ، وخمس خلع وَشْيا قيمتها خمسة آلاف دينار .

وإلى المعتضد بالله أيضًا جـاءته هدية من عمر بن الليث ، فيهـا تمثال أصفر على مثال امرأة لها أربع أيد . عليها وشاحان مرصعـان بالجوهر ، ومعها أصنام صغار لها أيد ووجوه عليها جواهـر . كان أصحاب عمر قـد ظفروا بها من بعض المدن البعيـدة فى البحر. وقد عرضت الهدية ببغداد أيامًا ليراها الناس ، وسميت (شغلاً) لاشتغال الناس بها .

بين المكتفـى وبرتـا

وكان للهدايا موضع متميز فى العلاقات بين الدول ، بل إنها الفرصة المتاحة لكى يظهر كل ذى سلطان مقدار تقدم أمته ، ونبوغها فى العلم ، يقول المؤلف ما نصه :

« وأهدت برتـابنت الاوتارى (برتـا فيليا لو تارى حفيـدة شارلمان ملك فرنسـا) ملكة الإفرنجة ومن والاها إلى المكتفى بالله ، مع علىّ الخادم ، أحد خدم زيادة الله بن الأغلب ، سنة ثـلاث وتسعين ومائتين ، خمسين سيفـا ، وخمسين ترسـا ، وخمسين رمحًا الأفرنجيـة ، وعشرين ثوبـًا منسوجة بالـذهب ، وعشرين خادمًـا صقليًا ، وعشرين جاريـة صقلية ، حسانـا لطافًـا ، وعشرة أكلُب كبـارًا ، لا يطيقها السبـع ولا غيره ، وسبعه بـزاة ، وسبعة صقور ، ومضرب حرير بجميـع آلته ، وعشرين ثوبًا معمولة مـن صوف يكون فى صدف يخرج من قصر البحر هناك ، يتلوّن بجميع الألوان كقوس قـزح . يتلون لونًا فى كل ساعة من ساعـات النهار ، وثلاثة أطيـار تكون ببلاد الفرنجـة ، إذا نظرت إلى الطعام والشراب المسموم صـاحت صياحًـا منكرًا ، وصفقت بأجنحتهـا حتى يُعلم ذلـك . وخرزًا تجذب النصول والأزجة بعد بناء اللحم عليها بغير وجع » .

ثم يورد المؤلف نص الرسالة التى بعثـت بها برتا إلى المكتفى تطلب الزواج منه ومودته ، ونص الـرد الذى أرسلـه الخليفة ، والـرسالتان نمـوذجان لكتـابات الملـوك فى هذا الـزمن

البعيد. وللعلاقـات بين القوى الدوليـة أيضًا . طبعًا الخليفـة رفض الزواج وقـد أورد ابن النديـم فى كتـابه (الفهرست) قصة هذه المراسلـة ، أما مؤلف الكتاب الـذى نعرض له ، فقد ذكرها نقلا عن سيرة المكتفى بالله لعبيـد الله بن أحمد الطاهر ، وكتاب آخر لم يسمه ، ويرجح المحقق الدكتور محمد حميد الله . أنه اطلع على نص الرسالتين فى ديوان الرسائل ، عندما كان يعمل فى خدمة أبى كاليجار ، فقد أورد تفاصيل أكثر من المصادر الأخرى .

والمؤلف لا ينقـل فقط ، إنما كـان شاهد عيـان أيضًا ، فقـد رأى بنفسه بعـض الهدايا يقول :

« وأهدى ميخائيـل ملك الروم أيضًا إلى المستنصر بالله فى وزارة الحسن بـن عبد الرحمن اليازورى فى سنـة أربع وأربعين وأربعمائة . مـع رسول له ورد فى البحـر إلى تنّيس . هـدايا جليلة ، شاهدت جميعها بتنيس . من جملتها غلمان أتراك متقاربو الأعمار .

وجوار تركيات . وحجـل بيض . وطواويس بيض ، وكراكـى بيض . . الخ » وينقل عن مصادر أطلعته مباشرة فيقول :

« وأخبرنى فيما تقدّم أن ميخـائيل متملك الروم أهدى إلى السيـدة والدة المستنصر بالله خمسة دسـوت حليا . مجرى بـزجاج من أربعـة ألوان أحمر قان ، وأبيـض ناصـع . وأسود حالك ، وأزرق صاف .

ويقول :

« وأخبرنى من أثق به من وزراء المستنصر بـالله فى سنة إحدى وستين وأربعمائه مايقارب ذلك أنه وُجد فى بعض خزائن القصر ، فى جملة مـا أخرج منها ليباع فى أعطيات الرجال ، قفصٌ مقفل . وأنه فتح بين يديه فوجد فيـه أربعة سروج ، أحدها معمول بديباج أسود . ودفتاه وركـاباه مـن ذهب مصبـوب ، مرصع جميعـه بقطع مـن اليشب الأبيـض ، المليح الجوهر ، وسيوره من جلـودٍ سود ناعمة كالحرير ، ولجامه جميعه مكـان الحديد منه ذهب مرصّع باليشب أيضًا ، وسيوره سودانية كأحسن ما يكون ، وعليه رقعة مكتوب فيها بخط المعز لدين الله :

« أهدى متملك الـروم إلينا هذا السرج واللجام بعـد دخولنا إلى مصر ، وذكر أنـه من جملة ستة سروج كانت لذى القرنين ، انتقلـت منه إلى خزائنهم ، وأنه بقّاه ، ولم يحدث فيه حادثة ، وطالع به » .

وترتبط بعض الهدايا بخصائص علاجية ، فيـذكر المؤلف أن المستنصر بالله تلقى هدية

عبارة عن حجر أبيض معمول كالخرزة . إذا شُدّ ليلاً على سرة صاحب الاستسقاء المائى وذلك إلى الصباح وجُعل فى الشمس . قطرت منه قطرات ماء إلى أن يفرغ تمامًا . ويكرر ذلك حتى يشفى المريض ، ويعرف هذا الحجر باسم حجر الماء ، وقد ورد ذكره فى كتاب الأحجار لارسطا طاليس .

ويورد خبرًا عن أحد الباحثين عن الكنوز . أنه عثر فى كنيسة سرقوسة القديمة على حق من نحاس كل من يمسكه يصاب بالإنعاظ طالما بقى فى يده .

الولائم والدعوات

يفرد المؤلف بابا لأخبار الدعوات والولائم المشهورة . يذكر نقلاً عن ابن عُفَيْر أن عبد العزيز بن مروان خرج إلى الإسكندرية فى سنة أربع وسبعين فاعترضه صاحب بلدة « بلهيب » ، فطلب إليه أن ينزل عنده ، فقال له عبد العزيز : ويحك إن معى جماعة ، فأصرّ ، ولبى عبد العزيز الدعوة ، وكان معه ألف من خواصه ، مع كل رجل منهم اثنان وثلاثة ، فأقاموا عنده ثلاثة أيام يقدم إليهم الأطعمة والطرائف فى كل يوم ثلاث مرات . وعندما عزم عبد العزيز على المسير ، جاء أربعة يحملون قفة عظيمة تسع ثلاثة أرادب ، فلما كشف عنها عبد العزيز وجدها مملوءة دنانير فأبى أن يقبلها . بلغ ذلك أم صاحب بلهيب . وكانت عجوزًا ضعيفة كبيرة ، فأقبلت عليه ، وقالت ، ما أدرى أيها الأمير اجئتنا لتسرنا أم جئت لتشمت بنا عدونا ؟ . فقال عبد العزيز : إنما جئت لأسركم . فتساءلت : لماذا ترد هديتنا علينا ؟ . وقبل عبد العزيز الهدية وقسمها على رجاله .

ويورد المؤلف نصًا حدثه به من يثق به :

« حدثنى من أثق به . عن ابن مهنّا ، أحد عمال الريف ، قال : رُدَّ النظرُ إلىّ فى الضياع الجوانيّة . من كورة دَمْيس ، فى أيام المستنصر بالله . فنزلت يومًا الضيعة المعروفة بطاء النمل ، فرأيت فيها آثار بناء قديم كأحكم ما يكون من الابنية وأتقنها ، فسألتُ ما روت الضيعة عنه ، ولمن كان ، فقال لى : أنا آتيك بمن يعرفك به وبأربابه . فجاءنى بشيخ من القبط ، قد جاوز المائة سنة بعدة سنين ، صحيح العقل والحديث ، فسألته عن البناء فقال : قال لى أبى ، وعمره قريب من عمرى ، وقد سألته عن هذه الآثار وهى أبين مما رأيت وأجدّ . « لمن كان هذا البناء ؟ » فقال « لما روت من القبط ، عاملته وشاهدته ، وكان ذا يسار ، وقدر ، وهمة عالية . من أهل هذه الضيعة ، وله والدة تضاهيه فى القدرة والمروءة ، تدعى مارية . ولقد رأيتها أيّام ورد المأمونُ إلى مصر فى سنة ثمانى عشرة ومائتين ،

وانحدر إلى بلد اليحموم ، وكان يبنى له فى كل ضيعـة دكة ويجعل عليها ترسية(؟) . فإذا ورد الضيعة جلس فى التركية ، ونزل العسكر والقواد والوجوه بجوانبها وقد تمنَّى له الا ينزل فى طاء النمل .

واتصل الخبر بهاريـة المذكورة . فخرجت إليـه ، وتوصلت إلى خطابـه ، وكان بحضرة المأمون تراجمة يعـرفون الرومية ، والقبطيـة والنبطية وسائر اللغات ، لا يفـارقون عسكره فى كل أسفاره ، فسمع الترجمان ما قالت ، فقال :

« تقول يا أمير المؤمنين إنـك قد نزلت فى كل مكـان بنيتُ لك فيه دكـة . ومتى لم تنزل عندنا ، بقيتْ وصمة ذلك علينا وعلى ولْدنا من بعدنا ما بقى الزمان » .

فاستحسن كلامها ، ، وأعجبه عقلها . وعدل برأس دابته إلى التركية فنزل فيها ، ونزل جميـع العسكر حـوله ، ورجعـت إلى ولدهـا فأخبرتـه بما جرى بينهما وبين المأمـون ، فسُر بذلك، وأحضر إليه وكلاء مطبخ المأمون وطباخيه ، وسألهم عن قوانين مطبخه فى كل يوم من الحيـوان والدجاج والجداء والخراف والفـراريج والأوز . وما يحتـاج إليه من التـوابل ، ورسمـه فى الحلاوات والطيب والشمـع ، وسائر مـا جـرت به عـادته مـن صغير وكبير ، واستدعـى كتاب جيـش العسكر وقـرر معهم ما يحتـاج إليه الـرجال مـن الوطـاء والأبقار والتعليف . . » .

بالغت المرأة وابنها فى إكرام المأمون وجيشه ، وعندما استعد الخليفة للرحيل ، أحضرت المرأة عشر صوانٍ مغطاة ، فلما كشفت بين يديه ، وجد فى كل صينية بها ألف دينار جميعها من نقد واحد . فسأل المأمون عما إذا كانت قد عثرت على كنز فضحكت . وقالت بعد أن أخذت بيدهـا قطعة طين : قل لأمير المؤمنين هذا من الطين . ومن عـدلك ! . «أعجب الخليفة بجوابها ، فكتـب لها إقطاعًا قيمته مائتـا فدان ، فقبلت ذلك وزرعتهـا ، وأقامت قنطرة عرفت باسمها .

أما أشهر الـدعوات فى الإسلام فثلاث ، منها دعـوة أقامها المعتز ، وعـرس زبيدة مع الرشيد ، وعرس المأمون ببوران .

الأيـام المشهـودة والأوقـات المعهـودة

فى هذا الباب يقدم المؤلف وصفًا لمظاهـر احتفالات مختلفة فمن الأيام المشهودة يوم أن وصـل رسولا ملـك الروم إلى الخليفـة المقتـدر بالله فى سنـة خمس وثلثمائة لطلب الفـداء ، اصطف الجيش كلـه من مكان نزولهما إلى القصر . كانـت فرصة لاستعراض قـوة الدولة ،

فهذان الـرسولان سيعودان ليخبرا بما شـاهداه ، ويـورد المؤلف وصفًا دقيقًـا يستغرق عشر صفحات لما تـم عرضـه ، مثل ذلـك ما حـدث مع رسـل ملك الصين عنـد وصولهم إلى فرغانة ، وبعد العرض المذهل الذى شاهـدوه ، منحوا هدايا ثمينة جدًا ، وعند انصرافهم لاحظوا أنهما بدون خفير يخفرهم ، فقيل لهم :

ـ فى ولاية الأمير السيد لا يُحتاج إلى خفير .

فتساءلوا .

ـ أننصرف إذن ؟

قيل لهم

ـ ذلك إليكم . . إن جلستم أبدا . فهذه الجرايـة لكم ، وإن خرجتم حيثما نزلتم يُقام بنزلكم إلى أن تخرجوا من ولاية الإسلام .

فخرجوا ومعهم العدد الموكل بهم ، حتى خرجوا مـن فرغانة ، فكان هذا سبب إسلام ملك الصين .

* * *

وفى معرض ذكره للتحف النادرة ، يذكـر المؤلف « الدرة اليتيمة » ، ويقول إنها سميت باليتيمة لأنها لم يوجد لها أخت فى الدنيا ولا قرينة ، وكانت قد بيعت إلى هارون الرشيد .

أمـا « الفص الحافـر » فكان مـن ياقـوت أحمر ، وزنه سبعـة دراهم . وقـد انتقل مـن العباسيين إلى الفاطميين . ثم يذكر أشهر الثروات التى تركها أصحابها بعد موتهم . ويفرد بابـا للمغانم فى الفتوحـات ، وبابا آخر لـذكر الكنوز والـدفائن القديمة ، وفى كـل باب تطـالعنا تفـاصيل دقيقـة لذكـر الثـروات ، والتحف التـى صيغت مـن أنفس المعـادن ، وأوصافهـا العجيبة ، ويبقى تسـاؤل يثيره هذا الوصـف الذى يفصلنـا عن صاحبـه ألف سنة .

« أين هى الدرة اليتيمة الآن » ؟

أين أثواب ملوك الروم . والتى كان الواحد منهـا مرصعًا بثلاثين ألفـ لؤلؤة ، أين . . أين ؟

لا يمكن الإجابة على هذا السؤال ، إلا بذكر قوله الكريم :

« كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » .



الأنيــق فى المنجنيـــق

فن رمى الحجارة فى التراث الحربى العربى سقى السيوف بدماء الدجاج والزرنيخ ، ورمى الأعداء بالحيات

من ؟

من هو ؟

هل اسمه « ابن أرنبغا الزرد كاش » ؟ أو اسنبغا الزرد كاش ؟ من هو مؤلف هذا المخطوط النادر ، الذى وصل إلى عصرنا ، ويستقر الآن فى مكتبة أحمد الثالث باستامبول؟

الدكتور إحسان الهندى محقق المخطوط الذى نشر فى حلب منذ ثلاثة أعوام ، لم يقطع ، وإنما رجّح ، فالمصادر المعاصرة مثل « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » لابن تغرى بردى ، و « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » للسخاوى ، و « السلوك» للمقريزى ، لا تمدنا بمعلومات وافية عن المؤلف الذى طمس اسمه من عنوان المخطوط ، وبقى لنا اسم والده « أرنبغا الزرد كاش » . و « أرنبغا » اسم يطالعنا كثيرًا فى المصادر المملوكية ، « بغا » تعنى الفحل ، أما الزَّرْد كاش فهو اسم مركب أعجمى الأصل ، ومعناه صانع الزرد .

على أى حال . .

وصلنا مؤلف أرنبغا العلمى ، والذى يبرز لنا الفن الحربى العربى ، وأصوله الهندسية ، وما كتبه أرنبغا فى بداية القرن التاسع الهجرى محصلة موروث علمى خاص بالعرب ، كان المنجنيق بمثابة المدفع فى الجيوش القديمة ، كان يقذف بالحجارة الثقيلة ، وبرميل النفط ، وسلال العقارب والثعابين ، المخطوط قصير ، ولكنه مزود بلوحات تفصيلية ، هندسية عديدة ، وقبل الخوض فى علم رمى الحجارة بالمنجنيق ، نطالع المقدمة التى صيغت من عبق الزمن القديم .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

وبــه توفيــقى

الحمد لله مـدبر الوجـود ، ومؤيد الجنـود ، بارى النسـم ومودعهم أسرار الحكـم ، مبدع الموجودات بحكمتـه ومتقنها ببـديع صنعتـه ، الواحـد القهار ، العـزيز الجبـار ، ذى البأس الشديد الفعال لما يريد . .

والصلوة [الصلاة] على سيـدنا محمد الذى بعثـه الله وجيش الكفر منشور بـالعصايب ، وغسقه محلـولك الغياهب . فشمّـر عن ساق اجتهـاده . وجاهد فى سبيل الله حـق جهاده ، حتى أشرق بدر الإسلام ، وانجلت غياهب ذلك الظلام ، وسطعت أنوار الإيمان ، وثبتت منه القواعد والأركـان ، وعلى أصحابه وأهل بيته الأطهـار ، وجميع المهاجريـن والأنصار ، ما لاح ضوء الصباح ولمع برق سلاح .

. . افتتاحية تدل على حرفة صاحبها العسكرية ، وتومئ مشيرة إلى موضوع المؤلف ، وتقليد الافتتاحية هـذا تخلت عنه الكتابـات العربية الحديثة ، مع أنـه من تقاليد النثـر العربى ، وفى معـايشتى للتراث لا أذكـر أننـى طالعـت افتتاحيـة تشبـه الأخرى ، لا فى المفـردات ، ولا فى الصياغة ، مع أن المضمون متقارب ، أو يكاد يكون واحدًا التسلّيم لله ، والصلاة على رسوله . تتفاوت كل منها فى القصر أو الطول ، بضعة سطور كما نجد عند صاحبنا هذا ، أو صفحات عـديدة كما نلقـى عند الشيـخ الأكبر محيـى الديـن بـن عربـى فى «فتوحـاتـه المكية » ، هـذه الافتتاحيات أشبهها بالمداخل المؤدية فى العمارة الإسلامية ، مبانى مدنية كانت ، أو مساجد ، أو منشآت دينية كالخوانق والأسبلة ، والأضرحة .

لن ننأى عن النص الذى نعرض له ، فـالموضوع طويل ، وما يقال كثير ولكن قبل الخوض فى النص لنرجع إلى مقدمة المحقق ، فلقد نسى عصرنا المنجنيق وصار أثرًا ممحوا . بعد أن كان واقعًا يثير الرهبة . وهذا حكم الأشياء . .

* * *

العـــروس

يدلل الدكتور إحسان الهندى على الأصل العـربى للمنجنيق ، ويؤكد أن العرب عرفوا هذا السلاح من العصر الجاهلى . فهناك أكثر من مصدر تاريخى يؤكد أن جزيمة الأبرش ، مؤسس دولة التنوخيين (١٣٨ ـ ٢٦٨م) كان أول من استخدم المنجنيق من العرب قبل الإسلام ، كما تؤكد دراسة حديثة للدكتور صلاح العبيدى أن عرب العراق عرفوا هذا السلاح منذ القدم .

كما ورد فى تاريخ الطبرى أن عروة بن مسعود ، وغيلان بن سلمة لم يشهدا مع الرسول وقعة

حنين لأنهما كانا يتعلمان صناعة الدبابات والمنجانيق فى بلدة « جرش » . وهذا يدل على أن العرب الغساسنة الذين كانوا يقطنون فى هذه المدينة وما جاورها منذ عهود ما قبل الإسلام . قد عرفوا هذا السلاح وبرعوا فى استخدامه . كما ذكر صاحب «البداية والنهاية » أن المسلمين استخدموا المنجنيق لأول مرة فى حصار الطائف ، أما الخليفة عمر بن الخطاب فقد عنى أفضل عناية باستخدام المنجنيق حتى أصبح لدى جيش المسلمين الذى فتح بلاد فارس عشرون منها استخدمها فى فتح مدينة بهرسير (المدائن) . وطبقًا لرواية الواقدى نجد أن جيش ابن الوليد استخدم السلاح نفسه ، وفى العصر الأموى اهتم الخلفاء بتطويره ، وعندما حاصر الحجاج الثقفى عبد الله بن الزبير مكة ، قام بنصب منجنيق ضخم على جبل قبيس ، وينسب إليه أيضًا أنه أمر بصناعة منجنيق ضخم يحتاج إلى خمسمائة رجل لتحريكه وكان يسمى «العروس » ، ويقال إنه سلمه إلى محمد بن القاسم الثقفى لما وجّهه لفتح السند ، واستخدمه أيضًا فى فتح مدينة الدَيْبُل (كراتشى حاليًا) وغير ها من مدن السند سنة ٨٩ هـ ، ويقال إن كبير الرماة الموكل بالرمى على العروس ، كان اسمه « جؤبة » وأنه لمهارته كان يرمى على صارية علم بقطعة الحجر فيمزقها فى الرمية الثالثة على الأكثر .

مع بداية القرن الثانى الهجرى أصبح المنجنيق شائعًا خاصة فى حصار المدن ، ويروى ابن الأثير أن مروان بن محمد حاصر سعيد بن هشام وأنصاره فى مدينة حمص لمدة عشرة أشهر ، ليلاً ونهارًا ، ونصب عليهم نيفًا وثمانين منجنيقًا . وقد نقل معهم أمويو الأندلس هذا السلاح إلى هناك . فى هذه الفترة شاع استخدام المنجنيق عند العرب ، وبدأ يظهر فى الشعر .

يقول جرير :

يلقى الزلازل أقوام دلفت لهم ... بالمنجنيق وصكًا بالملاطيس

والملاطيس هى الحجارة التى يرميها المنجنيق .

فى جيوش العباسيين أصبح سلاحًا رئيسيًا . وأصبح له صنف خاص ، هو «المهندسين » يرأسه قائد يلقب بالمنجنيقى ، وخلال الفتنة بين الأمين والمأمون عام ١٩٧ هـ (٨١٣ م) استخدم المنجنيق بكثرة .

فى العصر المملوكى ، جرى اهتمام عام بالصناعة الحربية ، وبالمنجنيق خاصة ، كان هذا يتم فى خزائن السلاح المسماة « الزردْ دخاناه » يصفها المؤرخ ابن تغرى بردى بقوله :

« وكانت تحوى أشياء كثيرة محملة على العجل . تجرها الأبقار ، وعليها آلات الحصاد ، ومن مكاحل النفط الكبار ، ومدافع النفط المهولة والمناجيق العظيمة ، ونحو ذلك . . » .

ويصف لنا أبو الفداء فى « المختصر فى تاريخ البشر » المنجنيق الذى استخدمه المسلمون فى حصار الصليبيين فى عكا ـ ٦٦٠ هـ (١٢٦١م) يقول :

« أمر السلطان الملك الأشرف بجر المنجانيق وآلات الحصار من جميع الحصون إليها ، فاجتمع على عكا من المنجانيق الكبار والصغار ما لم يجتمع على غيرها » .

أما المؤرخ ابن تغرى بردى فيصف حصار قلعة صلخد ٨١٢ هـ .

« ثم طلب السلطان مكاحل النفط والمدافع من قلعة الصبيبة وصفد ودمشق ونصبها حول القلعة ، وكان فيها ما يرمى بحجر زنته ستون رطلاً شاميًا ، وتمادى الحصار ليلاً ونهارًا حتى قدم المنجنيق من دمشق على مائتى جمل ، فلما تكامل نصبه ، لم يبق إلا أن يرمى بحجره ، وزنة حجره تسعون رطلاً بالدمشقى ـ يساوى ٢٥٠٠ جرام ـ

وقبل الانتقال مع مقدمة المحقق إلى أنواع المنجانيق ، نعود إلى مخطوط ابن أرنبغا الزرد كاش .

* * *

منكلى بغا

. . من تقاليد المؤلفات القديمة ، أن يهدى المؤلف كتابه إلى صاحب له ، أو إلى سلطان . أو أمير ، له به وثيق صلة ، أو تلقى منه منة ، نجد هذا فى معظم المؤلفات العربية .

وغريب أننا لا نعرف على وجه الدقة اسم صاحبنا ، أو نحيط بحياته ولكننا نعرف شخصية من أهدى إليه كتابه ، لنصغ إلى النص :

« أتابك العساكر الإسلامية ، مؤيد الملة المحمدية ، هو المقر الأشرفى . السيفى ، شمس العلا منكلى بغا الشمسى . ما زالت الأقدار قاضية بهلاك أعدائه ، متكفلة بإسعاد أحبائه وأودائه ، ممن أخذ من كل فن بأوفر نصيب ، وأضحى كل بعيد المتناول وهو منه قريب ، وجمع بين فضيلتى الحُكْم والحِكَم ، والسيف والقلم ، ورأيت أعظم مساعيه ، وأكثر دواعيه إلى إمعان النظر فيما يحفظ نظام الممالك ، وتنجلى به الخطوب ، الحوالك ، من أنواع جيد الحروب ورمى أعداء الدين بمصميات الخطوب والتوصل إلى أخذ معاقلهم ، والحصون ، وزلزلة أركانهم ، وهتك سرهم المصون » .

والأمير منكلى بغا الذى أهدى إليه المؤلف كتابه ، فهو أتابك العساكر الإسلامية ، منكلى بغا ، الصالحى ، الظاهر برقوق ، ويعرف بالعجمى ، صيره الناصر ابن أستاذه ، وأرسله رسولاً إلى تيمور لنك سنة خمس وثمانمائة (هجرية) ، ثم رجع وتولى الحسبة فى زمن السلطان المؤيد شيخ ، تزوج من الأميرة خوند فاطمة ابنة الملك أشرف شعبان ، ثم أصبح أتابك ـ قائد

ـ للجيوش عام ٨٣٠ هجرية ، ومات عام ٨٣٦ هجرية ، وهذا يعنى أن ابن ارنبغا الزرد كاش قد وضع مؤلفه قبل عام ٨٣٠ هجرية .

بعد أن يفرغ المؤلف من الإهداء ، يذكر مضمون الكتاب ، فيقول إنه وضعه فى أنواع المنجانيق ، والزيارات (نوع من منجانيق السهام ـ والسلالم التى تستخدم فى حصار القلاع ، والزحافات التى يجلس فيها المحاربون بينما يقوم رفاقهم بدحرجتها باتجاه أسوار القلعة المحاصرة ، والجسور التى تمد لعبور الموانع المائية ، ورمى المكاحل (المدافع) . والقوارير المعبأة بالنفط .

« وما شاكل ذلك من مخترعات التدابير ، وجعلته كتابًا ورتبته فصولاً وأبوابًا ، وخدمت به الحضرة العالية ، ما زالت سعودها متوالية ، ولست فى ذلك إلا كما قيل . .

كالبحر تمطره السحاب وما له فضل عليه لأنه من مائه

ثم ينتقل ابن ارنبغا إلى وصف المنجنيق ، وأسلوب الرمى به :

« . . إذا أردت أن ترمى بعيدًا فإنك تضع الحجر فى المنجنيق وترمى به إلى مطلوبك ، فإن أردت أبعد منه فإنك تدهن فى الثانية أصبع المنجنيق بالزيت ، [دهن أصبع المنجنيق بالزيت يجعل انزلاقه أسهل ويزيد بالتالى من مدى الرمى] ، فإن رميت به ، وبلغت ما تطلب ، وأردت أبعد من ذلك فإنك تضع بين حلقة سواعد المقلاع ، وبين الأصبع الحديد قطعة من المشاق (ما يبقى من الكتان بعد المشق) وترمى به ، فإن بلغت مقصودك فحسن ، وإن أردت أبعد منه فإنك تدخل فى أصبع المنجنيق كعكة من حبل وترمى به فإنك تبلغ مقصودك ، وإن أردت أبعد منه فإنك تضع فيه كعكة أخرى فإنك تبلغ الذى تطلبه إن شاء الله تعالى ، وإن أردت أبعد منه تضع كعكة أخرى ، تفعل ذلك ثلاث مرات فإنك تبلغ الذى تطلبه .

ويمضى ابن ارنبغا فى تفصيل طرق الرمى إلى مسافات أبعد ، والعالمون بالفن العسكرى الحديث ، سيجدون أن القواعد التى وصفها تماثل فى خطوطها العريضة نفس قواعد إطلاق الصواريخ الحديثة مع مراعاة التعقيد وفارق العلم والعصر ، ينطبق هذا على ما قاله أيضًا بخصوص الرمى عن قرب . .

« وإن أردت القرب ، فإنك تضع الحجر وترمى به إلى حيث تريد ، فإن أردت أقرب من ذلك فإنك تدهن ثلث أصبع المنجنيق وترمى به ، وإن أردت أقرب منه فإنك تدهن ثلثى الأصبع وترمى فإنك تبلغ المقصود .

وإن أردت أقرب من ذلك فادهن جميع الأصبع وترمى فإنك تبلغ ما تريد ، وإن أردت أقرب منه فإنك تشيل رأس المذريب (ينصح المؤلف هنا برفع المنجنيق إلى أعلى ، مما يزيد فى

انحناء زاويـة الرمى وهـذا مما ينقص المدى حسـب مبدأ الرمـى بالأسلحة المنحنيـة مثل الهاون حاليًا) . إلى فوق ذراع واحد فإن أردت أقرب منه فإنك تشيلـه ذراعا آخر وترمى فإنك تبلغ ما تريد ، وإن أردت أقرب من ذلك فإنك توسـع المزريب وترمى به ، وإن أردت أقرب من ذلك فإنـك تنزع جسر الدولاب وتـرمى به فـإنك تبلغ المقصـود ، وإن أردت أقرب منه فـإنك تغير الساعد بـأغلظ منه وأن أردت أقرب منه فـإنك تزيد الحجر رطـلاً واحدًا وترمى به فـإنك تبلغ المقصود إن شاء الله تعالى . . » .

ويمضى ابـن ارنبغا فى شرح وسائل تقـريب الـرمى ، والضرب على مسافـات قليلة ، ولا يفوته التأكيد بعد شرح كل خطوة أن تنفيذ ما قاله يبلغ صاحبه المقصود بإذن الله تعالى .

وفى نهاية شرحه يقول .

« وهذا الذى ذكرناه تمام العمل بالمنجنيق الذى يسمى قرا بغرى . . » .

وقرا بغرى ، نـوع خاص من المنجنيق ، خاص بـرمى الحجارة ، ويعمل طبقًـا لمبدأ الثقل المعاكس ، وهو النوع الذى ركز عليه ابن ارنبغـا فى بحثه . سواء فيما يتعلق بالنص ، أو الرسوم التفصيلية ، ولا يفوته أن يشرح تركيبه فى نهاية القسـم الأول من المخـطوط . .

« ولابد من ذكـر وضع هذا المنجنيق فنقول كيفيـة وضعه (تركيبه) ، حتى يصير الـرامى به مستأنسًا فتـذكر ما يحتاج إليه مـن الأخشاب ، وهى ثمان وعشرون قطعة من الخشـب وفيها ما يزيـد وما ينقص ، فـإذا أردت وضعه فتنظر إلى مـا قد وصفتـه من الأخشاب فى هـذا الكتاب فتعمـل أمثالها وأعـدادها والصنـدوق المرسوم فيـه فلا تخرج عـن عمله وانظـر أيضًا إلى طـول النشاب وما هـو عليه ، فاعمل هيئته وسفلـه وأعلاه وبخوش (ثقوب) الخنـزيرات (الجزء من الدولاب الذى يدخل فيه عمود السهـم) وغير ذلك من الأعمال ، ثم جمع المنجنيق وما يحتاج إليه . . » .

وهنا نعود إلى دراسة الدكتور سامى الدهان لنقف منها على أنواع المنجنيق .

* * *

من الحجـر إلى الثعـابين

المنجانيق بشكـل عام عبارة عن عدد من القـوائم الخشبية ، تتصل أعلاها بعارضـة يركب عليها عمـود خشبى طويـل يقال له « السهـم » ، يكون قصيرًا من جهـة ، وطويلاً مـن جهة أخرى ، ويحمل هذا السهم من جهته القصيرة ثقـلاً معاكسًا يسمى «الصندوق» إذا كان كتلة واحدة و « القواعـد » إذا كان جملة أثقال ، كما يحمل مـن جهته الطويلة «الكفـة » التى تحمل المقذوف سـواء كان هذا الأخير حجرًا أو بـرميل نفط ، ويتصـل «السهم » من جهته الطـويلة

بحبل من الشعـر يسمى « ذيّار » ، يمكن شده بـواسطة «دولاب » ، كان يطلق عليـه أحياناً اسم القوس لأنه كان يتصل بقوس يزيد انحناء كلما دار الدولاب فى حالة الشد .

كـانت المنجـانيق أنـواعًا ، فمنهـا ، مجانيق قـذف الحجارة ، وهـى أشد الآلات الحربيـة القديمة تأثيرًا ، لا سيما فى الحصار ، ويتم الرمى عـن طريق وضع قطعة الحجر فى الكفة التى يحملها السهـم ، وكلما زاد اتساع الكفة كلما أمكن رمى قطع أكبر من الحجارة .

أما مجانيـق قذف السهام ، وتسمى أيضًـا بقسى الزيـار ، فكانت عبارة عـن أقواس كبيرة ترمى سهـامًا هائلة الحجم يتراوح طـولها بين ٦٠ و ١٨٠ سم ، وتزن من اثنين إلى ثـلاثة كيلو جرامات ، ويصف ابن خلدون فى تاريخه قوسًا ضخماً من قسى الزيار ، صنع عام ١٣٩٨ م ، ويقول إنـه كان يلزمـه أحد عشر بغلاً لنقله ، كـانت هناك أيضًـا مجانيق قذف النفـط وكرات اللهب ، والقنـابل ، وكـانت أنواعًـا منها قنـابل النحاس ، والـزجاج ، والغـازات ، وتلك الأخيرة عرف منها العرب أنـواعًا ، فكانت منها القنابل المضيئة ، وكـانوا يصنعونها على شكل كرات من الكبريت الأسود ، والصمغ والزرنيخ ، وكانوا إذا رموا هذه الكرات بعد إشعال النار فيها تبقى مشتعلة ، سواء أثناء إطلاقها أو بعد سقوطها ولا ينفع الماء فى إطفائها .

أما القنابل الخانقة فكانوا يصنعونها من الكبريت والزرنيخ والأفيون والبينج الأزرق، وكانوا يدخنونها على مهب الـريح حتى يفسد الهواء الذى يستنشقه جنود العـدو، ابن ارنبغا يخصص قسماً لوصف تركيب هذه القنابل ، ويسمـى كلا منها قدرة، ويورد رسماً تفصيليًا لكل منها ، يصف خمسا وأربعين طريقة لصناعة هذه القنابل أو القدور بلغة عصره، منها على سبيل المثال « قدر مخاسفة مضرَّس » . وهذا نوع من القنابل التى تنفجر ذاتيًا . . يقول فى طريقة العمل :

« يـأخذ قـدر مـدور فخار ، يحط فيـه فتـاتيـش (فتاش أى سهـم نـارى » ، وصفاريـخ (صواريـخ) فى سفل كـل فتاش ضرس وهـو حدّ (أى حـارق) وفى سفل كـل فتاش ثـلاثة كواكب (أجهزة إشعال) وتملأ الصواريخ والفتـاتيش ، وتملأ معهم دواحد (كرات صغيرة من المعدن) وتختم رأس القدرة ، وتنزل فى رأس القدرة إكريخ عراقى (الأكريخ هو جهاز لإشعال القدرة) . . » .

طبعًا يبدو بوضوح صعوبة النص ، والمصطلحـات المستخدمة ، من هنا يبرز أيضًا مدى جهد المحقق فى تفسير معمياته ، وفيما يلى النص الخاص بتركيب قنابل الغازات .

« تأخذ ستين قنا ، وستين عنزروت (نبات يستخـرج منه صمغ) ، وستين شامبى (نبات غير معروف) وستين وشق (صمغ يعطى حرارة للمكان الـذى يلصق عليه يسميه عوام الشام ويشة) ، وستين حصـالبان ، وستين علك صنوبـر ، وستين حلتيت (أنواع مـن الصمغ) ،

وتحله ويطعم بالنفط ، وبالبياض (مستحضر سريع الاشتعال) وتخدم على الرخامة ، وينعلف بأربعين سندروس مخرمش ، وتأخذ حافر الفرس ، وتبرُدُه ويعمله ، وتأخذ من برادته ماية وخمسين ، وأفيون خمسة وعشرين ، ومن الزرنيخ خمسين ، ومن البنج الأزرق خمسين ، وتعلف الكل فى اللزاقات ، على الرخامات ، وتبيض القدر ، وتنزل الكل فى القدرة . . » .

أما قنبلة الجير فيصفها كما يلى :

« يأخذ قدرة مدورة ، ويحط فيه كلس مطفى ، ويسد رأس القدرة ويكسره فى الثقب . وأما فى الشوافى (فوهات المراقبة فى القلاع) يطلع غبار الكلس إلى مناخيرهم ، وإلى أعينهم ، ما يقشعون (لا يميزون) القتال ، فتنزل وتمسكهم قبض اليد (بدون مقاومة)» .

وأغرب ما يصفه قنبلة الحيات والثعابين :

« تأخذ القدر الفخار ، أكبر ما يكون ، وتحط فيها حيات (أفاعى) وأحماسها (نوع من الزواحف) ونواشيد (نوع من الأفاعى ذات الصلال) ، وتسقطها فى الثقوب فى المركب ، فأى من لسعته قتلته ، والله أعلم . . » .

كانوا يرمون قنابل الأفاعى والعقارب هذه على مراكب العدو ، أو القلاع المحاصرة ، والأماكن المحدودة المساحة ، فإذا قذفت وتهشمت خرجت الأفاعى ، والعقارب ، فتؤذى جنود العدو ، أو تثير فيهم الذعر ، وكان هذا الرمى ، لا يتم إلا على أهداف محاصرة ، أو سفن العدو فى عرض البحر ، فأى من لسعته قتلته والله أعلم .

* * *

القسم الأخير من المخطوط مخصص لسقاية السيوف ، أى نقعها فى سائل معين بعد تسخينها على النار حتى تكون أشد حدة وأكثر قدرة على القطع ، ويذكر ابن ارنبغا مواد عديدة لسقى السيوف منها دم الفراخ ، وقشر الرمان اليابس ، وأكسيد الحديد ، وعرق الفرس والحمار وقرن الإيَّل المطحون .

أما صمغ الصنوبر ، والمصطكى واللبان ، وبذر الكتان ، وبرادة الحديد ، فمواد تمنع صدأ السيوف .

أما السقاية الشريفة ، أى المعتبرة ، عالية المستوى ، فمن المواد المستخدمة فيها ، الجير ، وملح البول أى ما يتبقى منه بعد تبخره ، ومواد كيماوية أخرى . وتبل فيها السيوف ، وتترك لمدة ثلاثة أيام ، بعد ذلك :

« اضرب به عمود الحديد ، زنته عشرة أرطال فإنه يقطعة إن شاء الله تعالى » .

ولكى يكتسى السيف لونًا أحمر ، يوضع فى مواد مستخرجة من كبريتات الحديد ، وتوضع

هذه المواد فى جراب من الجلد يُدخل فيه السيف ويوضع تحت التبن ، بعد مدة يخرج أحمر قاطعًا .

ولكى يصبح لونه أصفر تؤخذ مواد من خشب الورس الذى ينبت فى اليمن أو الحبشة ، والعصفر ، ويوضع السيف تحت ثقل بعد دهانه .

« ثم يخرج فإنه يكون ما أردت إن شاء الله تعالى ، والله أعلم . . » .

والله أعلم ، هكذا يختتم ابن ارنبغا الزرد كاش مخطوطه أو مؤلفه النادر .

* * *

وضع ابن أرنبغا حوالى مائة رسم توضيحى ، لأدوات المنجنيق ، وطرق استخدامه ، وأنواعه ، وأساليب الحصار ، ولتركيب القنابل ، وسقاية السيوف . قام الدكتور سامى الدهان بشرحها ، وتوضيح غوامضها ، هكذا يلقى هذا المؤلف النادر الضوء على جوانب هامة من أصول الفن الحربى العربى .

النص صعب ، إلا أن التحقيق العلمى الممتاز الذى . قام به المحقق ، إضافة إلى شروحه وتوضيحاته ، جعلته ميسرًا ، متاحًا ، ومقروءًا بسهولة ، ومن أهم ما تضمنه الفهارس ، بخاصة ذلك الجزء الخاص بأهم المؤلفات الحربية والعسكرية فى التراث العربى ، معظمها مازال مخطوطًا ، متناثرًا فى مكتبات العالم المختلفة .

ويبقى لنا بعد تقديم هذا المخطوط فى فن الحرب عند العرب . أن نردد مع مؤلفه فى ختام عرضنا ما ردده هو فى مفتتح مؤلفه :

وضع العبد الفقير المعترف بذنبه ، الراجى عفو ربه ابن ارنبغا الزرد كاش» .

* * *

الأنيق فى المنجنيق

لابن أرنبغا الزرد كاش

دراسة وتحقيق : الدكتور إحسان هندى . صدر عن

جامعة حلب (معهد التراث العلمى العربى)

بالتعاون مع معهد المخطوطات العربية (المنظمة

العربية للتربية والعلوم والثقافة) .

سلسلة مصادر ودراسات فى تاريخ التكنولوجيا

العربية ـ ٤ ـ

٢٨٨ صفحة ـ قطع كبير

ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب

لأبى منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل
الثعالبى النيسابورى [٣٥٠ هـ - ٤٣٠ هـ]

للثعالبى ركن بأكمله فى المكتبة العربية .

عاش عمرًا مديدًا ، تجاوز الثمانين ، وكما طال عمره ، فقد تعددت مؤلفاته ، إذ تعددت الثمانين مصنفًا ، كلها حول الأدب واللغة والتاريخ ، دون فيها ملامح عصره ، ومعارفه ، ورسم صورة واضحة المعالم لأعلامه وكتّابه وشعرائه ، وصلنا معظمها ، مثل يتيمة الدهر فى شعراء العصر ، وفقه اللغة ، وسر العربية ، والتعريض والكناية ، والمبهج ، والتمثيل والمحاضرة ، وخاص الخاص ، والإعجاز والإيجاز ، والنوادر والتعليقات ، والمطربات المرقصات وغيرها .

ولد فى نيسابور سنة خمسين وثلثمائة ، وتوفى بها سنة ثلاثين وأربعمائة ، نُسب إلى الثعالب لأنه عمل فى خياطة جلودها ، المعلومات عن حياته شحيحة ، ضئيلة ، وما جاء عنه فى كتب التراجم سطور عامة لا تلقى ضوءًا كافيًا ، ولا تشفى غليلا .

يقول ابن خَلّكان فى موسوعة « وفيات الأعيان » .

« كان فى وقته داعى تَلَعات العلم ، وجامع أشتات النثْر والنظم ، رأس المؤلفين فى زمانه ، وإمام المصنفين بحكم أقرانه ، ساد ذِكْرُه سير المثل ، وضربت إليه آباط الإبل ، وطلعت دواوينه فى المشارق والمغارب . . » .

أما تلميذه وربيبه علىّ بن الحسن البَاخرذى فلم يزد على أن قال فى حقه :

« جاحظ نيسابور ، وزُبدة الأحقاب والدهور ، لم تر العيون مثله ، ولا أنكرت الأعيان فضله ، وكيف يُنْكر وهو المُزْن يُحمد بكل لسان ، أو يُسْتَر وهو الشمس لا تخفى بكل مكان ، وكنت وأنا بعد فرخ أزغب ، فى الاستضاءة بنوره أرغب . . » .

أما المصرى صاحب كتاب زهو الآداب ، فقال عنه :

« وأبو منصور هـذا يعيش إلى وقتنا هذا ، وهو فـريد دهره وقريـع عصره ، ونسيج وحده . وله مصنفات فى العلم والأدب ، تشهد له بأعلى الرتب .

هكذا ، مجرد أوصـاف عامة ، لكـن ما من تفـاصيل عـن أطوار حياتـه ، أو الأعمال التى مارسهـا ، أو البلاد التى رحل إليهـا ، كان ناثـرًا فذًا ، وشاعـرًا رقيقًا ومن كتبه التـى وصلتنا وطبعت أكثر مـن مرة ، كتاب « ثمار القلوب فى المضـاف والمنسوب » حققه محمد أبـو الفضل إبراهيـم ، وصدر فى سلسلـة ذخائر العـرب عن دار المعـارف بمصر ، كتاب ضخـم يقع فى ثمانمائة صفحة ، خصصه لـذكر أشياء مضافـة ومنسوبة إلى أشياء مختلفـة يُتمثل بها ، ويكثر استخـدامها فى اللغـة ، مثل القـول ، غراب نـوح ، ونار إبـراهيم ، وذئب يـوسف ، ومثـل قولهم ، قـرطا ماريـة ، وتفاح الشام ، وورد جُور . . ، قسـم الكتاب إلى واحد وستين بـابا ، الأبواب الخمسة الأولى يمكـن اعتبارها مفتتحا ذا طابـع دينى . الأول يذكر فيـه ما يُضاف إلى اسم الله تعـالى ، مثل القـول « بيت الله » ، والمقصود الكعبـة بيت الله الـذى جعله الله مثـابة للناس ، وقبلة لسيد ولد آدم وخاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكعبة لأمته ، ويقول إن العرب فى الجاهلية كانت لا تبنى بنيانًا مربَّعـا تعظيمًا للكعبة ، ثم يذكر خصائصه ، ومنها أنه بواد غير ذى ذرع ولا شجـر ، وينثنى فيـه الذئب عمن يطـارده ، ولا ينزلـه الحمام إلا إذا كان عليـلاً ، وإذاحاذاه الطير انقسـم إلى فريقين ، ثـم يقول الثعـالبـى « ومن يستطيـع الإحاطـة بفضائل بيت الله وخصائصه . » .

* * *

الأنبيـــاء

يُقال « سفينـة نوح » ، تضرب مثلاً للشـىء الجامع ، لأن نـوحًا حمل فيها مـن كل زوجين اثنين ، ويُقال أيضًـا « غراب نوح » يضرب مثـلاً للرسـول الذى لا يعود ، وكـان أهل البصرة يقولـون : فلان لا يرجع حتـى يرجع غراب نـوح . ويُقال عمر نوح يُضرب مثـلاً فى الطول ، ويُنسب إلى سيدنا إبراهيـم ، « مقام إبراهيم » كناية عن كل مكـان شريف ، و « نار إبراهيم» للبرد والسلامة . أما « رؤيا يوسف » فيضرب بها المثـل للرؤية الصحيحة ، الصادقة ، و«ذئب يوسف » يُقال لمن يُرمَى بذنب جناه غيره وهـو برىء ، ويُقال « عصا موسى » ، يورد الثعالبى قول الجاحظ : « من يستطيع أن يدعى الإحاطة بها فى قول موسى « ولى فيها مآرب أخرى » إلا بالتقريب وذكـر ما خطر على البال ! ولكننى سأذكر جُملاً تدخـل فى باب الحاجة إلى العصا ، فمنها ، أنها تحمـل للحية والعقرب والـذئب والفحل الهائج ويتوكـأ عليها الشيخ الـدالف ،

والسقيم المدنف ، والأقطع الرِّجل ، والأعرج ، وتنوب للأعمى عن قائده . . الخ » ، وممن ضرب المثل بعصا موسى فأحسن وأبدع ابن الرومى حيث قال :

مديحى عصا موسى وذلك أننى ... ضربت به بحر النَّدى فتضحضحا
فياليت شعرى إن ضربت به الصَّفا ... أيَبْعث لى منه جداولَ سُيَّحًا !
كتلك التى أندَتْ ثرى الأرض يابسًا ... وأبدت عيونًا فى الحجارة سُفَّحًا
سأمدح بعض الباخلين لعله ... أن اطّردَ المقياس أن يتسمّحا

ويقول الثعالبى إن ابن الرومى أبدع اذ شبَّه مديحه بعصا موسى التى ضرب بها البحر فيبس ، ذلك أنه مدح جوادًا فبخل ، فقال ، سأمدح بخيلاً لعله يجود . ويُقال «خليفة الخضر » إذا كان الرجل جوّالاً ، جوّابًا للآفاق ، كما قال أبو تمام عن نفسه :

خليفة الخِضْرِ من يأوى إلى وطنٍ ... فى بلدةٍ فظهور العيس أوطانى

ثم قال :

بالشام قومى وبغداد الهوى وأنا ... بالرّقتَيْن وبالفسطاطِ إخوانى
وما أظن النوى ترضى بما صنعت ... حتى تسافر بى أقْصى خراسان

ومما ينسب إلى الأنبياء « صبر أيوب » . و « حوت يونس » و « نغمة داود » و« خاتم سليمان » و « طب عيسى » . و « بردة النبى » التى يضرب بها المثل فى البِلى ، وهى التى خلعها الرسول الكريم وكساها كعب بن زهير بعد أن أنشده قصيدته المشهورة .

* * *

القرون الأولى

والمقصود بها الأزمنة النائية ، المنقرضة ، يقال « أحلام عاد » ، كانت العرب تتصور أن قوم عاد عمالقة الأجسام ، وبالتالى كانت أحلامهم ضخمة كأجسادهم أما « ريح عاد » فتضرب مثلاً للإهلاك وللإخفاء ، أما « صاعقة ثمود » فتضرب أيضًا مثلاً فى الإبادة ، ويقال « صرح هامان » للأبنية الشاهقة ، و « كنوز قارون » للأموال والثروات النفيسة ، و « نوم أصحاب الكهف » للنوم الطويل ، ومن أقوال العرب « جوف حمار » كان رجلٌ من عاد ، يقال له حمار بن مُويلع ، وجوفه وادٍ له طويل عريض ، لم يكن هناك اخصب منه وفيه من كل الثمار ، فخرج بنوه يتصيدون ، فأصابتهم صاعقة فهلكوا ، فكفر ، وقال : لا أعبد من فعل هذا ببنىّ ودعا قومه إلى الكفر فمن عصاه قتله ، فأهلكه الله ، وخرّب واديه فُضرب به المثل فى الخراب والخلاء .

ومما يضرب به المثل « ذكاء إياس » . كان قاضيًا شديد الذكاء ، كان فى صغره ضعيفًا ، ضئيلاً ، وكان له أخ أشد منه حركة وأقوى ، وكان أبوهما يقدمه على إياس ، فقال له إياس يومًا : يا أبتِ ، أنت تقدِّم أخى علىّ وسأضرب لك مَثَله ومثلى ، فهو مثل الفرّوج حين تنفلق عنه البيضة يخرج كاسيًا كافيًا نفسَه فيلقط ويستخفه الناس ، فكلما كبر انتُقِص حتى إذا تم وصار دجاجة لم يصلح إلا للذبح ، وأنا مثل فرخ الحمام تنفلق عنه البيضة عن شىء ساقط لا يقدر على حركة وأبواه يُغذِّيانه حتى يَقْوى ويثبت ريشه ثم يحسن بعد ذلك ويطير ، ويتخذه الناس ويرسلونه من المواضع البعيدة ، فيجىء فيصان لذلك ويُكرَم . فقال أبوه : أحسنت المثل ، وقدمه على أخيه . وحج إياس يومًا فسمع نُباحَ كلب ، فقال : هذا كلب مشدود . ثم سمع نباحه فقال : لقد أُرسِل ، فلما انتهوا من الماء سألوا أهله ، فكان كما قال ، عندئذ سألوه : كيف عرفت ؟ . فقال : كان نباحه وهو موثق يُسمع من مكان واحد ، فلما أطلق سمعته يقرب مرة ويبعد مرة . وهو ذات ليلة بناحية ، فقال : أسمع نباح كلب غريب ، فقيل له : كيف عرفت ؟ قال : بخضوع صوته ، وشدة نباح الآخر .

ورأى يومًا أثَر رعى بعير : فقال : هذا بعير أعور . فقيل له : من أين علمت ؟ فقال : لأنى وجدت رعيه من جهة واحدة .

* * *

الرجـــــال

ومما يضرب وينسب إلى رجالات العرب . «شيبة الحمد » ، كأن يقال ذلك لعبد المطلب بن هاشم لنور وجهه ، ذلك أنه كانت فى ذؤابته شعرة بيضاء حين وُلِد . أما (حاتم الطائى) فكان من أكرم العرب ، وقيل « دُعَيْميص الرَّمل » لرجل كان من أمهر أدلة الطرق ، ضرب به المثل فقيل « أهدى من دعيميص الرمل » ويُقال انه دخل وَبَار ، وهى بلدة تزعم العرب أنها بلدة الجن ولم يدخلها إنسى غيره ، فرمته الجن بالرمل حتى عمى ، أما « وافد البراجم » فيضرب به المثل فى الشقاء والجبن ، ذلك أن أسعد بن المنذر أخا عمرو بن هند انصرف ذات ليلة من مجلس صفائه وهو ثَمِل . فرمى رجلاً من بنى دارم بسهم فقتله فوثب عليه بنو دارم فقتلوه ، فغزاهم عمرو بن هند ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ثم أقسم ليحرقن منهم مائة فبذلك سمى محرقًا ، وأخذ منهم تسعة وتسعين رجلاً فقذفهم فى النار ، وأراد أن يبر قسمه بمن تكمل به العدة فمرَّ رجل يقال له عمّار ، من بنى مالك ، فتشمم رائحة اللحم . فظن أن الملك قد اتخذ طعامًا للأضياف ، فعرج إليه ، فأتى به ، فقال له : من أنت ؟ فقال : أبيت اللعن ، أنا وافد البراجم . فقال عمرو : إن الشقى وافد البراجم ، فصار مثلاً للشقى يسعى

بقدمه إلى مراق دمه ، ثم أمر به فقذف به فى النار ليتحقق قسمه . ويقال « حمق هبنقة » ، وهو يزيد بن ثروان أو هبنقة ذو الوداعات ، من حُمْقه أنّه جعل فى عنقه قِلادةً من وَدَع وعَظْم وخزفٍ وهو ذو لحية طويلة ، فسئل عنها فقال : لأعرف بها نفسى ، فبات ذات ليلة وأخذ أخوه قلادته فتقلدها فلما أصبح هبنقة رأى القلادة فى عُنق أخيه ، فقال له : يا أخى ، إن كنت أنت أنا ، فمن أنا ؟

ويُقال أيضًا حديث خُرافة ، وخرافة كان رجلاً من بنى عـذْرة ، استهوته الجنّ فلما خلت عنه رجع إلى قومه ، وجعل يحدثهم بالأعاجيب من أحاديث الجنّ ، فكانت العرب إذا سمعت حديثًا لا أصل له ، قالت : حديث خرافة .

* * *

العـــرب

ومما يضاف أو ينسب قولهم « أغربة العرب » ، وهم أربعة سود شجعان عنترة العبسى ، وخفاف السلمى ، كان شاعرًا شجاعًا ، شهد مع الرسول فتح مكة ، ومنهم السليك بن السلكة ، وأيضًا عبد الله بن خازم السلمى وإلى خراسان ، ومن عجيب أمره أنه كان فى غاية الشجاعة ، لكنه يخاف الفأر خوفًا شديدًا ، فبينما هو ذات يوم عند عبيد الله بن زياد إذ أدخل عليه جُرَذًا أبيض فتعجب منه ، فقال لعبد الله : يا أبا صالح هل رأيت أعجب من هذا ؟ وإذا بعبد الله يتضاءل كأنه فرخ ، فقال عبيد الله : أبو صالح يقبض على الثعبان ، ويلقى الرماح والسيوف بيده ، وقد اعتراه من جُرَذ ما ترَوْن ! إن الله على كل شىء قدير ! .

ومما يضاف أو ينسب إلى الشعراء « حُلّة امرئ القيس » تضرب مثلاً للشىء الحسن يكون له أثر قبيح ، ذلك أنه لجأ إلى قيصر الروم يستعين به على قتلة أبيه ، ويستنجده ، وبعد أن ساعده أوقع الوشاة به عند قيصر ، فأرسل فى أثره بحلة مسمومة ، فلما لبسها تقرح جلده ، وتساقط لحمه ، يقول فى ذلك :

وبُدّلتُ قُرْحًا داميًا بعد صحةٍ ... وبُدِّلتُ بالنَّعماء والخيرا بؤسا

ومات بأنقره .

ومما يضاف إلى البلدان ، قولهم « عزيز مصر » ، ذُكر فى القرآن الكريم ، ويقال «اسقف نجران » وهو قس بن ساعدة ، أحد حكماء العرب وبلغائهم ، ويُقال « سحرة الهند » إذ يضرب المثل بهم لأن للهند السحر والرقى والتدخين والشطرنج وخرط التماثيل .

ومما ينسب إلى أهل الصناعات قولهم (كلب القصّاب) يُضرب مثلاً للفقير يجاور الغنى ،

فيرى من نعيم جاره وبـؤس نفسه ما ينغص عيشته ، والعامـة تقول : كلاب القصابين أسرع عميّ مـن غيرها بعشرين سنة لأنها لا تـزال ترى من اللحوم مـا لا تصل إليه . فكأن رؤيـة ما تشتهيه وتُمنع منه يورثها العمى .

* * *

أبــو .. وأم

يخصص الثعـالبى الفصل الثـامن عشر لما يضاف أو ينسـب إلى الآباء والأمهات الـذين لم يلدوا ، والأبناء الذين لم يولدوا ، يُقال مثـلاً ، (أبو يحيى) لقابض الأرواح ، كما يُقال للأسود (أبو البيضاء) ولـلأعمى (أبو البصير) . ويُقال (أبو بـراقش) لطائر منقش بـألوان النقوش يتلون فى اليـوم بعدة ألـوان ، ويُضرب به المثـل للمتلون ، أمـا (أبو مـالك) فيعنـى الجوع ، والعرب تسمى الخبز جـابرًا وعاصمًا وعامرًا ، ثم يورد الثعـالبى قائمة بالعديـد من الكنى التى يتداولها العرب ، فمنها :

الفـرس : أبو المضـاء ، والفيل : أبـو الحجـاج ، والأسد : أبـو الحارث والثعلب : أبـو الحصين ، والقِـرْد : أبو ذَبّـة وأبو قيـس ، والفهد : أبـو الـوثاب . والأرنـب : أبو نبهـان ، والسّنّور : أبو خداش ، والديك : أبو اليقظـان ، والماء : أبو غياث ، والثريد : أبو رزين . والخَلّ : أبـو نافـع . والجبن أبـو مُسافـر ، واللحم : أبـو الخصيب ، والتمـر : أبو عـون ، والحلوى : أبو ناجع والغناء : أبو شـائق ، والنوم : أبو راحة ، والشبع : أبو الأمن ، والحمام أبو نظيف .

ثم ينتقل الثعالبـى إلى الأمهات ، (أم الكتاب) هى فاتحة الكتاب لأنها المقـدمة التى تقرأ أمـام كـل سورة فى الصـلاة ، (أم القـرى) هـى مكـة ، إنها أم كل أرض (أم النجـوم) هـى المجرة ، (أم المؤمنين) هى عائشـة رضى الله عنها . (أمّ دَفْر) كنية الدنيـا ، كما يقال لها أيضًا (أم خِنَّوْر) ، ولما قال عبد الملك بن مروان :

وقد تمكنّـا من أمّ خِنّـور ـ يعنـى الدنيا ــ ونعمتها وغضـارتها ، لم يعش بعـد قولـه هذا إلا أسبوعًـا ، (أم عامر) هـى الضبع ، (أم عـوف) هى الجرادة (أم طلحة) هـى القملة . (أم قشعم) هى المنيـة والحرب والداهية الكبيرة ، ويقال للحرب أيضًـا (أم قسطل) و(أم شملة) هى الشمس .

وعـن البنين يقول الثعـالبـى ، (ابـن الليالى يعنـى القمـر ، والعـرب تقول لمن يعيـش فى الصحارى (ابـن الليل) ومـازال الناس فى صعيـد مصر يطلقون نفـس الكنية على المجـرمين والخارجين عن المجتمـع ، وهناك فيلـم سينمائى مشهور يحمل الاسـم . ويُقال (ابـن ذكاء)

يعنـى الصبـح ، و (ابن الغمام) أى البَرَد ، ويُقـال (ابـن الغِمـد) للسيف ، وذلـك لطـول ملازمته إيّـاه ، أما النهار فيقال لـه (ابن الدهر) أمـا (بنو الأيام ، هم أهـل العصر ، و (بنو الدنيا) هم الناس .

وعن البنات يقول الثعالبى إن (ابنة الجبل) تعنى الصدى الذى يجيب المتكلم بين الجبال ، و (بنت الفِكْر) هى الرأى والشعر . وابنة الكَرْم هى الخمر ، أما بنات الليل فهى الأحلام .

* * *

من الأذواء إلى .. أصابع زينب ..

أما ما يضاف إلى الأذواءِ والذوات فكثير . من ذلـك (ذو الأوتاد) وقد جاء ذكره فى القرآن الكريـم . و (ذو القرنين) ويُقـال إنه الإسكنـدر الأكبر ، و (ذو النُّورَيْـن) وهو عثمان بـن عفان رضى الله عنه ، سمى بذلك لأن الرسول الكـريم زوّجه ابنته رقية ، فكانا أحسن زوجين فى الإسلام ، ولما تُـوفيت زوجه عليـه السلام أم كلثوم ، ولما توفيـت قال : لو كـانت لنا ثـالثة لزوّجْناكها ، فهـو ذو النُّورَين لهذه القصة . ويقال (ذو الرياستين) وهـو الفضل بن سهل ، سماه الخليفة المأمون بـذلك لأنه دبر أمر السيـف والقلم ، وولى رياسة الجيـوش والدواوين . و(ذات النطاقين) أمرها معـروف وهى أسماء بنت أبى بكر الصديـق ، أما (ذات الخمار) فهى هُنيدة بنـت صعصعة عمـة الفرزدق ، وكـانت هنـاك شجرة اسمهـا (ذات الأنواط) كـانت قريش ومن سواهـم من العرب يـأتونها كل سنة فيعلّقون عليها أسلحتهم ويذبحون عندها ويقومون عندها يومًا .

أما النساء المضافات ، المنسوبـات فمنهن (زرقاء اليمامة) ويضرب بها المثل فى دقة البصر وحدة النظر ، كانت تبصر الشىء من مسيرة ثلاثـة أيام ، وقد أخبرت قومها برؤيتها لأشجار تتحرك فلم يصدقوها ، ولم تكن الأشجار إلا جيشًا معاديًا تخفى بالأشجار ، تمكن من مباغته قومها ، وأسروها وشقوا عينيها ، ويُقال (خضراء الدِّمـنَ) وتلك من جوامع كَلِم الرسول صلى الله عليه وسلم ، القليلة الألفاظ الكثيرة المعانى التـى لم تسبقه العرب إليها . ولما قال : إياكم وخضراء الـدِّمن ، قيـل « يـا رسول الله ومـا خضراء الدمـن ؟ قـال : المرأة الحسناء فى منبـت السوء .

أما مـا يُضاف إلى النساء فمنـه (كيد النساء) و (نخلـة مريـم) قيل فى القرآن الكـريم ، «وُهزّى إليك بجذع النخلة تُسَاقِطْ عليك رطبًا جنيًا » ، و (عرش بلقيس) و (شؤم البسوس) هى بنت منقذ التميمية . زادت أختها أم جساس بن مـرّة ومع البسوس جارٌ لها من جَرْم يقال

له سعد بن شمس ومعه ناقة ، فرماها كُليب وائل ، فأقبلت على صاحبها وضرعها ينزف دمًا ، فانطلق إلى البسوس فأخبرها بالقصة ، فقالت ، واذلاّه ، واغربتاه ، وسمعها ابن أختها جساس فركب ومضى إلى كليب حيث طعنه طعنة أثقلته فمات منها ، وهكذا بدأت الحرب بين بكر وتغلب فدامت أربعين سنة ، ويُقال (مرآة الغريبة) لأن المرأة الغريبة تتعهد مرآتها من الجلاء بما لا يتعهد غيرها ، وتتفقد دائمًا محاسن وجهها ، لذلك ضُرب بها المثل ، فيُقال أنقى من مرآة الغريبة ، ويذكر الثعالبى (أصابع زينب) ويقول إنه ضرب من الحلوى ببغداد يُدعى أصابع زينب ، وما يزال هذا النوع من الحلوى موجودًا فى مصر والشام وبنفس الاسم .

* * *

من الرأس إلى .. الكلبة

وبما يُنسب إلى الأعضاء عند العرب بكثرة (الرأس) ، فتقول : رأس المال ، ورأس الليل ، ورأس الجبل ، ورأس الزمان ، ورأس القوم ، ورأس الجريدة ، ورأس الأمر ، ورأس العقل ، ورأس الدين ، وهكذا . . ويُخصص الثعالبى فصلاً كاملاً لما يضاف أو يُنسب إلى الإبل ، فيُقال مثلاً (حنين الإبل) تقول العرب ما أفعل ذلك ما حنَّت الإبل وما أطّت الإبل ، وتقول (ركبتا البعير) فى الشىء المتساوى بغيره . وتقول (ضبط عشواء) لمن يصيب مرة ويخطئ مرة ، والعشواء هى الناقة التى لا تُبصر ليلاً ، قال زُهير :

رأيت المنايا خبط عشواءَ من تُصِبْ تُمِتْه ومن تُخطئ يُعمَّرْ فيهرمِ

فى الفصل الذى يخصصه للحمير ، تستوقفنا ملاحظة خاصة بالمؤلف ، ربما لم ترد فى أى من كتبه الأخرى ، إذ يقول فى الفقرة المعنونة (خاصى العير) ويضرب مثلاً لمن يرجع خائبا من مهمته ، يقول الثعالبى .

« وقد ضرب أبو خراش مثلاً فى شعر له لست أستحضره » يفلت الثعالبى هنا من صرامة البحث ، ويعترف للقارئ أنه لا يذكر الشعر الذى أراد أن يستشهد به .

وفى الفصل المخصص للأسد ، يذكر الثعالبى عشر خصال مستعارة من الحيوان يجب أن تتسم بها القيادة ، فمن ذلك : جُرأة الأسد ، وخَتْل الذئب ، وروغان الثعلب ، وحملة الخنزير ، وصبر الكلب على الجراحة ، وتحنن الدجاجة وسخاء الديك وحذر الغراب وحراسة الكُركى وهداية الحمام . ويُقال للذئب (نوم الذئب) ذلك أنه يغمض إحدى عينيه ويفتح الأخرى أثناء نومه قال الشاعر يصفه :

ينام بإحدى مقلتيه ويتقى بأخرى المنايا فهو يقظان هاجعُ

وتقول العـرب (كلبة حَوْمل) يضرب بها المثـل فيقال : أجوع مـن كلبة حومل ، وحـومل امرأة كانت تربـى كلبة للحراسة ، وتجيعها وتطردها بالنهار ، فرأت ليلـةً القمر طالعًا فنبحت عليه تظنه رغيفًا لاستدارته ، ولما طالت الشدة عليها أكلت ذنبها من شدة الجوع .

* * *

فـى الطيـــور

يُقـال (عِتـاق الطير) أى أحـرارهـا ، وهى تصيـد ولا تُصـاد ، مثـل العقبـان والبـزُاة ، والصقور، والشـواهين ، ويُقال أيضًـا (عتاق الخيـل) هى التـى لا يمكن إدراكهـا . ولكنها تُدرك إذا طلبـت وكثيرًا ما يتردد (عنقـاء مُغّرب) ، ويضرب مثلاً للشـىء الذى يُسْمـع به ولا يُرى . وإذا أرادت العرب الأخبار عـن هلاك شىء وبُطلانه قالـت : حلّقتْ به فى الجوّ عَنْقاء مغرِب . أما (طير النار) فالمقصود به طائر السمندل ، وهو يدخل النار فيعود شابًا ، ويُقال (غُراب البين) كان القـوم يتشاءمون منه ، ومـن اسمه اشتقت الغربـة ، ويُضرب المثل بحمام الحرم مثالا على الأمـن والصيانة ، كما يُقـال (طوق الحمامـة) مثالاً لما يلزم ومـا لا يبرح ويقيم ويستديم ، ويُقال (كمـد الحبارى) يضرب مثلاً لمن يموت كمدا ، فيقال ، مـات فلان كمد الحبارى ، ذلك أن الحبارى إذا تحسرت فترت همتها ، وألقت ريشها كله مرة واحدة ، حتى إذا رأت صويحبـاتها يطرن ولا نهوض لها فـرُبما ماتـت كمدا . ويضرب المثـل (ببيضة الـديك) ، للشىء النادر يحدث مرة واحدة ولا يتكرر ، إذ يُقال إن الديك يبيض مرة واحدة فى حياته . .

* * *

الأرض .. الـدور .. البـلدان

تقول العرب (سمـعُ الأرض وبصرها) ، عندما يلتقى اثنان ولا ثـالـث لهما إلا طول الأرض وعرضها ، وتقول أيضًا (أمانة الأرض) و (كتمان الأرض) لأنها تحفظ ما يودع فيها .

ويضرب المثل بدار أبى سفيان فى الأمن ، ذلك أن الـرسول الكريم لما فتح مكة ودخل دار أبى سفيان قال « من دخل دار أبى سفيان فهـو آمن » . أما قصر غمدان ، فأحد أبنية العرب المتينة ، الشهيرة ، كان بصنعـاء ، تسكنه ملوك حِمْير ، ثم تنقلت به أحـوال أدت إلى خرابه ، وما يزال موضعه معروفًا فى صنعاء حتى يـومنا هذا . ومما ضرب به المثل أيضًا (أهرام مصر) فى الثبات والقـدم والحصانة وكان عبـد الله بن عمرو بن العـاص يقول : عجائب الدنيـا أربع ، منارة الإسكندرية وكنيسة الرها ومسجد دمشق ، وقنطرة سنجـة .

وضرب المثل بخراج مصر فى الكثرة ، وكتان مصر ، وقطن خراسان ، وتفاح الشام ، قال الشاعر .

تفـــاحـــة شـــامية	مـن كـف ظـبى غـزلِ
ما خُلِقت مـذ خلـقـت	لغـــير تـــلك القُبـــلِ
كأنمـــا حُمـــرتهـــا	حـمـرة خـــدِ خجـــلِ

ويقال أيضًا (زجاج الشام) يضرب بـه المثل فى الـدقـة ، و (زيت الشام) للجودة والنظافة، ويقال (عود الهند) مثلاً على طيب الرائحة ، و (سيوف الهند) للجودة . و(سيوف اليمن) لحدتها ، و (ثياب الروم) لحسنها ، و (سكر الأهواز) لجودته ، و(ورد جُور) لطيبه، و (سجاد أرمينية) لفخامته ، و(طرائف الصين) لندرتها . و(مسك التبت) لجودته .

كما يُضرب المثل بطرب الزنج ، وهم محبون للغناء والرقص ، ويُقال (حمى الأهواز) لشدة فتكها . و (هواء جوجان) لنقاوته وسرعة تغيره ، و (برد همذان) لوعورته .

* * *

هكذا . . يمضى الثعالبى ليذكر لنا ما يضاف وينسب إلى النار ، والماء ، والشجر ، واللباس والثياب ، والطعام والشراب ، والسلاح ، والحُلَىّ ، والليالى ، والأزمان والأوقات ، والأدب وما يتعلق به ، ثم يخصص الباب الستين للأقوال التى يستشهدون بها ، مثل (عرق الموت) ويضرب مثلاً لأشد الشدة و (غضب العاشق) ويشبه سحابة صيف لأنه لا يدوم ، و (لذة الخلسة) وهو ما يُمتع أكثر ، ويُقال (ينبوع الأحزان) ، أنشد عُبيد الله ابن طاهر :

ألم تَـرَ أنَّ الـدهـرَ يهدم مـا بنـى	ويأخذ ما أعطى ويُفسد ما أسدَى
فمـن سرَّه ألا يـرى مـا يسـوءُه	فـلا يتخـذ شيئًـا يخاف لـه فقـدًا

ويصل الثعالبى بنا إلى خاتمة الأبواب ، ويخصصه للجنان كأن يُقال (جنة الدنيا) ويقول إن المقصود بها الشام ، ولما أخرج هرقل عن بلاد الشام وفر هاربًا إلى بلاد الروم بكى وغُشى عليه ، فلما أفاق قال : السلام عليك يا سوريا يا جنة الدنيا ، سلام غير ملاقٍ . ويُقال (باب الجنة) و (روضة الجنة) و (كنوز الجنة) ، كان يُقال : أربعة من كنوز الجنة : كتمان المصيبة وكتمان المرض ، وكتمان الفاقة ، وكتمان الصدقة .

هكذا يختتم أبو منصور الثعالبى النيسابورى كتابه الفريد ، والذى حفظ لنا فيه ما كان يمكن أن يتبدد نثارًا فلا تدركه الأفئدة ، وبصَّرنا ببعض ما يشيع على ألسنتنا حتى الآن ، ونحن نجهل أصله . غفر الله له ورحمه .

سرور النفس بمدارك الحواس الخمس

تأليف : أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشى
هـذبه : محمد بن جلال الدين المكرم (ابن منظور)
حققه : الدكتور إحسان عباس

يُروى أن أحمد بن يـوسف التيفاشى ، كان يتمتـع بروح علمية دقيقة . محبًا للتجربة . . وتحمل المشاق فى سبيـل المعاينة الذاتية ، وأثنـاء إعداده لكتابه الشهير عن الأحجـار الكريمة «أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار» . سمع عن أن الزمرد الذبابى إذا عرض للحيات انفقأت عيونها ، وكـان عنده فـص زمرد ذبابـى خالـص فاستـأجر حواء ليصيـد له أفعـى ، ففعل ، وجعلها فى طشت ، ثـم قرب الفص من عينيها ، فما لبـث أن سمع فرقعة خفيفـة ، ثم برزت عيناها بروزًا ظاهرًا ، وبقيت الحية حائرة فى الطشت لا تدرى أين تتوجه .

كان التيفـاشى عـالمًا ، أديبًا ، ذا معرفـة موسـوعية فى عصره ـ القـرنين السادس والسـابع الهجـريين ـ كـان متنـوع الثقـافة ، طبيبًـا بين الأطبـاء ، فلكيًـا بين الفلكيين مـوسيقـارًا بين الموسيقيين ، كما كان شـاعرًا وناثـرًا ، كثير الترحال فى طلب العلـم ، يطالع ، يسمـع ، يدون مشاهـداته . مـن هنا تنـوعت تنـوعا مؤلفـاته كبيرًا ، نـذكر بعضهـا تفسير التيفاشـى للقرآن الكريم ، لم يصلنا للأسف ، ذكره القلقشندى صاحب كتاب صبح الأعشى ، وقال إنه يغلب عليه الطـابع القصصى وكتاب « مشكـاة أنوار الخلفاءوعيـون أخبار الظرفاء » وكتـاب «سجع الهديل فى أخبـار النيل » وكتاب « المنقـذ من التهلكـة فى دفع مضار السمائم المهلكـة» وكتاب «العدة الفائقة فى محاسـن الأفارقة » ، كما وضع عدة مؤلفات فى الجنـس ، ومن أغرب الكتب التى نسبت إليه . « نزهة الألباب فيما لا يوجـد فى كتاب » ويصور الحياة الخفية من المجتمع ، حيث جمع المؤلف ورصد نماذج عديدة من الحياة السرية للمجتمعات فى تونس ومصر ودمشق وبغداد ، ومـن الكتب التى وصلتنا «فصـل الخطاب» . وكان يقع فى حـوالى عشرة مجلدات ، وجـاء محمـد بـن منظـور ليختصره ويرتـب أبـوابـه ، وسماه « سرور النفـس بمـدارك الحواس الخمس» . وهذا وصـل إلى عصرنا ، وأخرجه الدكتـور إحسان عباس من مجاهـل المخطوطات

المنسية ، وحققه تحقيقًا علميًا رائعًا . وقدم له ، وأصدره منذ سنوات فى بيروت . . وهذا ما نتوقف عنده .

* * *

فصل الخطاب

العنوان الأصلى لموسوعة التيفاشى « فصل الخطاب فى مدارك الحواس الخمس لأولى الألباب » وطبقًا لماورد فى المصادر القديمة فيبدو أن الكتاب كان يقع فى أربعين جزءًا ، لا يقل الواحد عن مائتى صفحة ، يتناول مظاهر الطبيعة كالليل والنهار والشمس والقمر والسماء والكواكب ، والعالم الحيوانى بما فيه من أصناف المخلوقات ، وعالم الأحجار والمعادن ، والطب ، والموسيقى ، وتاريخ الأمم .

من هذه الموسوعة الضخمة وصلنا جزء سماه المؤلف « نثار الأزهار فى الليل والنهار » وجزء آخر عنوانه « طل الأسحار على الجلنار فى الهواء والنار » أما البقية فلم تصلنا ، ربما ضاعت إلى الأبد ، وربما ما تزال فى مكتبة ما ، أو فى زاوية بعيدة فى الصحراء ، أو فى مكتبة مسجد عتيق . . ربما .

ما تبقى من الكتاب الذى اختصره ابن منظور إذن يحوى مادة علمية وأدبية فريدة ، يقول الدكتور إحسان عباس :

« لست أغالى فى ما لسرور النفس من قيمة ، فهو صورة لاجتماع ثقافتين ، الثقافة العربية الإسلامية والثقافة المستمدة من اليونان ، وهو كذلك صورة للقاء على المستوى الأدبى بين المشرق العربى والمغرب العربى ، كان أمثال التيفاشى وابن سعيد وابن دحية الكلبى وغيرهم من المغاربة المهاجرين يمثلون حلقة وصل بين المشرق والمغرب فيؤلفون للمشارقة وللمغاربة على السواء .

ولنلج عالم الكتاب .

* * *

الليل والنهار

يقول ابن منظور الذى اختصر الكتاب فى مقدمة قصيرة ، جميلة ، دقيقة النثر ، إنه بذل جهدًا كبيرًا فى العثور على نسخة من الكتاب حتى نجح بالفعل فى الحصول عليها :

« ورأيته قد جمع فيها أشياء لم يقصد بها سوى تكثير حجم الكتاب ، ولم يراع فيه التكرار ، ولا ما تمجه أسماع ذوى الألباب فاستخرت الله فى تعليق ما يُختار منه ، ورغبت فى إبرازه إلى

الوجـود ، فإنه مادام بخطـه لا يفهم أحد شيئًا عنـه ، فأخذت زُبْدَه ورميـت زَبَده . وأوردت تكرره تركت مكرره . .

ثم يختتم مقدمته بتلك الجملة الجميلة .

« وإلى الله الرغبة فى الصفح عن مصنفه وعنى ، والعفو عما اثبتناه بقلمينا ، فإن العفو غاية التمنى » . .

* * *

الليل والنهار هما موضوع الباب الأول . منهج المؤلف أن يـذكر الآيات القرآنية التى ذكرت الموضوع الـذى يتناوله ، والأحاديـث النبوية ، ثـم أقوال المحدثين وقصائد الشعـراء ، السؤال الأول الذى يواجهنا ، لماذا سُمى النهار نهارًا ، والليـل ليلاً ؟ . سُمى النهار نهارًا لظهور ضوء الفجر يجرى كالنهـر من المشرق إلى المغرب معترضًا حتـى يأتى على الظلام ، وسُمـى الليل ليلاً لأنه يلالى بالأشخاصِ حتى يتشكك الناظرُ فى الشيء ، فيقول : هوهو. ثم يقول لا ، لا فقد لا لا بها ، والنهار ضد الليل ولا يجمع كما لا يجمع العذاب والسراب ، فان جمع قُلْت فى قليله أنهر .

أمـا السؤال الثـانـى ، أيهما أسبـق ، الليل أو النهـار ؟ . بعـد استعـراض آراء الفلاسفـة والمتكلمين . يقول المؤلف إن مـذاهب العرب متفقة على تقديم الليـل على النهار ، وعلى هذا يؤرخـون ، فيقولون ، لخمـس بقين ولست بقين من الشهـر ، والعلة فى ذلك أن الشهـر تعلم بدايته بالهلال ، فيكون أوله على ذلك الليل .

يقول الرسول الكريـم « الليل والنهار مطيتان يقربان كل بعيد ويـأتيان بكل موعود» ، وفى كليلة ودمنة تمثـل أيام العمر بغصنين نابتين على فـم بئر وإنسان قائم عليهما ، والليـل والنهار كجرذين أبيض وأسود مُجدّين فى قطع الغصنين وهولاءِ عنهما :

ومن أجمل الأشعار التى يوردها المؤلف فى وصف الليل والنهار ما قاله ابن الدمينة .

أقضّى نهارى بـالحديثِ وبـالمنى ... ويجمعنـى والهمّ بـالليلِ جـامـعُ

وقول النابغة الذبيانى فى طول الليل :

كلينـى لهم يـا أميمـة نـاصـبِ ... وليـلٍ أقاسيـه بطـىء الكواكـبِ

تقاعس حتى قلت ليس بمنجلٍ ... وليس الذى يرعـى النجوم بآيبِ

أما الأصل فى وصف الليل بالطول ، فهو بيت الحارث بن خالد وهو :

تعـالوا أعينـونـى على الليلِ إنـه ... على كـل عينٍ لا تنـامُ طـويـلُ

الهـلال .. والقـمـر

من الليـل إلى النهار ، من الغبوق إلى الاصطبـاح ، يتنقل المؤلف بين الشعر والنثـر ، يورد الحكايات ، وما قالـه أهل المغرب ، وما جادت به قريحة أهل المغـرب . حتى يصل إلى الباب الرابع الذى يخصصه للهلال وأطواره .

فى اللغة يقال ، أهللنا بشهر كذا ، ويقال لأول ليلة : النحيرة ، وغرة الشهر أول ليلة منه ، لأن الهلال يظهر فيها كالغرة فى وجه الفرس .

وللقمر من أول طلـوعه إلى اختفائه أسماء ، فمنها : الهلال . الطالـع ، الرمد ، النمير ، الزبرقان ، الباهر ، الزمهرير ، الفاسق ، ذريق ، البدر ، عفراء ، الساهور ، السهر .

والعرب تسمى الشمس والقمر القمرين ، فيغلبون القمر ـ والشمس أفضل منه ـ لعلتين : إحدهما التـذكير والأخرى أنهم أنسـوا بالقمر لأنهم يجلسـون فيه للسمـر . ويهديهم السبل فى سرى الليل فى السفر ويزيل عنهم وحشة الغاسق . وينم على المؤذى والطارق .

قيل لأعرابى : الشمـس أحسن أم القمر ؟ قال : القمر أحسن والشمـس أجهر . قيل ، وكيف صار القمر أحسـن ، قال : لأن العيون عليه أجسر ، وتقول العرب : سـافروا فى يمنة الليالى فإن أنس القمر يذهب وحشة السفر .

والعرب تسمى كل ثـلاث ليال من الشهر باسم ، فيقولون : ثـلاث غرر ، وثلاث نفل ، وثلاث تسع ، وثـلاث عشر ، وثلاث بيض ، وثلاث درع وثلاث ظلـم ، وثلاث حنادس ، وثلاث دآدى ، وثلاث محاق . ومن أوصاف الشعراء ، ما قاله الدأواء الدمشقى :

ولربَّ ليـلٍ فيك ضـلَّ صباحُـهُ	فكـأنها هـو حيرة المتفكّـر
والبـدرُ أولُ مـا بـدا متلثمًا	يبـدى الضياء لنـا بخدٍّ مسفـر
فكـأنها هـو خـوذةٌ مـن فضَّـةٍ	قـد ركِّبـت فى هامـةٍ مـن عنبر

والعرب تقول فى ذم الهلال : لا مرحبًا بحجين ، مُحِلِّ الـدَّيْنِ ، ومُعذِّب الحين ، قالوا وفى القمر عيـوب عدة ، لونـه لون الأبرص ، وجهـه وجه المجـذوم ، يحل الدين ، ويعجـل كراء السكن ، وينهك الأبدان ، ويُخلِقُ الكتان وينمُّ على العاشق ، ويفضح السارق .

* * *

الفجـــر

أما الفجـر فاسمـه مأخوذ مـن انفجار الماء ، لأنـه ينفجر كالماء شيئًا بعد شـيء ، ويليه السحر ، أمـا السدفة فظلمـة يخالطها ضـوء يكون من أول الليـل ومن آخره يـذهب إلى بقـايا الشفق ، لأن الشفق فى أول الليل كالفجر فى آخره .

ومن دقيق الشعر ، ما قاله الأمير تميم بن المعز .

شربنـا على نـوْحِ المطـوقـةِ الـورق ... وأوديـة الـروضِ المفـوَّفـةِ البُلْـقِ
معتقـة أفنـى الـزمـان وجُـودَهَـا ... فجاءت كَفَوْتِ اللحظ أو رقَّة العشق
كأن السحـابَ الغُرَّ أصبحـنَ كؤسًـا ... لنـا وكـأنَّ الـراح فيهـا سنـا البرق
فبتنـا نحـث الكـأس فينـا وإننـا ... لنشربها بـالحث صرفًـا ونستسقـى
إلى أن رأيـت النجـم وهـو مغـرّبٌ ... وأقبـل رايـات الصبـاح مـن الشرق
كـأن سـواء الليـلِ والفجـر طـالعٌ ... بقيـةُ لَطْخِ الكحـل فى الأعين الـزرق

ومن الأصـوات التى تتردد مـع قرب شروق الشمـس ، صياحَ الـديك . وهـديل الحمام ، وللديوك والحمام يفرد المؤلـف فصلاً طويلاً ، كذلك للشمس وحـركتها النهارية عبر السماء ، حتى يصل إلى الليـل مرة أخرى ، ولكنه فى هـذه المرة يتحدث عن الكواكـب ، وللكواكب فى الزمن القديم شأن عظيم .

* * *

النجـــوم

« الثريا » من أشهر نجوم السماء عند العـرب ، يعظمونها ، ويكثر ذكرها فى شعرهم ، وإذا طلعت فى السماء شتاءً اشتد البرد . قال شاعر :

خليلى إنـى للثـريـا لحاسـدُ ... وإنى على ريـب الزمـان لواجـدُ
أيجمـع منها شَمْلُهـا وهى سبعـةٌ ... وأفقـد مـن أحببتـه وهـو واحـد

أما نجم الجوزاء فمن أحسن ما قيل فيه شعر أبى بكر الخالدى :

وتمايلُ الجوزاءِ يحكى فى الدُجى ... ميـلان شـاربِ قهـوة لم تُمْزَجِ
وتنقبـتْ بخفيف غيـم أبيـض ... هـى فيـه بين تخفّـرٍ وتبرج
كتنفـس الحسنـاء فى المرآة إذ ... كملـت محاسنهـا ولم تتـزوّج

وهكذا يتنقل المؤلـف بين نجوم السماء ، الشعرى ، وسهيل ، والنسر والفـرقدان ، وبنات نعش ، ثم . . نهر المجرة ، ثم ينتقل إلى الكواكب السيارة ، ومنها زحل والمشترى . والمريخ ،

وعطارد ، والزهرة ، وفى الباب الثامن يذكر آراء المنجمين والفلاسفة القدماء فى الفلك والبروج والكواكب ، وعلاقة الكواكب بعناصر العالم ، مثلاً ، علاقة الكواكب بالأمكنة :

زحـــل : له الجبال اليابسة التى لا تنبت .

المشترى : له الأرضون السهلة .

المريـــخ : له الأرضون الخشنة .

الشمس : لها الجبال ذوات المعادن

الزهـرة : لها الأرضون الكبيرة والأنهار والمياه .

عطـارد : له الرمال .

القمـــر : له كل قاع وأرض مستوية .

وهـذا الجزء يعد مـوسوعـة علمية مصغـرة لعلـم الفلك ، وهكـذا ينتهى الجزء الأول مـن الكتاب .

* * *

طـل الأسحـار

عنوان الجزء الثانى « طل الأسحار على الجلنار فى الهواء والنار ، وجميع ما يحدث بين السماء والأرض من الآثـار » ويعتبر امتدادًا للجـزء الأول ، إلا أن موضـوعاتـه يغلب عليهـا الطابـع العلمى أكثر ، ينقسم هذا الجزء إلى عشرة أبواب ، الأول مخصـص للفصول الأربعة ، ومما قيل فى الربيع ، أبيات ابن الرومى :

ونــرجــسٍ كــالثغــورِ مبتســمٍ ... لــه دمــوعُ المحــدّقِ الشــاكــى

أبكــاه قَطْـرُ النــدى وأضحكَـهُ ... فهـو مـن القَطْرِ ضاحـكٌ بـاكـى

ومما يـذكره المؤلف عـن الصيف أصنـاف المراوح ، فمنها مراوح الخوص ، ومـراوح الأديم ومراوح الخيش ، أمـا الخريف فقـد سُمى خـريفًا لأنّ الثمار تُخرّفُ فيـه أى تجنى وتقطـع ومنه اشتق الخَرَفُ للشيخ ، وهوذهاب العقل ، ومما قيل فى الخريف ، ما أنشده ابن المعتز:

هـــات كــأس المدامِ فى أيلـــولِ ... بَــرَدَ الظـــلُّ فى الضحـــى والمقيـــلُ

وخَبَــــتْ جَمْرَةُ الهواجـــرِ عنّـــا ... واسترحنـــا مـــن النهـــارِ الطـويـــلِ

وخـرجنـــا مـــن السمـــوم إلى دو ـ ... ح شمالٍ وطيـــبِ ظـــلّ ظليـــل

ونسيـــم يبشر الأرض بـــالقطــــ ... ر كـــذيـــل الغـــلالـــة المبلـــول

وكـأنـــا نـزداد قـــربًا مـــن الجنـــ ... ـــة فى كـــل شـــارقٍ وأصيـــل

ووجـــوه البـــلاد تنتظـــر الغيــــ ... ـــث انتظارَ المحبُّ رَجع الرسـول

ويمدح أبوهلال العسكرى الشتاء فيقول :

لستُ أنسى منه دماثة دَجْنٍ ثمَّ من بعده نضارة صَحْوِ
وجنوبيّا تبشرُ الأرض بالقطر كما بُشّر العليلُ ببرد

وقال الأصمعى إن العرب كانت تسمى الشتاء « الفاضح » ، وقيل لأعرابى وقد هجم البرد : ما أعددت لهذا الفصل الضارب بجرانه ؟ قال « أعددت له عُرْى المتنين . وحفاء القدمين ، وقلقلة الفكين . ودمع العينين ، وسيلان المنخرين ، مع شدة الرعدة ، وقرفصاء القعدة وذرب المعدة وكسوف البال ، وفرط البلبال ، وقلة المال ، وكثرة العيال وقيل لأعرابى ، ما أشدُّ البرد ؟ قال : إذا أصبحت الأرض ندية والسماء نقية . والريح شآمية .

ورُئى أعرابى يرتعد يوم قر فقيل له : تحول إلى الشمس . فقال : الشمسُ اليوم تحتاج إلى قطيفة .

* * *

البرق وحنين العرب به إلى أوطانهم ، والغيم ، وقوس قزح ، والمطر وآراء الفلاسفة فى الثلج والمطر والبرد والجليد ، كل هذه الظواهر يتوقف أمامها المؤلف طويلاً ، ويذكر ما يختص بها فى النصوص الدينية ، والأدبية ، والعلمية ، طبقًا لمنهج الكتاب ، كذلك يفرد الباب السابع للرياح أنواعها ، ومواعيد هبوبها ، وأسمائها ، وما قيل فى كل منها شعرًا ونثرًا ، أما الباب الثامن فيتناول فيه النار ، ونار النفط ، والصاعقة ونار الفحم والكوانين .

قال العلماء : ليس فى العالم جسم صِرْفٌ غيرُ ممزوج ، ومرسَلٍ غيرُ مركّبٍ ، ومطَلَقٌ القوى غير محبوسٍ ، أحسن من النار ، ويقال شرابٌ كأنه النار ، وامرأةٌ حسناءُ كأنّ لونَ وجهها لونُ النار ، وقالت أعرابية : هذا والله وأنا أحسنُ من النار ، ويقال لمن يُوصفُ بالذكاء : ما هُوَ إلا نارٌ موقدة .

قال بعض الحكماء ، النيران أربعة نارٌ تأكل وتشربُ وهى نارُ المعدةِ ، ونارٌ تأكلُ ولا تشربُ وهى النار الموقدة ، ونارٌ تشرب ولا تأكل وهى نار الشجر ، ونارٌ لا تأكل ولا تشرب وهى نار الحجر ، يتوقف المؤلف طويلاً أمام ألوان النيران وارتباطها بمصادرها وأنواع الدخان ، وألوانه ، ثم ينتقل إلى أوصاف الشموع والفوانيس والقناديل والثريات والسراج ، وبمناسبة السراج يروى المؤلف حكاية لقاء البنى باليكى يقول :

« كان أبو جعفر أحمد بن البنّى ، معاصرًا لليكى ، وكلاهما علم فى زمانه فى الأدب ، وكان كل منهما يتمنى لقاء صاحبه ، فرحل كُلٌّ منهما للقاء صاحبه ، فاتفق أنْ وصل البنى فى ليلة مطيرة ذات برد وريح إلى الجزيرة الخضراء بعدوةِ الأندلس ، وقد أمسى ، فقصد خانا وقد

أغلق الخانى بابه ، فقرع الباب فلم يُفتح له ، ولم يكن قدومه متوقعًا فى ذلك الوقت على تلك الحال من المطرو الظلام . وألحّ فى طلب البيات ، وسأله التجار أن يفتح له ففتح له ، فدخل فلم يجد موضعًا سوى بيت لا عهد له بساكن مدة طويلة ، فكنس له فيه موضعًا وأغلق بابه عليه ونام ، ثم دُقّ البابُ على الخانى ، وإذا بآخر فى مثل حاله قد قذف به الليلُ والسيل إلى الخان ، فضجَّ الخانى ، وأقسم ألا يفتح ، وضجَّ الواردُ من السيل والمطر وألحّ ورحمه التجار ورغبوا إليه أن يفتح له ، فدخل ، فأرشده إلى البيت الذى فيه الوارد الأول ، فدخل عليه وسلّم وهما فى الظلام ، فقام له الأول وآثره بموضعه الذى كنسه لنفسه ، وهيأ له غيره ، ، فعندما أخذا مضجعيهما اجتاز بهما الخانى والسراج فى يده يطوف به زوايا الخان فدخل عليهما ضوء السراج ، فتحركت القوة الشعرية للبنى فقال بديهة :

ومصباح كأن النور فيه محيّا من أحِبُّ وقد تجلّى

فبادر الآخر وقال مجيزًا له :

أشار إلى الدجى بلسان أفعى فشمر ذيله جزعًا وولّى

فنهض البنى وقال : تكون اليكّى ؟ . فتبسم اليكّى وقال : تكون البنى؟ وتعانقا وتعارفا ، وعرفهما التجار ، فلم يصبحا إلا على حالة رفاهية من المال والقماش مما جعل لهما التجار ، وسمع بهما والى المدينة ، فأوسع لهما وأحسن إليهما ، وأقاما مدة مجتمعين وافترقا على أحسن حال .

* * *

هذا ما وصلنا من الملخص الذى قام به ابن منظور لموسوعة التيفاشى ، مجرد جزأين صغيرين لكنهما عامران بالأدب ، بالنثر ، بالشعر ، بالمعارف القديمة ، تُرى فى أى مجاهل ترقد المجلدات العشرة التى تكوّن مختصر ابن منظور . أم أنها اندثرت إلى الأبد ؟

مـقـامـات يمنيـة

يومًا بعد يوم ، يـزداد إيماني ويقيني بخصوصية القص العربي بتفـرد أشكال الحَكْي ، وما وما موقعنا الآن من هذا التراث الخصب إلا كـواقف على شاطئ بحر ممتد ، مجهول ، لم يُكتشف بعد . لم ندرك بعد كُل دُره ونفائسه .

أقول هذا بعد طول ممـارسة ، وطول اطلاع وسبر مجاهل طال انقطاعنا عنهـا ، منذ أسابيع لزمـت كتابًا جـديدًا ، نفيسًـا ، صدر منذ عـامين فى صنعاء اليمن ، واستغـرق هذه المسـافة الزمنية الممتدة حتى وصل إلى القاهرة بشكـل استثنائى خلال معرض القاهرة السنوى ، وسُقيا لأيام خـوالٍ بعيدة جـدًا ، لم تكن فيها طـائرات ، ولا وسائل نقـل الكترونية ، كـان المخطوط ينسخ فى الأزهر أو الـزيتونة ، أو القرويين ، أو دمشق ، أو بسوق الـوراقين فى بغداد ، فيصل أطراف العالم العربى أو الإسلامى بعد أوقات جد قصار ، الأوقات التى تستلزمها حركة الجمال والقوافل لا غير ، لم تكن هنـاك رقابة ، أومعاملة للكتاب على أساس أمنـى ، هكذا وصل بنا الحال فى عصر التقـدم ، لكن هـذا مـوضوع آخـر ، التفصيـل فيـه يطول ، والخوض فيـه ذو محاذير، فلنرجئه . . لعل وعسى، ولنتوقف لحيظات عند هذا الكتاب .

* * *

« مجموع المقامـات اليمنية » ، جمع وتحقيق ، عبد الله محمد الحبشى ، يضـم ثمانيا وثلاثين مقامة فـريدة ، تختلف تمامًا عـن مقامات بديع الـزمان الهمذانى والحريـرى والزمخشرى ، وما وصلنا من مقامات أندلسية ، اختلاف لا يقتصر على الشكل فقط ، ولكن فى المضمون أيضًا ، واليمن بلد غنى ، ثـرى بالتراث ، منه جاء كتاب « التيجان » لعبيـد بن رية الجرهمى ، الذى أعتبره عملاً فنيًا ، روائيًـا ، شديد الخصوصية ، ومـا يزال التراث القديم حيًـا يُروى فى القرى التى تقـف عند الحد الفاصـل بين القمة والهوة ، بين المادة والفراغ ، أو على سفـوح الجبال ، راقد فى بطـون المخطوطـات القابعة فى خـزانة الجامع الكبير بصنعـاء ، أوهذا المسجـد العتيق المدثر بالـزمن فى بلدة « مُشلا » ، والذى ما زال لـون الضوء فى فراغه الرخيـم يتراءى أمامى ،

سواء وليت شرقًا أو غـربًا ، أولزمـت مكانـى ، كل ما أرجـوه أن تتواصـل جهود جمع التراث اليمنى التـى يقودها واحد مـن خيرة المثقفين العرب ، الدكتور عبـد العزيز المقالـح ، قبل أن تطمر بوسائل التحديث ، التليفزيون ، السينما ، وما شابه !

كان لأهل اليمن تقدير كبير لمقامات الحريرى ، وفى كتبهم الأدبية تتناثر الإشارات إليها ، يقول من ترجم للعلامة أحمد بن عمر المزجد المتوفى ٩٣٠ هجرية .

« كان إذا سئـم من القراءة والمطالعـة استدعى بمقامـات الحريرى فيطالع فيهـا ويسميها طبق الحلوى . . » .

ونمضى مـع شروح أدباء اليمـن لمقامات الحريـرى ، فنجدهـا تقرر فى دروسهـم العلمية وبرغم تأثرهم وإعجابهم بها ، فلم يقلدوها عندما شرعوا فى إنشاء مقاماتهم هم ، فى المقامات اليمنية لا يـوجد بطل واحـد محورى ، مثل « أبو » الفتح السكنـدرى وعيسى ابن هشـام عند الهمذانى ، أو الحارث بن همام « وأبـو » زيد السروجى عند الحريرى ، فى اليمن نفـاجأ بنوعية جديدة ، بطلها فريد ، ليس فى الأدب العربى وإنما فى إطار الأدب العالمى ، مرة يكون البطل إنسانًا عاقلاً ، ومرة يكون حيوانا ، ومرة يكون جمادًا ، أو عنصرًا من عناصر الطبيعة كالهواء أو البحر أوعنصرًا معماريًا كالمسجـد والبناء ، أو مكانيًا كالضاحية والمقـاطعة ، ويضفى المؤلف على هذه العناصر أحاسيس إنسانية ، ويُنطقها بمشاعـر شتى ، وهذا أمر فريد ، ولتوضيحه يجب استعراض موضوعات المقامات .

* * *

المقامة الأولى بعنوان « المفاخرة بين الشمعدان والقنـديل » . ويغلب عليها الطابع اللغوى ذو الطابع الدينى ، وتنتهى بالمصالحة بين الطـرفين المتنازعين بعد أن يستعرض كل منهما مزاياه وينتقد عيوب الآخر ، يرجع تاريخها إلى القرن السـابع الهجرى ، أما مقامة « كاشف الغمة فى المفـاخرة بين النخلـة والكرمـة » فيدور الحوار فيهـا حادًا ، ويستعين كـل طرف بـالأحاديـث النبـوية ، والآيـات القـرآنية ، وينتصـر المؤلـف محمـد بـن أبى القـاسم النجـدى (٨٢٥ هـ ـ ٨٧٤ هـ) للكرمة .

« فلما قرع النخلة ما خرس لسانها عن الجواب وعلمت أنه ذهب بها عن منهاج الصواب ، أخذت تلوم نفسها حيث لا ينفع الملام والباحث عن حتفه بظلفه جدير بأن يُلام . . » .

وفى « المقامة المنظـرية » لإبراهيم بن محمـد الوزير (توفى ١٠١٣ هـ) ، وفى مقـامة «أقراط الذهب فى المفـاخرة بين الروضة وبئـر العزب » للأديب عبـد الله بن على الوزير ، نجـد طرفى المقامة مكـانين ، فالروضة وبئر العزب ضـاحيتان لصنعاء ، وهناك مقامة أخـرى حول نفس

الموضوع للأديب الخفنجى (توفى ١١٨٠ هـ) ، أما مقامة «الطراز المذهب» لابن أبى الرجال (توفى سنة ١١٣٥ هـ) ، فأبطالها مساجد تشكو أحوالها بعد نضوب أموال الأوقاف ، والصياغة على مستوى فنى عال ، يعتمد على الحبكة الفنية والحوار الأدبى رفيع المستوى ، وفى المضمون قدر هائل من الجرأة فى نقد الأوضاع نشك فى أنه يمكن تحققه فى أدبنا المعاصر خشية ردود الأفعال والمصادرة وضيق الأفق الذى استشرى فى حياتنا الأدبية والفكرية .

* * *

« فقصد مسجد (جناح) وأوضح له الشكية غاية الإيضاح ، وطلب منه أن يواسيه أو يشير عليه بالنصيحة أو يؤسيه ، فأطرق (جناح) إطراق الأفعوان ، ثم رفع إليه رأسه بعد زمان وقال : قد عرفت ضعف حالك وركة مسعاك وخيبة آمالك ، وأنا وأنت من زمن الأتراك ، ولا يريد لنا الناظر غير الهلاك ، فنزِّل نفسك منزلة الغريب وسيأتيك الفرج عن قريب ، فكم كربة فى غربة ، ومنيّة فى أمنية ، وهكذا حال الغريب إذا ظعن عن الوطن والحبيب . . » .

يشكو مسجد آخر ولكن شعرًا فى مقامة نظمها عبد الله الشامى ، وتشكو مساجد الحُديدة شعرًا فى مقامة أخرى نظمها صائم الدهر الأهدل ، ونلاحظ هنا جرأة أدباء اليمن فى النقد الاجتماعى والسياسى ، ويضفى الحوار بين أطراف متعددة حيوية وطرافة على النص الأدبى . ومن أغرب المقامات تلك التى جرت على ألسنة الحيوانات .

* * *

كتب الأديب يحيى بن إبراهيم جحاف (توفى ١١١٧ هـ) مقامة على لسان بقرة ، وسماها بقرة السيد إسماعيل بن محمد زين العابدين ، يقول :

« وكانت من المتوكلات على رب العالمين ، جوابة ، طوافة ، كثيرة التنقل من حافة إلى حافة ، قالت : خرجت فى بعض الأيام من السافل لا لتقاط فضلات المآكل ، والتعرض لما يسره الله من الغساول ، فما زلت أطلب المعيشة وانتقل من ريشة إلى ريشة ، حتى شاعت فى المقالة وعرفت بالبقرة الجلاّلة .

وتمضى البقرة تقص لقاءها ببقرة أخرى ، ويدور حوار جاف بينهما ، وتختمه بقرة السيد إسماعيل قائلة .

« وخرجت من عندها وقد يبس ريقى وجهلت طريقى ، ورأيت عدوى فى ثياب صديقى ، وجرت من عينى دمعة ، وفعلت لى فى العالم سمعة ، وليتها قربت لى قليلاً من

الرقعة . ونويت أنى لا أوجه إليها الكلام ولا أسلم عليها ما حييت السلام ، ولا أعود إليها ولا أعود عليها . . » .

وللأديب نفسه مقامة أخرى فى الكتاب ، بعنوان « مقاومة فى انقراض الدولة المتوكلية ، وفيها نجد درجة رفيعة من النثر العربى ، أما مقامة إحراق الكتب فمن النصوص الجميلة الفريدة ، لذا اتوقف عندها قليلاً . .

* * *

كتبها محمد بن إسماعيل الأمير (١٠٩٩ هـ ـ ١١٨٢ هـ) ، يبدو أنه كتبها بعد حادثة تعرضت فيها الكتب الأدبية للاضطهاد ، يقول فى مفتتحها :

« الحمد لله المؤدب بأحسن الآداب ، والصلاة والسلام على من قال « إنه لا يعذب بالنار الأدب الأدباب » وعلى آله الذين آدابهم ألطف من « نسمة السحر » فى الروضة الندية ومفاكهتهم ألذ من الحدائق الوردية . وبعد فإنه ورد إلينا سؤال دامع العين لاطمًا للخدود . قائلاً « يتيمة الدهر » قد أوردت النار وبئس الورد المورود . طالبًا للجواب فيما يلزم من ارتكب هذه العظيمة وما جزاء من عذَّب بالنار تلك اليتيمة . فأقول : إن صح ما قاله من تحريق تلك العذراء التى من (الحور العين) ومن إلقائها فى النار كأنها من قرناء الشياطين ، فأقسم بـ(دمية القصر) مقلدة (بقلائد العقيان) و(سلافة العصر) ، يديرها الفتح بن خاقان ، لقد ذوى (ريحانة الأدب) و (روضة المشتاق) بما ارتكب من عظيم التمزيق والتحريف والإحراق ، وأقلعت سحب (الغيث الذى انسجم) . وصاح ديوان الأدب : يا الله للمسلمين ، أيهان فيما بينكم الأدب ويهتضم ؟

ويمضى الحوار على ألسنة أشهر كتب الأدب العربى ، إلى أن يقول المؤلف فى النهاية :

« إن هذه الجناية تقصر عن جواب السائل عنها علماء الرواية والدراية ، وأنه لجدير بأن تسفك فيه دماء المحابر وتراق ، وأن تقوم الحرب بين ذوى الآداب منهم على ساق ، فلينصِّل السائل المقال ، وليوضح من أى الطرفين وقع السؤال ، بعد أن يصلى ويسلم على محمد وآله خير آل . . » .

* * *

ونمضى مع المقامات اليمنية ، « براهين الاحتجاج والمناظر فيما وقع بين البندق والقوس من المفاخرة » لإبراهيم الهندى ، و « المفاخرة بين الشمعة والسراج » لحسين بن صالح ابن

محمد أبى الرجـال ، « والمفاخرة بين العجائز والبنات » لعلى الخفنجى و «المفـاخرة بين العنب والخل » لمحمد الأمير ، و « المفـاخرة بين القرط والعقـد » لمحسن بـن عبد الكريـم اسحاق . و«مسامرة الـرفاق فى مناظرة القات والتنباق » للفقيـه عفيف بن هبة القاضـى ، و«المفاخرة بين الثور والحمار » لعمـر بن عبـد الله المعلمى ، هكـذا تنطق كـل عناصر الـوجود، المتكلـم منها والأعجم ، عناصر البر والبحر وهذا الشكل من الإبـداع ليس منبت الصلة بالأدب العربى . فى الأقطار الأخرى ، نجد ملامح قريبة فى مقـامات السيوطى ، وفى التراث العربى الأندلسى نجد نصًا لابـن الخطيب يتضمن مفاخـرة بين بلدتى مالقـة وسلا ، وثمة نص آخـر لابن عبد الظاهر يتضمن مفاخرة بين دمشق والقاهـرة ، ويشير عبد الله الحبشى جامع المقامات اليمنية أن هذه النماذج السـابقة لم تصغ فى شكـل قصصى ، إنما كتبـت مباشرة على هيئة حـوار ، أما المقامات اليمنية فتتضمن صيغا أدبية قصصية فريدة ، ومتكاملة ، ولكم نتمنى الاهتمام بها ، وإعادة اكتشـافها ، أم . . لا بـد من الانتظار، حتـى يقع عليهـا أحد البـاحثين فى الغرب ، عندئذ تتبدل النظرة ، وتتضح القيمة التى تغيب عن الكثيرين الآن ؟

زخـرفة .. ألـف ليـلة

مدينة فاس ، ١٩٧٩ . .

أحد أيام ديسمبر ، أى منذ خمس عشرة تقريبًا ، وقفت فى فنـاء مدرسة العطارين ، أتأمل النقوش التى تغطى الجدران ، قطع الزليج الدقيقـة . المختلفة ، التى تشكل وحدات زخرفية رائعة ، متصلـة ، منفصلة ، لا نهائيـة ، تبقى النـاظر إليهـا فى تأمـل دائم ، أما المقـرنصات الجصية ، والخشبية ، فتتراكم فى تجاور بديع ، لا يلغى خصوصية كل منها .

يومها انبثق داخلى الخاطر ، لو أننى أقدر على تحقيق ذلك فى النثر ، أكون حقًا أنجزت أمرًا فريدًا ، على مستوى اللغة ، أو على مستوى التكوين ، وبالأخص ، المعمار الروائى ، ولأننى أؤمن أن الروايـة هى فن كل الفنون ، لم يزل هـذا دأبى ، وجوهر جهدى ، يـدفعنى إلى ذلك الرغبـة فى تحقيق الخصوصية ، مـن خلال عناصر مختلفـة ، متصلة أوثق الصلة بـالمضمون ، بمشاعـرى ، برؤيتى للحيـاة والكون ، ومحاولتـى النفاذ إلى كنه الصيرورة . صيرورة الـزمن ، والوقت .

ومع معايشتى لألف ليلة وليلة ، اكتشفت أن القصـاص القديم حقق هذا بالفعل ، وأن الرؤية التـى كانت تحكم الفنـان العربى المسلم ، سواء كـان خطاطا ، أو رسامًـا ، هى نفس الرؤيـة التى كمنت فى عمـل الراوى القديـم المجهول الذى صـاغ هذه الحكايـات . أو تلك الملاحم الكبرى ، مثل الهلاليـة ، وسيرة سيف بن ذى يزن ، وذات الهمـة . وعنترة . واستمر فى التوقف عند ألف ليلـة وليلة التى اعتبرها ذروة فن القص العربى ، وعنـدما أقول العربى ، فإننـى أعنى التراث الثقافى والفنـى الداخل فى عنـاصر تكوين الثقـافة العربيـة . والمنتمى إلى حقب تـاريخيه مختلفة ، وديـانات متعددة ، وحضارات متعـاقبة ، متجاورة . ومـؤثرات . . وافدة ، متفاعلة من ثقافات أخرى .

* * *

يقـول الباحـث التونسـى الأستاذ على اللـواتى ، إن التجـريد الـزخرفى ، بـدأ من تبسيـط

الأشكال النباتية ، بـدأ هذا الفن انطلاقه فى العصر العباسى ، وتحول الفـن الإسلامى فى جزء كبير منه إلى فن نقشى يجسد كلام الله . ناشرًا آياتـه فوق كل شىء يصنعه الإنسان، كما أصبح فنًا للـزخرفة النبـاتية والهنـدسية ، زخرفـة مطلوبة لـذاتها ، لا لمجرد التـزين . وهو أيضًـا فن خصب ومتنـوع بشكل مذهـل ، ويرمـى هذا التزويـق بتنوعه الخارق ، وإيقـاعه المتـواصل « ذهنيًـا » خارج المادة التـى تحمله ، إلى إيجاد متعـة منقطعـة النظير ، تتصل بـالتأمـل فى الله ، المقتدر غير المحـدود الذى يعجـز الإنسان عـن وصفه ، وذلـك بعيدًا عـن أى شكل طبيعـى معروف ومحدد ، يمكن أن يلهى الإنسان عن وجهه الكريم .

لقد أدت النصـوص المقدسة والقائلـة بتحريم التشبيه إلى إيجاد فـن بالغ الخصوصيـة قائم بذاتـه ، ولا يتعارض مع أحاديـث النهى عن التصويـر ، لقد لجأ الفنان المسلم إلى عـدد من الأساليب التشكيلية التى ترمى إلى الابتعاد عن نقل الواقع كما هو إلى الصورة .

ويرى الباحث الأوروبى الكسندربابا دوبولو ، أن الفنان المسلم تكيف مع مطالب النهى الدينـى ، وأدى هذا إلى تصور خـاص جدًا للعمل الفنى فى الحضـارة الإسلامية وهـو أن هذا العمل ينبغى ألا يكون مـرآة أمينة للعالم المرئى ، بل عالمًا خاصًـا مـن الأشكال والألوان يحكمه منطق تشكيلى داخلى . ويـؤكد بابا دبـولو فى بحثه الـذى ناقشه فى جـامعة السوربون وتـرجم مقدمته على اللواتـى « أن الفنان المسلم قد اخترع جمالية الفن الحديث قبـل ستة أو سبعة قرون وأن « جوهر كل فن وقانونه الأسمى هو أن يكون عالمًا مستقلاً وألا يخضع إلا لمنطقه الخاص » .

* * *

عنـدما صـاغ الفنـان التشكيلى المسلم رؤيتـه تلـك ، كان يستمـد عنـاصرها مـن التراث الإنسانى القـديم ، وإذا نظرنا إلى الأشكال الرئيسيـة فى فن الزخرفة العربـى سنجد أصولها فى ثقافات العالم القديـم .

المربـع ، أصله يـونانـى ، ويرمـز إلى العناصر الأسـاسية الأربعـة التراب ، الماء ، الهواء ، والنيران .

أمـا المثلث فينحـدر مـن العصر الفرعـونـى ، يعبر عن الصلـة بين السماء والأرض . بين البداية والنهـاية التى تتلاشى فى نقطة مـن الفراغ ، نقطة اتصال المادة بالروح ، اليـس هذا ما يوحى به بناء مثل الأهرام . واعتقد أن المثلث الفرعونى هو الأصل التاريخى للنجمة السداسية التى أخذها الإسرائيليون واعتبروها رمزًا لهم .

أما الدائرة فأصلها مصرى وهندى ، تـرمز إلى الشمس ، إلى أفق السماء ، إلى الوحدة، إلى البداية والنهاية ، إلى الاتصال والانفصال ، فى كل نقطـة من محيطها تبدأ وتنتهى أيضًا . تمامًا

كدورة الحياة ، كالحياة التى تتضمن الموت والموت الـذى تنبعث منه الحياة . إنها المحيط الذى يدور حول المركز . .

فلنعتبر أن الحكايـة التى تبدأ منهـا قصة شهرزاد نفسهـا هى مـركز الدائرة ، وهـى منطلق الخط المستمر ، اللانهائى ، الذى يحيط ويتخلل أيضًا ما تحويه الليالى من حكايات .

داخـل الـدائرة يمكن أن يتـم فى فـراغـه تشكيـل المربـع ، والمثلث ، وشبـه المنحـرف ، والمستطيل ، ثـم تتجـزأ المساحات الناشئة إلى مالا نهايـة ، أما شكل اللولب ، المستـوحى من كرمـة العنب فأصله سـومرى ويونًا نـى ، أما المخمس فيـونانى ، والمثمن فينسـب إلى الخاتم السليمانى .

ثم تقـابلنا بقيـة الأشكال مـن عقد ، وضفـائر ، وأطباق نجميـة ، وشبكات ، وتختلـط المؤثرات المنحـدرة من فنـون العالم القديـم ، منصهرة فى رؤية الفنـان المسلم الجديـدة ، التى حققت بالفعل الخصوصية . .

* * *

لا يعنى ثبات هذه الأشكال جمود الفن الإسلامـى الزخرفى ، ومضيه وفقًا لقواعد محددة ، إنما كان همُّ الفنان وشغلـه الشاغل البحث عن تكويـن جديد مبتكر يتولد عـن تماس قواطع الزوايا ومزاوجة الأشكال الهندسية لتتوالد باستمرار فى حيوية وتدفق لانهائيين . ويقابل هذا فى الف ليلـة الوحدة والتنوع ، فـالعمل يحفل بمئات القصـص التى تختلف شكلاً ومضمـونًا . عوالم متتابعة ، تبدو متصلة ، لكنها مستقلة .

فى الرسم الزخـرفى الإسلامى ، تتأمل الوحدة ، وفى اللحظة التـى يخيل إليك أنها انتهت ، تفاجأ عنـد نقطة معينة فى الفراغ أن الوحدة التـالية تبدأ . تمامًا كقصص ألـف ليلة وليلة . إذ توشك الحكاية على التمام ، على الاكتمال ، تبدو جهة وكـأنها عارضة ، يضرب مثل وكأنه قيل مصادفة ، كلمات قليلة لكنها تؤدى إلى بداية حكاية جديدة ، والدافع يكون غالبًا الحكْى من أجل النجاة .

شهرزاد تقـص كل ليلـة ما يقـرب من ثلاث سنـوات متصلة حتـى تنقذ نفسهـا ، وبنات جنسها .

التجار الثلاثة يحكى كل منهم ما جرى له ، مع الغزالة ، والكلبتين ، والبغلة ليعفو الجنى عـن صـاحبهم . هكـذا الأمـر فى قصـة الحمال والبنات الثـلاثـة . هـذه القصة التـى أدعـو المتخصصين إلى دراستها . وتحليل عناصرها ، ومقارنتها بالأشكال الزخرفية العربية ، مبدئيًا .

سنجد أنها تحتوى على اثنتى عشرة حكـاية متداخلة ، تشبه النجمة الزخـرفية الأثنى عشرية . لكن هـذا التقسيم ليس نهائيًا ، فلـو أمعنا النظر سنجـد أنه من الممكن تجزئ هـذه القصص المتـداخلة إلى أخـرى . وعنـدما تـوشك القصـة المركـزية المحيطـة على الانتهـاء ، تبدأ قصـة التفاحات الثلاث ، ومنها تتفرع حكاية المرأة التى قتلت ظلمًا ، وحكاية الوزيـرين نور الدين المصرى ، وبدر الدين البصرى ، ومـن ثم حكاية حسن البصرى ، ثم حكايـة ابنه . وحكاية زوجته ، ثم تبدأ قصة الأحدب الذى يتهم بقتله أربعة الواحد تلو الآخر، لكل منهم حكايته، آخرهـم المزين الذى يقـص سبع قصص ، كل واحدة تتعلق بأحد . أخـوته ، وهكذا إلى مالا نهاية ، حتى وإن بدا ثمة خاتمة فإنها تتضمن بداية جديدة . .

* * *

تمضى الخطـوط فى فن الزخرفـة العربى وفقًا لنظـام خفى ، صارم ، لكنه تلقـائى أيضًا ، يتقاطـع الخط بالخط عنـد نقطة معينة فكـأنه تقـابل المصائر ، وفى اللحظـة التى تلتحـم فيها النقطة بالنقطة ، يقع الفراق ، فتتخذ الخطوط وجهات شتى .

وخلال هذا التلاقى والتفرق تتوالد الأشكال المختلفة . من مربعة ومخمسة ومسدسة ، من هندسية وأخرى مورقـة . إن الغاية من التكوين هنا هى التعبير عـن الكل. وليس إبراز شكل معين لذاته . لكن هذا الكُل أيضًا يحتـوى على الموجودات ، والتفاصيل الصغيرة ، الدقيقة ، وربما يفسر هذا المنظور الإسلامى فى المنمنمات التى تزين المخطوطات القديمة ، حيث تتجاور المستويات ، ويتفرع كل منها عن الآخر ، فترى الواقع فى جملته ، وليس فى محدوديته ، وإن لم يغب عن الناظر أدق التفاصيل .

* * *

من خلال معايشتى لألف ليلة وليلة ، أقـول بوجود صلة وثيقة بين فن العمارة الإسلامية ، وفن الزخرفة العربى ، صلة نتاج تكوين خاص ورؤية لعل إدراكها والوعى بها يسهمان فى فهـم عناصر القص العـربى واستيعابها من أجل الوصـول إلى أشكال خاصة تسهم فى إتاحـة فرصة أكبر ومساحة أوسع للتعبير .

مـا طرحتـه يمثل الخطـوط العامـة لاجتهادات شـديدة الخصـوصية تبلـورت عندى أثنـاء معـايشتـى لهذا العمـل الفـذ الـذى أزعـم أن أسراره لم تتكشـف بعـد . ربما أصبـت ، وربما أخطأت، لكننى فى كل الأحوال أشير وأحاول لفت النظر . .

مدينة ألف ليلة وليلة

منذ فترة ليست بالقصيرة ، أعايش ألف ليلة وليلة . .

لا أقول قراءة ، وإنما معايشة . هذا دأبي مع القصص الأدبية العظمى . إن فى أدبنا العربى . أو الآداب الأخرى ، عرف معظمنا ألف ليلة وليلة منذ الطفولة ، سفر حكايات وأعاجيب . ومع بدايات المراهقة كنا نطالع سطورًا قليلة تحوى إشارات جنسية ، سطور جعلت الكتاب منبوذًا إلى حد ما حتى بعد حذفها من الطبعات الحديثة . بدأت فوضعت أمامى طبعات ثلاثا رئيسية اجتهدت زمنًا حتى اقتنيتها ، طبعة كلكتا ، طبعة بولاق ، وأخيرًا . . طبعة الدكتور محسن مهدى ، بدأت من الأخيرة مع أنها صدرت منذ سنوات قليلة ، وأين . . فى بريد ، دار النشر الهولندية العتيقة التى أصدرت عددًا من أهم المصادر العربية . هذه الطبعة تحوى أقدم نصوص مكتوبة ، عن مخطوطات محفوظة فى المكتبة الوطنية بباريس ، وأخرى توزعت على العديد من البلدان ، وفى حدود علمى فمحاولة الدكتور محسن مهدى الأولى من نوعها لضبط وتحقيق أصول النص . أما طبعة كلكتا فهى أقدم طبعة للكتاب (١٨١٤) . أما طبعة بولاق (١٨٣٥) فهى أشهرها ، لأنها كاملة ، ولأنها اعتمدت أصلاً خطيا واحدًا ، ولست هنا فى مجال تقييم الطبعات الثلاث ، أو تقييم الجهد العلمى الرائع الذى قام به الدكتور محسن مهدى ، إنما أشير فقط إلى بعض الانطباعات الخاصة المتولدة نتيجة معايشتى لهذا النص العالمى ، الذى تأثر به الأجانب أكثر مما تأثرنا نحن به ، والنقطة التى تعنينى الآن ، هى انعكاس الفنون العربية والإسلامية على تصميم الكتاب وبنيته الداخلية . بالتحديد ، العلاقة بين تصميم المدن العربية وفن الزخرفة العربى . وبين تصميم ألف ليلة وليلة .

* * *

القاهرة القديمة ، فاس البالية بالمغرب ، مراكش ، صنعاء العتيقة ، البصرة مدن عربية عرفتها ، وعايشتها ، فى الأولى أمضيت جل عمرى ، وفى الأخريات تجولت وشاهدت وعاينت ، فى عام خمسة وثمانين وتسعمائة وألف ولجت قصبة تونس ، شارع رئيسى مؤدى ،

عريض ، تمامًا مثل قصبة القاهرة التى كانت تصل بين بوابتها الرئيسية وقلعة الجبل ، هذه الطرق الفسيحة ، يتفرع منها خطط ، جمع خط ، أى طرق طويلة تحيط بناحية متكاملة ، وهذه الخطط تؤدى إلى بوابات ، كل مدخل إلى حارة ، والحارة داخلها مجموعة من الدروب ، والدروب تتفرع إلى أزقة ، أو زنقات كما تعرف فى المغرب ، وأحيانًا تحتوى على عطفة ، هكذا يتوالى تصميم المدينة العربية القديمة من الأفسح ، إلى الضيق فالأضيق ، طبعًا هناك مركز دينى وهو المسجد الجامع ، ومركز دنيوى هو قصر الحاكم أو القلعة . هذا تصميم لم يأت من فراغ ، إنما هو نتاج ظروف اجتماعية ، ومناخية ، ومعمارية ، وعسكرية ، ألم تؤد متاهات قصبة الجزائر إلى جعلها مقرًا للمقاومة ، صعب على الجند الغرباء اختراقها ، نفس الوضع واجهه نابليون فى القاهرة القديمة مما دفعه إلى محاولة إزالة أبواب الحارات . فى الطرق الكبرى تنتظم الأسواق ، هنا يجيئ المجموع ، يجد الناس حاجاتهم ، ولكن بيوتهم هناك فى داخل الحارات والأزقة والدروب ، حيث الحيوات الخاصة ، حيث يتجزأ العالم الكبير إلى عوالم صغيرة ، أما هذا التصميم فيؤدى إلى حجب الرياح المثيرة للأتربة ، الحارة ، إلى كسر حدتها ، إلى ميل الظل على الظل ، إلى الرحمة بالمارة ، والحد من التيارات الباردة فى الشتاء ، تصميم يبدأ من الكلى ، ويتجزأ ، حتى يدق ويخيل إليك أنه سيتلاشى فيبدأ عندئذ من جديد .

إذن . . كيف يبدو الأمر فى مدينة ألف ليلة وليلة التى تحوى البلاد والمحيطات والعجائب والغرائب ، والمصائر والحيوات . .

* * *

المركز . أو البؤرة هنا ، حكاية الأخوان الملكان ، الأول يرى امرأته تخونه مع عبد أسود . يهج يخرج قاصدًا أخاه ، يسعى إلى إيجاد تفسير ما جرى له ، وهناك يرى الجوارى العشر ومعهن امرأة أخيه مع العبيد السود ، ومن يرى مصيبة غيره تهون عليه مصيبته ، يحكى لشقيقه ما جرى ، فيخرجان هائمين ، وفى البر الفسيح تبدأ حكاية العفريت الذى وضع معشوقته فى صندوق محكم ، والتى تنتهز فرصة نومه لتجبر شهريار على مواقعتها . وبعد أن رأى شهريار ما رأى يعود إلى ملكه كارها النساء ، مقررًا الزواج من المرأة ليلة واحدة فقط ، حتى تتطوع شهرزاد للزواج منه ، مضمرة الخطة والنية على إنقاذ بنات جنسها ، وإزاء إصرارها يحكى لها والدها حكاية الحمار والثور ، تصر على قرارها ، فيحكى لها حكاية أخرى ، يريد إنقاذها بالحكاية وهى تضمر النية نفسها أيضًا ، تريد إنقاذ نفسها وبنات جنسها بالحكاية أيضًا ، فهى تحكى لكى لا تموت . وهنا سر توالى الليالى ، وليست هى فقط التى تفعل ذلك ، ولكن معظم الشخصيات التى تروى سيرتها يقدمون أيضًا على الحكى حتى لا يموتوا ويتزوج شهريار

من شهرزاد ، وتطلب هى من أختها دنيازاد أن تطلب منهـا قص بعض ما تعرفه ، هكذا تبدأ الليالى ، وهكذا تتم الحكاية المركز ، والتى هى أيضًا بمثابة المدخل ، البوابة الرئيسية المؤدية ، أو السور المحيط ، الملتف ، وهذه البوابة ، أو هذا السور ، ليس كلا واحدًا ، إنما يضم أجزاء عدة أيضًا . ولكنها أدق ، تؤدى فى مجموعها إلى الجزئى أيضًا . .

* * *

تبدأ الليالى فى أقدم نصوصها الخطية بحكاية التـاجر الذى رمى نواة البلح فقتل جنيًا بدون أن يقصد ، وظهور والد الجنى الذى يتوعده بالقتـل ، فيطلب التاجر مهلة سنة حتى يعود إلى أهله ويسدد ديونه للنـاس ، وبعد سنة يرجع فعلاً إلى نفس الموضع ويجلـس منتظرًا وهنا يقدم عليه ثلاثة شيوخ لكل منهم حكاية غريبة ، يرجو كل منهم الجنى أن يصغى إلى ما جرى له ، فاذا وجـده غريبًا يهب له ثلـث دم التاجر ، وتتفـرع أمامنا ثـلاث حكايات ، حكايـة الشيخ الأول وامرأته التى سحرته إلى غزالة ، والثانـى وأخويه المسحورين كلبين ، والثالث وابنة عمه المسحورة إلى بغلة ، تؤدى الحكايات الثلاث المتفرعة إلى إنقاذ التاجر .

هكذا . تنتهـى خطة أو حارة ، لكنهـا ليست سـدًا ، إنما تؤدى إلى حارة أخـرى ، ونقطة الأصل عبارة تـرد على لسان شهرزاد « وليس هذا بـأ عجب من قصة الصيـاد والعفريت» ، أو «أين هذا مما سأحدثكم به الليلة المقبلة » ؟ .

تبدأ الحارة التى تضـم حكاية الصياد الذى أخرج العفريت من القمقم ، فقرر العفريت أن يكافئه باختيار طريقة لموته ، يتحايل عليـه الصياد حتى يعيده إلى القمقم . ويرجوه العفريت الإفراج عنـه ، وهنا يتفرع درب مـن الحارة الرئيسية ، يحوى حكايـة يرويها الصياد عـن الملك يونان ، ولكن هذا الـدرب يتفرع إلى آخر ، فيه حكاية التاجر والببغاء التـى يرويها الملك يونان نفسه . وهـذا الدرب يؤدى إلى رحبـة صغيرة يخرج فيها العفريـت من القمقم ، بعـد أن يقرر مكافأة الصياد ، ثم تتفـرع الرحبة إلى عدة دروب وأزقة متداخلة ، فالعفـريت يقود الصياد إلى بركة السمك الملون ، « ومنها يأخذ الصياد أربع سمكات إلى السلطان ، لكل سمكة حكاية ، هذا يقـود إلى حكاية الشاب المسحـور ، ثم إلى حكايتـه مع زوجته التـى خانته ، ثم حكـاية المدينة المسحورة التـى تقع على بعد نصف نهار . . عنـد ذهاب الصياد بمفرده إليهـا ، ولكن عندما يصاحب السلطان ويقف على ما جرى فيها ، يكون الركب كله فى حاجة إلى سنة كاملة للعودة . (لننظر هنا إلى تحطيم الزمن والمسافات المكانية ، ولكن هذا موضوع آخر) .

ينتهى الخط الذى يحوى حكاية الصياد العفريت ، هذا الخط الذى تفرعت منه حكايات شتى ، كل منها بمثابة حارة ، درب ، زقاق ، عطفـة ، رحبة ، لتبدأ حكاية أخرى من أجمل وأعقد حكايات ألف ليلة ، وهى حكاية الحمال والثلاث بنات .

يلتقى الحمال بإحدى البنات فى السوق ، تقـوده إلى البيت حيث شقيقتيها ، يشترطن عليه إلا يتكلم عما يشـاهده ، ثـم يصل القرنـدليان ، ثـم يصل الخليفة هـارون الرشيـد ووزيره ، وهارون الـرشيد شخصية تتكرر كثيرًا فى حكـايات ألف ليلة ، إن ظهـورها يمثل أحد عـوامل الوحدة فى هذه المدينة الهائلة ، أو النغم الذى يتكرر على مسافات معينة ليؤكد وحدة العمل ، وتماسكه .

البنات يصرخن ، يضربن بعضهن ، ويجلدن الكلبتين السوداوين ، الخليفة لا يطبق صبرًا يريد أن يعرف حكـايتهن يدفع بالحمال كى يسأل ، البنات يغضبـن ، يستدعين العبيد السود السبع ، يأمـرنهم بقطع رقاب الضيوف ، ولكنهن يستفسرن عـن سبب عور القرنـدلية ، فتبدأ حكاية القرندلى الأول ، كيـف فقد عينه على يد الوزير ؟ ومنها تتفرع حكـاية أخرى ، عن ابن عم القـرندلى ، ثـم تتوالى حكـايات القرنـدلى الثانـى ، ثم الثالـث والتى يـرد فيها ذكـر جبل المغناطيس ، والقصر المعلق فى الهواء ، والجوارى الأربعين ، والباب التاسع والتسعين .

بعد انتهـاء حكايـات القرنـدلية الثلاث ، تقـص البنات الثـلاث ما جـرى لهن ، وتنتهى حكايـة الحمال والثلاث بنـات . ولكنها لا تـؤدى إلى جدار مسـدود ، إنما تبدأ منهـا حكايـة التفاحات الثلاث .

هكذا تتوالى الحكايات ، منها الرئيس ، والفرعى ، كل حكاية تؤدى إلى الأخرى يبدو الأمر تلقائيًا ، وكـأنه بدون ترتيب ، أو يخضع لتـداعٍ تلقائى ، ولكننا إذا أمعنا النظر سنجـد نظامًا محكمًا . صارمًا ، ربما لا يفصح عـن هندسة البِناء وحركته . واتجاهـات القارئ المتعجل ، أو الذى لا يقرأ ألف ليلة وليلة قراءة عميقة جـادة ، متعمقة ، غير متأهبة بنفس القدر الذى يتم به التأهب للتعامل مع نص أدبى نقل إلى لغتنا مما تعارفنا على تسميته بالأدب العالمى ! !

* * *

. . فى النـص الذى حققـه الدكتـور محسن مهـدى قصتـان مستقلتان ، لا يتفـرعان مـن حكايات فرعية ، إنما يتصلان بالحكاية الإطار ، الحكاية الكبرى التى محورها شهر زاد نفسها ، إنها حكايـة ابن بطـار والجارية شمـس النهار ، وحكـاية أنيـس الجليس ، ونـور الديـن ابن خاقان . أننى اعتبرهما بمثـابة ضاحيتين لمدينة ألف ليلة وليلـة الكبرى ، ضاحيتان منفصلتان لكنهما متصلتان .

« ولكن علاقة النص الأدبى بالمدينة العتيقة . لا يمثل الوجه الوحيد للتفاعل والتشابه بين الفنون العـربية المختلفة ، هنـاك فن الـزخرفة ، وتكـويناته ، ووحـداته المتشعبـة المنفصلة ، المتصلة ، ولهذا حديث آخر ، أبسط فيه بعضًا من انطباعاتى المتولدة نتيجة معايشة نص أدبى رفيع ، أتصور أنه ذروة ما قدمته الإنسانية من فن الحكى والقص . . » .

حـق الطـريـق فى الإسـلام

الفوائد النفيسة الباهرة
فى بيان حكم شوارع القاهرة

يقول أبو حامد المقدسى الشافعى فى مقدمة رسالته الصغيرة ما نصه :

« وبعد ، فقد وقع أوائل سنة اثنتين وثمانين بالقاهرة المحروسة حوادث عجيبة ونوادر غريبة كلها بإدارة الملك القهـار ، العزيز الجبار ، مكور الليل على النهـار ، والعالم بخفايا الأسرار ، فمنهـا قطع الطـريق بـالشوارع والأسـواق وهدم الحوانيـت والبيوت الخارجـة بحريـم المدارس والجوامع والمساجد البـارزة فى الشوارع المانعة للناس من تمام الارتفاق ، فانصلـح بذلك قصبة بين القصرين من القاهرة وغيرها من الشوارع بالاتفاق فاتسعت أقطارها وأضاءت ، وانكشف عنها السواد والظلمة وأشرقت وأنارت ، وزال عنها الغم والحصر والغبن . . . » .

وسبب ذلـك أنه فى سنة ٨٨٢ هجريـة ، بلغت الأوضاع المعماريـة حدًا مزعجًا فى مـدينة القاهرة . إذ سدت الطـرق والشوارع نتيجة قيام عدد كبير من النـاس ببناء بيوتهم أو منشآتهم بشكل لم يـراعوا فيـه ما يعـرف فى الإسلام بحـق الطريـق ، عندئذ قـام الأمير يشبك بهدم مـا يعترض مسالك الطرق ، وبالتالى ثار بعض الناس الذين لحقهم الضرر ، وهنا أقدم أبو حامد المقدسى على تأليف هذه الرسالة لتوضيح حق الطريق ، الذى يجب أن يتبع كيلا يحدث غبن أو هضـم ، فـأشار إلى أحكـام الفقهـاء وآرائهـم فى هـذا الموضـوع ، وتعرض لأنـواع الطـرق ونشأتها ، كما أوضح الأحكام المتعلقة بذلك .

الرسـالة ظلت مخطـوطة فى المكتبـة السليمانية باستـانبول ، إلى أن أقدمـت الدكتـورة آمال العمرى على تحقيقهـا ودراستها ، وإصدارهـا فى سلسلة المائة كتاب التى بـدأها طيب الـذكر الدكتور أحمد قدرى رئيس الهيئة المصرية العامة لـلآثار ، والتى طبع فيها عددًا من الدراسات التاريخية الهامة ، ولكن استمرارها توقف بعد تنحيته عن الهيئة .

هذه الرسالة الفريدة الصغيرة تكشف جانبًا هامًا من جوانب الحضارة العربية والإسلامية . وبعدًا يضيئ إنسانيتها .

حـــق الطريـــق

لتأكيد وإضفاء الطـابع الإنسانى على المدينة . أشارت تعاليم الإسـلام إلى « حق الطريق» وحثت على مراعـاة ذلك الحق ، ومن ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلـم ، قد أشار بهدم ما يعترض الطـريق حتـى ولو كان مسجـدًا . راعى حكام المسلمين هـذه القاعـدة فى مختلف العصور ، عنـد بناء مـدينة البصرة سنـة ١٤ هـــ ٦٣٥ م ، أشار الخليفـة عمر بـن الخطاب بالقدر الذى ترتفع إليه المبانى ، ولا شك أن هناك علاقة وثيقة بين المبانى والطرق المطلة عليها خاصة وأن المبـانى لا تنشأ فى الفراغ اللانهائى ، لكنهـا ترتبط بالشوارع المطلـة عليها . وتقول الدكتورة آمـال العمرى فى مقدمتها ، إن الخليفة العباسـى أبا جعفر المنصور عند إنشـاء مدينة بغداد سنة ١٤٥ هــ ٧٦٢ م ، شكل شوارعها واتسـاع طرقاتها بما يتناسب وعاصمته الجديدة التى نمت بعد ذلك وأصبحت من أعظم المدن الإسلامية . كان تخطيط المدينة الإسلامية يقوم على أسس مـدروسة . وقواعـد معبّرة تعكسها تلك الشروط التى حـددها الفكر الإسـلامى ، ومن بين هذه الشروط ما يتعلق بالطرق ، فيذكر شهـاب الدين أحمد بن محمد بن أبى الربيع فى كتابه « سلوك المالك فى تدبير الممالك على التمام والكمال » الذى ألفه للخليفة المعتصم العباسى (٢٢٧ هــ ٨٤٢ م) ، ضمّن أحد فصوله شروطًا ثمانية يجب أن يتبعها من يريد إنشاء مدينة ، كان منها « أن يقدر طرقها وشوارعها حتى تتنـاسب ولا تضيق ، وأن يبنى فيها جامعًا للصلاة فى وسطها ليقرب على جميع أهلهـا وأن يقدر أسواقها بحسب كفايتها لينـال سكانها حوائجهم من قرب » .

ولعل هذه الشروط كانـت أساس تخطيط شوارع المدينة لديهم ، مضـافة إلى تأثير التخطيط العام على شـوارعها . وتكشف العـلاقة بين المبانـى فى المدينة وبين شـوارعها عن مـدى التزام المعمار الإسلامى بحق الطريق . ومن الأمثلة الحية القائمة حتى عصرنا هذا ما نراه فى مقاسات بوابات المدن مثل بغداد والقاهرة ، فرغم الحرص على تحصين المدينة والارتفاع بأسوارها وتقليل بواباتها قدر المستطاع ، يـلاحظ اتساع هذه البوابات وارتفاعها . ويـذكر المؤرخ اليعقوبى عند وصفه لبوابات مدينة بغداد أنها كانت مرتفعـة :

« بحيث كان يـدخل الفارس بالعلم والرامـح بالرمح الطويل مـن غير أن يميل العلم ولا ينثنى الرمح . . » .

نفس الشـىء نلاحظه فى بوابـات القاهرة الباقيـة حتى الآن والتى أنشأهـا بدر الجمالى ، إن اتساع بوابات الزويلة والفتوح والنصر . إن هـذا الارتفاع تطبيق عملى لأحكام الفقهاء. والتى تقول طبقًا لتعاليم الإسلام إن الطريق النافذ مباح فيه المرور لكل إنسان لأنه حق للمسلمين .

فليس لأحد أن يبنى فيه أو يخالف خط جاره ، وهذا ما حرص السلاطين المماليك على تطبيقه بحزم فى القاهرة ، والرسالة التى حققتها الدكتورة آمال العمرى تلقى أضواء هامة على تلك المبادئ الهامة فى الإسلام .

* * *

الفوائد الباهرة

يقول أبو حامد المقدسى بعد مقدمته . وبعد ذكره تاريخ القاهرة منذ أن اختطها الفاطميون . وبعد استعراض مفصل لما كانت عليه أوضاع المدينة خاصة شارع المعز لدين الله ، يقول :

« وأما حكم الشوارع والطرق بالقاهرة وغيرها من مدن الإسلام فيقول مذهب الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه فى ذلك وقد ذكر أصحابه تبعًا له رضى الله تعالى عنهم وعنه وعن جميع العلماء أجمعين ، المسألة فى كتاب الصلح فى التراحم فى الحقوق المشتركة كالشوارع ونحوها ، فقالوا الطريق قسمان نافذ وغير نافذ . أما النافذ وهو المراد بالذكر وهو الشارع المنفك عن الاختصاص فالناس كلهم فيه سواء يستحقون الدور فيه ولا اختصاص فيه لأحد ، بل هو مشترك عام . . » .

ثم يذكر مؤلف الرسالة ما قاله الإمام مالك ، والإمام أحمد بن حنبل والإمام أبو حنيفة ، وكلهم يؤكدون حق الإنسان فى الطريق العام ، ثم يذكر ما أجمع عليه الأئمة والفقهاء ، إذ يجوز لكل إنسان أن يفتح الأبواب من ملكه إلى الشارع كيف شاء . أما بناء الدكة أو المصطبة وغرس الشجرة . فان كان يضيق الطريق ويضر بالمارة منع منه بل إذا قامت منشأة أو إضافة إلى البناء نتج عنها إقلال الضوء فى الشارع فيمنع ذلك .

* * *

العلاقة المتبادلة

تحدد الأحكام الفقهية أيضًا العلاقة الوثيقة بين المبانى والشوارع المطلة عليها ، والمعروف أن عناصر الاتصال والحركة للمبنى لا تقتصر على داخل المبنى ذاته ، بل تمتد أيضًا إلى ما يحيط به من شوارع وحارات وأزقة ، وخاصة إذا كان للمبنى ملحقات أو امتداد فى الجهة الأخرى من الشارع ، لذلك كانت السلالم الخارجية للمبانى تأخذ الوضع الجانبى ، وهذا ما نراه بوضوح فى جميع المساجد المملوكية العظمى التى أنشئت داخل القاهرة . . وهناك نموذج فريد

فى القاهرة للحفاظ على حق الطريق . يتمثل فى ذلك البناء العلوى الذى يربط جامع قجماس الإسحاقى بالميضأة ويعبره المصلون من أعلى تفاديًا لإغلاق أو إعاقة الطريق ، ويعرض هذا الجزء من البناء باسم الساباط . ويقع على ارتفاع ستة أمتار .

وفى مكان آخر نجد نموذجًا مختلفًا للحفاظ على حق الطريق ، يتمثل فى قبوقرمز الشهير، والذى ذكره الروائى الكبير نجيب محفوظ فى أعماله كثيرًا ، إنه نفق يمتد تحت مسجد الأمير مثقال ، ويضمن استمرارية درب قرمز الذى يبدأ من ميدان بيت القاضى ويستمر حتى شارع المعز لدين الله .

تقول الدكتورة آمال العمرى ، إن الاهتمام بحق الطريق لم يكن قاصرًا فقط على داخل المدن ، إنما كان يشمل الطرق الموصلة بين البلدان . فأنشئت عليها الخانات ، ومراكز البريد ، وحفرت الآبار . وكانت قوة الدول تقاس بسلامة طرقها ، ودرجة تأمينها .

* * *

يقول أبو حامد المقدسى الشافعى نقلاً عن الإمام الغزالى إنه من المنكر فى الشوارع وضع الأساطين ، وبناء الدكك ، ووضع الأخشاب وأحمال الحبوب والأطعمة ونحوها على الطرقات . ويذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى حد أنه إذا ضاق الطريق على المارة وبه مسجد ، هدم المسجد أو بعضه لتوسيعه أى لتوسيع الطريق .

وبعد أن يستعرض المؤلف أحكام سائر الأئمة والفقهاء ، يختتم رسالته الهامة بقوله :

« وأقول هذا إذا اقتصروا على هدم ما وصفناه ولم يتجاوزوا الحد الذى ذكرناه ، وأما إذا تعدوا ذلك وهدموا ما لا يستحق الهدم شرعًا بل لمجرد التشهى وهوى الأنفس ليضيء المكان أو يتسع عن القدر الجائز ، فلاشك أن فعل ذلك والأمر به حرام مطلقًا ، ولا يجوز لأحد الإقدام عليه ولا الأمر به ولا الإعانة عليه لما فيه من حصول الضرر للمسلمين من هدم مساكنهم ومحل أوطانهم وإضاعة أموالهم سفها وباطلاً وخصوصًا هدم أوقاف الضعفاء من الأيتام والفقراء والمحتاجين من الفقهاء وقطع أرزاقهم من ذلك أو ضعفها التى قد أجراها الله تعالى لهم على يد من اختاره من عباده » .

هكذا تكشف هذه الرسالة الصغيرة عن أحد أوجه تحضر وإنسانية الإسلام » .

عميد المؤرخين المصريين

عبد الرحمن بن عبد الحكم

فى ٦٤٠ هـ ، دخل العرب مصر ، ومن قبل عرفت مصر أقواما كثيرين جاءوا إليها فاتحين ، واستقروا فيها مددًا متفاوتة ، ولكن لم ينجح أحدهم فى فرض لغته ، أو ثقافته كان هناك الرومان ، وقبلهم اليونان ومن قبل الفرس ، ولكن مصر بقيت هى مصر ، لقد كان تأثير المصريين أحيانًا فى الغزاة والفاتحين أشد من تأثيرهم هم ، كانت مصر كالبوتقة تصهر ولا تنصهر ومع مجىء العرب إلى مصر بدت ظاهرة جديدة فى التاريخ المصرى ، لقد استقرت القبائل العربية فى مختلف الأقاليم المصرية ، واختلط العرب بالمصريين ، وكانت الثمرة ، هى تعريب مصر ، وتمصير العرب ، ذابا معًا ، وانتشر الإسلام ، وبعد قرنين ونصف من الزمان كانت الملامح العربية لمصر قد ترسخت واتضحت ، بل إن مصر أصبحت القاعدة الكبرى التى تخدم الثقافتين العربية والإسلامية فى اندفاعها تجاه الغرب والأندلس ، والجنوب فى اتجاه بلاد النوبة وبقية الأقطار الإفريقية . .

فى هذه المرحلة الزمنية عاش عبد الرحمن بن عبد الحكم ، أقدم المؤرخين المصريين ، وأول من دون ملامح مصر العربية ، وبدايات العصر العربى الذى كان قريبًا نسبيًا منه ، من المصادر التاريخية نعرف أنه توفى سنة ٢٥٧ هـ بالفسطاط ، ودفن إلى جوار الإمام الشافعى ، كان عمره عند وفاته حوالى سبعين عامًا ، أى أن مولده كان فى سنة ١٨٧ هـ تقريبًا .

كانت أسرة بنى عبد الحكم على حظ وافر من الثراء ، لكن الأهم من ذلك هو اشتهارها بالعلم ، خاصة رواية الحديث وتحقيقه ، ورواية الحديث كانت تقتضى توفر شروط معينة فى صاحبها ، إذ لابد أن يكون ملمًا بكافة الأسانيد ، ومعرفة الرواة الذين ينقل عنهم ، والقدرة على المقارنة ، بشكل عام كانت رواية الحديث هى المدخل الطبيعى الذى بدا منه المؤرخون الإسلاميون ، كان والده مؤرخًا وإخوته من كبار المحدثين ، وبالطبع نشأ عبد الرحمن بن عبد الحكم فى هذه البيئة العلمية ، وتأثر برواية الحديث وانتقل بسهولة إلى رواية الأخبار ، وهكذا

كان أول مؤرخ فى مدرسة التاريخ العربى لمصر ، ولكن هذا لا يعنى أن الظروف كانت سهلة ممهدة أمامه ، لقد نزلت محنة قاسية على الأسرة بعد وفاة والده أثناء الفتنة التى تسبب فيها الخليفة العباسى الواثق بالله فتنة خلق القرآن ، لقد رفض الأبناء الاعتراف بمذهب خلق القرآن كما رفضه غيرهم المتمسكون بالأصول وبسبب ذلك عانوا عذاب السجن ، ومات أحد الأخوة فى سجن يزيد التركى معذبًا بالسوط ، والشوى بالنار ، كما أصيبت الأسرة بمحنة مالية واجتماعية عندما عهد إليها أن تكون حارسة على أموال أحد الولاة الذين صادرت الدولة أموالهم ، وعندما أرسلت الدولة من يحاسبهم لم تستطع الأسرة تسديد حساباتها فزج بهم فى السجون ، وصودرت أملاكهم ، فى ظل تلك الظروف الوعرة نشأ مؤرخنا ، اتجه فى مسيرة دراسته إلى التاريخ ، ولا شك أن المضمون التاريخى لمصر ، سواء المتناقل ، أو المتمثل فى الآثار القديمة كان مصدر وحى له على الإحساس بالتاريخ وتدوينه وهكذا يفتتح كتابه بوصية الرسول صلى الله عليه وسلم بالقبط أهل مصر ، ثم يذكر بعض فضائل مصر ، ومحاسنها ، والآيات القرآنية التى ذكرت مصر ، أو الأحاديث النبوية ، ولأول مرة يقدم مؤرخ على تدوين تاريخ البلاد كتاريخ وطن محلى ، ليس جزءًا من تاريخ بلدان أخرى ، أو ليس مذكورًا عرضًا ، ومن خلال هذا الوطن العربى الجديد ، يرصد ابن عبد الحكم تاريخ الوطن الأشمل الممتد غربًا حتى المحيط وشرقًا حتى فارس والصين ، ولأول مرة تصبح مصر العربية هى بؤرة كتاب مستقل لمؤرخ دقيق ، يدون ، ويسجل ، وهنا نجد شكلاً جديدًا للتدوين التاريخى ، لقدساير المحدثين فى روايتهم الأسانيد ، وخالف المؤرخين فيما اتبعوه من تصنيف ، مثل البلاذرى المتوفى سنة ٢٦٩هـ ، أو الطبرى المتوفى سنة ٢١٠ هـ ، والدينورى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ ، فقد نهج منهجًا فريدًا فى كتابة التاريخ المفصل للإسلام والعرب فى مصر من مصادره الشفوية والتحريرية ، وتتمثل الأخيرة فى مخطوطات المؤرخين الذين سبقوه ، مثل يحيى بن عبدالله بن بكير ، وابن لهيعة ، والليث بن سعد ، ويزيد بن حبيب ، كان ابن عبد الحكم دقيقًا إلى حد أنه كان يهتم بمصدر الحدث أكثر من اهتمامه بالمضمون نفسه وبالإضافة إلى ذلك تبدو رؤيته الشخصية وملاحظاته والروايات المتناقلة ، ومعاينته للأماكن وهذا ما اعتمد عليه بشكل أساسى فى الجزء الخاص بخطط الفسطاط ، لقد كان ابن عبد الحكم أول من سجل تفاصيل الخطط التى ازدهرت فيما بعد على أيدى القضاعى ، والمسيحى ، وبلغت قمتها على يدى المقريزى ، ومن المتأخرين على مبارك ، يقول ابن خلكان فى وفيات الأعيان ، إن ابن عبد الحكم كان من أهل الحديث والتاريخ ، وكان أول من انفرد من مؤرخى جميع الأقطار الإسلامية بكتابة التاريخ المحلى لبلد معين ، إن المادة التى جمعها ساعدت على إظهار دور مصر فى فجر تاريخها العربى ، ودورها فى خدمة العروبة والإسلام .

ماذا فى تاريخ ابن عبد الحكم ؟؟

يتكون « فتوح مصر والمغرب » من سبعة أقسام ، نلاحظ الرقم سبعة السحرى هنا الجزء الأول يختص بفضائل مصر ، إنه الرحيل مع الأسطورة كان التاريخ القديم لمصر قد أصبح موغلاً فى البعد ، نائيًا غامضًا تقوم الآثار أو « البرابى » كما كانوا يسمونها ، ولا يدرى أحد سر القلم الغريب الذى كتب هذه النقوش ، ويذكر المقريزى أن الأهرام كان مغطى بأكمله بالكتابة ، لقد انمحت فيما بعد ، ولنا أن نتصور مدى ما كان سيكشف لنا من أسرار لو وصلت إلينا هذه الكتابة الهيروغليفية ، لكن نفس هذه اللغة كانت تحير المؤرخين القدامى ، من هنا أوجدوا تاريخًا بديلاً ، تاريخًا أسطوريًا كبديل للتاريخ الواقعى ، ويعد هذا التاريخ هو الأساس الذى نقل عنه المؤرخون الذين جاءوا بعد ابن عبد الحكم ولا توجد أى علاقة بين التاريخ الأسطورى لمصر ، والتاريخ المدون الذى عرف بعد اكتشاف أسرار اللغات الفرعونية ، فيما عدا بعض النقاط المحددة ، كذكر الصراع بين الفرس والروم .

فى الجزء الثانى من الكتاب يتنقل ابن عبد الحكم إلى الفتح الإسلامى لمصر بقيادة عمرو بن العاص ، وهنا يعتبر ابن عبد الحكم من أقدم المؤرخين الذين وصلتنا كتاباتهم عن تاريخ مصر فى العصر العربى الأول ، وهو أقربهم إلى عصر الفتح يورد حركة الجيش العربى فى مصر حتى فتح الفسطاط ، ثم فتح الإسكندرية ، وعند حديثه عن تاريخ الإسكندرية يقول إن الذى أسسها هو ذو القرنين الرومى واسمه الإسكندر، وبه سميت الإسكندرية ، ولكن سرعان ما يورد أساطير حول الإسكندرية ، ويذكر معلومات دقيقة حول عدد السكان ، ويحصى عدد السكان بمصر ويقدرهم بستة ملايين نفس ، وكانت الجزية المقررة على كل منهم دينارين ، وتؤيد المراجع العلمية الحديثة تقديره لعدد سكان مصر ، ولكنها تختلف من حيث تقديره للمبالغ المتحصلة من الخزينة ، ويذكر أنه عندما خرج الوالى ابن رفاعة إلى الريف ، أحصى حوالى عشرة آلاف قرية ، ويستمر فى رسم صورة دقيقة للإدارة العربية ، من حيث جباية الخراج ، ونظام الضرائب ، والإدارة ، ومن خلال الأحداث يروى ترحيب المصريين بالفتح العربى .

« إنه كان بالإسكندرية أسقف يقال له أبو ميامين « بنيامين » فلما بلغه قدوم عمرو ابن العاص إلى مصر كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا تكون للروم دولة وأن ملكهم قد انقطع ، ويأمرهم بتلقى عمرو ، فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يؤمئذ أعوانًا لعمرو » .

« جماعة من رؤساء القبط ، وقد أصلحوا الطرق وأقاموا لهم الجسور والأسواق ، وصارت لهم القبط أعوانًا على ما أرادوا من قتال الروم » .

ويذكر أن عمـرو بن العاص اهتم بالاستفسـار من أهالى البلاد أنفسهم عـن أفضل سبيل للإدارة ، وقد أجابه الأسقف بنيامين قائلاً :

« تأتى عمارتها وخرابها من خمسة وجوه ، أن يستخرج خراجها فى إبان واحد عند فراغ أهلها من زروعهم ، ويرفع خـراجها فى إبان واحد عند فراغ أهلها من عصر كـرومهم ، وتحفر فى كل سنة خلجها وتسد ترعها ، ولا يقبل محل أهلها يـريد البغى ، فإذا فعل هذا فيها عمرت ، وأن عمل فيها بخلافه خربت » .

وقد نفذ عمرو بن العاص وصية الأسقف بنيامين بحذافيرها ، واستطاع بذلك تقليص حد المظالم ، وتطهير الأجهزة الإدارية من الفساد ، وانتقلت العـاصمة الإدارية من الإسكندرية إلى الفسطاط وعنـدما استقر عمرو بـن العاص فى الفسطاط بنـى دارا للإمارة وأرسل إلى عمـر بن الخطاب يعلمه بذلك ، فكتب إليه عمر بن الخطاب قائلاً : « إنى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر » ، وأمره بأن يجعلها سـوقًا للمسلمين ، وكان ذلك يتفق مع حـرص عمر بن الخطاب على البسـاطة ، ثـم أنشأ « الـديـوان » الذى يضبـط الأمـوال ويقرر العطـاء المفروض للجنـد وأسرهم، طبقًا لـلأسس التى وضعها عمر بن الخطـاب ، ويذكر ابن عبد الحكـم جهود عمر من أجل التنسيق بين الإدارة الإسـلامية الجديدة ، وأشكال الإدارة القديمة ، ويـذكر أن عمرو بن العـاص كان حريصًـا على شرح التنظيمات الإدارية الجديدة ، للنـاس عن طريـق الخطب العامة ويورد نصًا لخطاب مطول ألقاه عمرو بـن العاص فى يوم جمعة من أيام عيد الفصح سنة ٦٤٤ م ، ويعد من أقدم الـوثائق التى توضح أسس التشريـع الإسلامى فى مصر ، وركز على اهتمام عمرو بن العاص بتعمير مصر حتى أنه كـان لا يرسل الخراج إلى الخليفة إلا بعد اقتطاع كل مـا تحتاج إليه البـلاد من أجل « حفـر خلجانها وإقامـة جسورها ، وبنـاء قناطرهـا وقطع جـزائرها » وذلـك عملاً بنصيحـة بنيـامين ، ويفرد ابـن عبد الحكـم فصـلاً كامـلاً يورد فيـه المكاتبـات التى تـم تبادلها بين الخليفـة عمر بن الخطـاب ، وحاكـم مصر عمرو ابـن العاص بسبب تأخر وصول الخراج ، وعنوان الفصل « ذكر استبطاء عمر بن الخطاب عمرو بن العاص فى الخراج » .

أما الجزء الثالث فيضم الخطط ، وعرض فيه ابـن عبد الحكم للخطط والأرباع التى أقامها العرب فى الفسطـاط والجيزة . لقد أوضح خطـط مصر الأولى ونزول القبائل بالفسطـاط وقيام المساجد والمنـازل الأولى ، كذلك خطط الإسكندريـة وتتبع نموها فى عهد حكـامها العرب ، وفى هذا القسم يعتبر ابن عبد الحكم هو الـواضع الأول لأسس الخطط المصرية ، ومنه استفاد كافة المؤرخين الذين جاءوا بعده . .

فى الجزء الرابع يصف إدارة مصر تحت إمارة عمرو بن العاص ، وعبد الله بن سعد ، ويذكر فتح الفيوم ، وبرقه ، طرابلس ، بقيادة عمرو بن العاص ، ويذكر فتح النوبة وشمال أفريقيا بقيادة عبد الله بن سعد ، وثورة الإسكندرية وفتحها الثانى ، وينتهى هذا الجزء بوفاة فاتح مصر عمرو بن العاص .

أما الجزء الخامس فيخصصه لفتح شمال أفريقياواسبانيا ، حتى سنة ١٣٠ هـ تقريبًا ، وتبدو فتوح المغرب هنا وكأنها تكملة طبيعية لفتح مصر ، وسوف نلاحظ فيها بعد أن مؤرخى مصر العربية نظروا إلى الغرب على أساس أنه امتداد جغرافى طبيعى لمصر ، وتكمن أهمية ابن عبد الحكم كمصدر فى تاريخ الفتوحات العربية فى المغرب إلى أنه مصرى ، وأن القوات العربية كانت تخرج من مصر ، وإليها كانت تعود بالمغانم ، وتصدر روايته أقدم وأكمل رواية فى هذا الموضوع وحتى القرن الثالث الهجرى ، والملاحظ أن رواية ابن عبد الحكم تستند إلى مصادر محددة ولم تخلط الواقع بالأسطورة ، ويحوى الجزء السادس تاريخًا مختصرًا لقضاء مصر حتى سنة ٢٤٦هـ ، أى قبل وفاة المؤلف بعشر سنوات . . ويضم الجزء السابع مختارات من الأحاديث والروايات المنسوبة لأصحاب رسول الله الذين وفدوا على مصر ، وقد ذكر ابن عبد الحكم اثنين وخمسين صاحبيًا .

عرف كتاب « فتوح مصر والغرب » بدءا من القرن الخامس الهجرى ، حين بدا بعض المؤرخين يروون عن ابن عبد الحكم ، ثم بقيت نسخ الكتاب مخطوطة يتناقلها الرواة والمؤرخون ، وعرف الكتاب طريقه إلى المطبعة فى القرن التاسع عشر سنة ١٨٥٦م ، عندما نشر جزء من الكتاب ، ثم نشر جزء آخر سنة ١٨٥٨ ، ثم نشر جزء ثالث عام ١٩١٤ ، وتم نشره كاملاً لأول مرة على يد المستشرق الإنجليزى شارل تورى عام ١٩٢٠ وطبع فى جامعة « بيل » ، ثم نشر الجزء الخامس عام ١٩٤١ فى الجزائر ، وهو الخاص بفتوح المغرب والأندلس ، وفى سنة ١٩٦١ نشر الأستاذ عبد المنعم عامر جزءًا من الكتاب وضع له عنوانًا « القسم التاريخى » ، ولكن لم ينشر القسم الثانى ، أى أن الكتاب لم يطبع كاملاً حتى الآن باللغة العربية ، غير أن أهم ما تم بخصوص ابن عبدالحكم تلك الندوة التى عقدتها الجمعية المصرية التاريخية سنة ١٩٧١ وخصصتها لدراسة « ابن عبد الحكم » ثم صدرت مجموعة الدراسات فى كتاب عن الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة عام ١٩٧٥ ، ليتنا نقرأ عن تحقيق ونشر الكتاب كاملاً ، ذلك الكتاب الذى يحفظ للزمن نضارة وجه مصر العربى فى زمانه الأول ! .

* * *

النجــــوم الــزاهـــرة

لابــن تــغــرى بــردى

« تتوالى السنون كالنجوم الزواهر أمام ابن تغرى بردى المؤرخ المصرى الكبير ، لم تتلاش ولم ينطفىء بريقهـا ، لأنه أمسك بأحداثها ونبضهـا بين دفتى كتابه الضخم « النجـوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » الذى ألفه « ليقتدى كل ملك يأتى بعدهم بجميل الخصال ويتجنب ما صدر منهم من اقتراف المظالم وقبيح الفعال » .

إنه يبدأ كتابه بتلخيص ما تضمنه :

« استفتحـه بفتح مصر ، وعلى أى وجـه فتحت ، وجمع فى ذلـك أقوال مـن اختلف مـن المؤرخين وأهل الأخبار ، ثم ذكر من وليها من يوم فتحت ، وما وقع فى دولته من العجب ، ثم ذكر أيضًا مـا أحدث صاحبها أيام ولايته مـن الأمور ، وما جدده ، من القواعـد والولايات فى مدى الدهور . . . » .

إلى ركن هادئ من داره الكبيرة التى كانت مـن أجمل دور القاهرة وأوسعها وأكثرها حسنًا ، كان ابن تغـرى يقبع يوميًا لينظـم النجوم الزاهرة ويضيف الأيـام تلو الأيام ، مبتدئًا كتـابه من الفتح العربى لمصر وليس منذ بدء الخليقة كما جرت عليه سنة المؤرخين الآخرين الكبار ، وعلى الرغم من أصل ابن تغرى بردى المملوكى الرومى «اليونانى » فإننا نجد فى النجوم الزاهرة مجمعًا ثريًا للثقافة العـربية التى حصلها المؤلف ، ويعكس هذا قوة الثقافة العـربية وعمق تأثيرها فى هؤلاء المماليك الغرباء أصلاً عن المجتمع الذى جاءوا إليه من بلادهـم ، والذى صهرهم فيه ولم ينصهر فيهم ، تبـدو ثقافة مؤرخنـا فى اطلاعه الواسـع على مصادر التاريخ الـذى يكتب عنه خاصة الحقب التى لم يشـاهدها ولم يدركها ، إنه لا يكتفى بالنقـل عن مؤرخ واحد ، إنما يورد أكثر مـن نص لأكثر مـن مؤرخ ، وعلى سبيـل المثال فإنـه عندما يـدون أحداث عصر كـافور الإخشيدى يستند إلى أكثر من رواية لأكثر من مـؤلف الحافظ « أبو » عبد الله الذهبى فى تاريخ الإسلام ، و « أبو » المظفر فى تاريخه مرآة الزمان ، و« أبـو » جعفر مسلم بن عبيد الله بن طاهر

العلوى النسابة ، وابن زولاق ، وعندما يورد أخبار المتنبى مع كافور يبدؤها على لسانه «قلت : ونتذكر حينئذ أحوال المتنبى . . . »[1] .

وعبر النجوم الزاهـرة تتناثر مقتطفات شعرية عـديدة أكثر من أى كتاب آخـر من مصادر التاريخ الأخـرى ، هذه المقتطفات تعكس ثقافـة المؤرخ العربية ، وتعكس أيضًا حسًّـا مرهفًا بالتاريخ وانقضاء الزمن وتغير الأحوال .

بعد موت كافور الإخشيدى يورد ما كتب على قبره :

ما بال قبرك يا كافور منفردًا بالصحصح المر[2] بـعـد العسـكر اللجـب

يـدوس قبـرك أحـاد الرجـال وقـد كانـت أسـود الشـرى تخشاك فى الكتـب

وعندما يذكر رفاة محمد بن الحسين بن على الأنبارى الشاعر يأتى بمقتطف من شعره :

أبكـى وتبكـى الحمام لكـن شتـان مـا بينهـا وبينـى

تبكـى بعين ، بغير دمـع وأبكـى بـدمـع بغير عين

ولا يكتفى بـذلك إنما يـورد نصوصًـا أخرى مماثلة ويقـارن فيها بينها ويقـول «أعجبنى فى هذا . . . » أو « ربما يجيش فى بالى أيضًـا بهذا المعنى قول القائل . . . » وعند ذكره لـوفاة محمد بن عتيق القيروانى[3] يذكر إنشاده لبيتين من أبى العلاء :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحـق لسكـان البسيطـة أن يبكـوا

وتحطمـنـا الأيـام حتى كأننـا زجـاج ولكـن لايعـاد لنـا سبك

وعند وفاة عبد الكريم بن حمزة بن الخضر الدمشقى يذكر أبياتًا من الشعر[4] :

الضيـق مرتحـل والمـال عـاريـة وإنما النـاس فى الدنيـا أحاديـث

فـلا تغـرنـك الدنيـا وزهـرتها فإنهـا بـعـد أيـام مـواريـث

وفى نفس السنة يورد شعرًا على لسان أحد الذين رحلوا . .

إن الليـالى لـلأنام منـاهـل تطوى وتبسـط بينها الأعمار

فقصارهن مع الهموم طويلة وطوالهن مـع السرور قصار

وعندما تجىء الأخبار بموت الأمير جان بك الصوفى يذكر . .

إذا تـم أمر بـدا نقصـه تـوق زوالها إذا قيـل تـم[5]

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٧ .

(٢) المر : المفازة التى لا نبات فيها .

(٣) الجزء الخامس أحداث سنة ٥١٢ ص ٢١٧ .

(٤) الجزء الخامس أحداث سنة ٥٢٦ ص ٢٤٩ .

(٥) النجوم الزاهرة الجزء الخامس عشر ص ٨٧ .

ويذكر قول القائل فى معرض الحديث عن تقلب أحوال أمير . .

ويوم سمين ويوم هزيل ويوم أمر من الحنظلة
وليل أبيت جليس الملوك وليل أبيت على مزبلة

* * *

كان ابن تغرى بردى الواسع الثقافة ملما بالموسيقى ، وعلم النجوم ، وانعكس ذلك فى كتابه عند وصفه الدقيق للظواهر الطبيعية كالخسوف والكسوف ، أو ظهور المذنبات ، وتبدو معرفته بالموسيقى عند ما نقرأ ترجمته لوفاة مغنٍ مصرى . . « وتوفى الأستاذ المادح المغنى ناصر الدين محمد المازونى الأصل ، المصرى ، أحد الأفراد فى إنشاد القصيد وعمل السماع ، فى ليلة الجمعة ثامن من جمادى الأولى بعد أن ابتلى بمرض الفالج ، وبطل نصفه ، وسكت حسه ، وكان من عجائب الدنيا فى فنونه ، كان صوته كاملاً ، مع شجارة وندارة وحلاوة ، كان رأسًا فى إنشاد القصيد على الضروب والحدود ، سافر غير مرة إلى الحجاز حاديًا فى خدمة الأكابر ، وكان له تسبيح هائل على المآذن ، ففى هذه الثلاثة كان إليه المنتهى ، وكان يشارك فى الموسيقى جيدًا . . »[1].

وكان ابن تغرى بردى ملمًا بفنون القتال والفروسية إلى جانب ثقافته العريضة وذلك بحكم نشأته بين المماليك ، لقد كان لهذه النشأة تأثير كبير عليه ، وبالتالى على ما كتب ، ولد ابن تغرى بردى من أب مملوكى ، كان أبوه رومى الأصل أى يونانيًا جاء به تجار الرقيق إلى الملك الظاهر برقوق ثم سلمه إلى معلم لقنه مبادئ الإسلام واللغة العربية ، وعندما بلغ مرحلة الشباب أعتقه الملك الظاهر وظل يتدرج فى المناصب حتى تولى نيابة الشام سنة ٨٠٣ هـ ، وكانت من أجل وظائف الدولة وترشح صاحبها لولاية السلطنة ، غير أن القيادات السياسية أدركته عند قيام الدولة المملوكية الجركسية فعزل عن وظيفته مرات ، واضطر إلى الفرار من مصر إلى الشام وأثناء غيبته تزوج السلطان الناصر من ابنته فاطمة أخت المؤرخ ، ثم عفا السلطان عنه وأولاه أحد المناصب الحربية الرفيعة ، فى بداية سنة ٨١٥ هـ توفى الأمير تغردى بردى وكان ابنه أبو المحاسن «مؤرخًا» لم يبلغ بعد الثانية من العمر ، عنى بتربيته زوج أخته الثانية قاضى القضاة ، نصر الدين بن العديم ، ثم زوجها الثانى ، قاضى القضاة جلال الدين البلقينى ، درس ابن تغرى بردى علوم الكلام والنحو والبيان على جماعة من أعلام العصر ، ومنذ صغره ، أحب التاريخ ، ودفعه هذا إلى حضور مجلس المقريزى أعظم مؤرخى العصر ، درس عليه ، وصاحبه ، كما استفاد أيضًا من بدر الدين العينى أحد المؤرخين الكبار فى ذلك العصر ،

---

(١) النجوم الزاهرة الجزء ١٦ ص ١٩٢ أحداث سنة ٨٦٢ .

بالإضافة إلى ذلك فقد تعلم على يد أكابر مماليك والده أنواع الفروسية وفنون القتال ، وبهذا يكون قد جمع بين النشأتين الأدبية والدينية والنشأة العسكرية ، بالإضافة إلى حياة هادئة يكفلها إقطاع كبير يدر عليه دخلاً وفيرًا . وحقق له ذلك نوعًا من التفرغ بعيدًا عن مشاغل المناصب ، أو تقلبات السياسة ، ولم يكن هذا يعنى أنه يعيش على هامش المجتمع المملوكى ، إنما كان باعتباره أحد كبار أولاد الناس قريبًا من بلاط السلاطين ، يطلع فى كل أسبوع إلى القلعة ليحضر مجلس العلماء الذى يعقد بين يدى السلطان ، تربطه صداقات وطيدة بكبار الأمراء ، وفى بداية الجزء الخامس عشر من النجوم الزاهرة « ٨٢٦ هـ » نجد وصفًا دقيقًا لحملة السلطان الأشرف برسباى على مدينة آمد ، وكان ابن تغرى بردى من المماليك الذين توجهوا لمفاوضة قرايلك الذى جردت ضده الحملة ، وفى عهد السلطان جقمق ازدادت صلته بالبلاط المملوكى ، ولم يتغير وضعه أيام الأشرف ابنال ، أو فى عهد خشقدم ، حتى عهد السلطان قايتباى الذى لم يدونه كله فى نجومه الزاهرة وذلك لوفاته .

لقد أدت صلته الوطيدة بالسلاطين والأمراء باعتباره أحد أفراد المماليك إلى أن يعكس أدق صورة ممكنة للمماليك الذين حكموا مصر ، طبائعهم وعاداتهم ، وأسلوبهم فى الحكم ، لقد كان على علم أكثر من غيره بأحوال المماليك ودخائلهم ، كما أن هذا يجعله ثقة فى دقة الأخبار التى أوردها خاصة عن الفترة التى عايشها بنفسه والتى انفرد فيها بتدوين الأحداث بعد وفاة المقريزى وحتى عام ٨٧٣ هـ ، وأدى هذا بالتالى إلى توارى أخبار الحياة اليومية للشعب المصرى وافتقارها فى النجوم الزاهرة .

إن أخبار الشعب لا نجدها فى النجوم الزاهرة إلا كصدى بعيد لكيفية انعكاسها على المماليك والسلطة الحاكمة ، فكأنها إشارات باهتة ترسلها الأرض إلى النجوم الزاهرة غير أننا نستطيع أن نرصد حركة الشعب المصرى بشكل عام خلال الفتن التى أثارها المماليك ، ويمكن القول إن الشعب لم يكن يقف متفرجًا أو ساكنًا إنما كان ينحاز أحيانًا إلى بعض أطراف الصراع ، وكان لهذا الانحياز تأثيره فى الغالب . .

* * *

عندما يقتل الأمير علم الدين سنجر ابن عبد الله الشجاعى المنصورى ، أحد مماليك السلطان قلاوون وكان سيئ السيرة غليظ القلب ، فرح أهل مصر بقتله فرحًا زائدًا ، وعندما طاف المشاعلية برأسه كان الناس يتزاحمون ليلطموا رأسه أو ليبولوا عليه ، ولشدة الزحام بلغ سعر اللطمة نصف درهم والبولة درهما كاملا .

وعندما يضيق السلطان الناصر قلاوون بتحكم بعض أمرائه فيه ويقرر التخلص منهم ،

فيبادر الأمراء بالركوب عليه ، عندئذ يتجمع العامة أمام القلعة « كان جمعهم قد كثر ، وكان من عادتهم أنهم لا يريدون أن يلي الملك أحد من المماليك ، بل إن كان ولابد يكون الذى يلي الملك من بنى قلاوون ، وكانوا مع ذلك شديدى المحبة للملك الناصر محمد بن قلاوون » ، «وتكاثر جمعهم وصاروا يدعون للسلطان ويقولون « الله يخون الخائن الله يخون من يخون ابن قلاوون » . واضطر المماليك إزاء تمسك العامة بالملك الناصر إلى التراجع « فبعث الأمراء عند ذلك ثانيًا إلى السلطان بأنهم مماليكه وفى طاعته»[1] .

وعندما توجه الملك الناصر بن قلاوون من الديار المصرية إلى الكرك منفيًا أنشد بعض عوام القاهرة :

أحبة قلبى إننى لوحيد	أريد لقاكم والمزار بعيد
كفى حزنًا أننى مقيم ببلدة	ومن شف قلبى بالفراق فريد
أجول بطرفى فى الديار فلا أرى	وجوه أحبائى الذين أريد

وعندما عزل السلطان برقوق كثر الدعاء من العامة له ، وكثر الأسف على فقده ، صاروا يقولون « راح برقوق وغزلانه ، وجاء الناصرى وتيرانه » ، وعندما وقعت الفتنة الكبرى بين الأمير الكبير يلبغا الناصرى وبين الأمير تمربغا الأفضلى المدعو بمنكاش « ٧٩٠ هـ » ، فإن العامة ينحازون إلى جانب منكاش ويشتركون فى المعارك الدائرة بالقاهرة ، لكن لا يعنى هذا أن الشعب كان يلعب دورًا رئيسيًا فى حسم الصراع الذى يقوم بين المماليك ، نلاحظ أن هذا لم يحدث إلا عند الانحياز إلى جانب حكام يشعر الشعب بحاسته المرهفة أنهم عادلون وأقل ظلمًا من غيرهم ، ونلاحظ أن موقف الناس بشكل عام كان سلبيًا خاصة فى عصر الدولة الجركسية ، لم يكن الصراع الذى يجرى فى القلعة يهمهم إلا بالقدر الذى يهدد الأمن وحياة الناس ، ويفسح ابن تغرى بردى المجال فى كتابه لحوادث قليلة تعكس ما يجرى بين الناس ، فعندما قرر الأشرف برسباى منع الشحاذين يصف ابن تغرى بردى أحوالهم ويستحسن قرار السلطان ، وفى يوم الجمعة تاسع شوال سنة ٨٤١ هـ يصف ما جرى بين العامة عندما لهج الكثيرون بأن القيامة ستقوم يوم الجمعة ويموت الكل ، تخوف العامة من ذلك ، وتزاحموا على باب الحمامات ليموتوا على طهارة كاملة ، وركب ابن تغرى برى أيضًا ومضى إلى الأزهر ، وتصادف أن الخطيب أغشى عليه فوق المنبر فاضطرب الناس اضطرابًا عظيمًا .

وفى يوم الخميس خامس عشر جمادى الآخرة سنة ٨٦٠ هـ ، يورد ابن تغرى بردى صورة لما

---

(١) النجوم الزاهرة أحداث سنة ٦٩٨ هـ ص ١٧٢ ـ ١٧٣ الجزء الثامن .

يحل بالناس من الرعب عند وقوع الفتن بين المماليك ، فأثناء إحدى ثورات المماليك تصادف خروج جهاز عرس لابنة أحد الأمراء ، « وحمل ذلك على رؤوس الحمالين والبغال كما هى عادة المصريين ، وسار الحمالون بالمتاع فوقع من فوق رأس بعضهم قطعة نحاس ، فجفل من ذلك فرس بعض الأجناد ، فحنق الجندى من فرسه وضربه ، ثم ساقه ، فلم تشك العامة أن المماليك نزلوا إلى نهب حوانيت القاهرة ، فأغلقت القاهرة فى الحال وماجت الناس ، وتعطلت المعايش ، وحصل على الرعية من الانزعاج أمر كبير من غير موجب » .

* * *

يقدم ابن تغرى بردى فى نجومه الزاهرة عددًا كبيرًا من تراجم أمراء المماليك ورجال عصره ، إنه يصف لنا دخائل الأمراء وكبار المماليك ، ينقل عن والده أحداث الفتن التى جرت أيام الظاهر برقوق ، وينقل عن عدد من أصدقائه الذين كانوا من كبار رجال الدولة ، أنه يحدثنا عن ثورات المماليك ، وأساليبهم فى الركوب على القلعة ، ورميهم عليها بالنقوط ، كانت القلعة رمزًا للسلطة فى مصر وتعبيرًا عن مركزيتها الشديدة فبمجرد الاستيلاء عليها يتم الاستيلاء على السلطنة كلها ، كما يقدم لنا أساليب المماليك فى الصراع ، وكيف يتنحى الواحد منهم بعد بلوغه أعلى المراتب لمجرد وشاية عليه ، أو شكٍّ من السلطان يستقر فى أعماق نفسه .

وعلى الرغم من انتماء ابن تغرى بردى إلى المماليك ، فإنه كان أحيانًا يسجل ما يحيق بالناس من ظلمهم وجورهم عندما وقع الطاعون بالقاهرة أول شهر رمضان «٨٤١هـ» أقنع الفقهاء السلطان بمنع النساء من الخروج إلى الطرقات ، ومال السلطان إلى منعهن من الخروج إلى الطرقات ظنًا منه بأن منعهن سيرفع الطاعون ، وهكذا تعطل البيع بواسطة النساء وصارت المرأة لا تستطيع تشييع جنازة ولدها إذا مات ، ويعلق على ذلك قائلاً « كل ذلك لعدم أهلية الحكام واستحسان الولاة على الخواطئ ، وإلا فالحرة معروفة ولو كانت فى الخمارة ، والفاجرة معروفة ولو كانت فى البيت الحرام » . .

وفى ترجمته للأمير تغرى برمش الذى كان على صلة بوالد المؤلف يقول « . . وكان عارفًا بأمور دنياه وأمر معيشته متجملاً فى مركبه وملبسه ومماليكه ، إلا أنه كان بخيلاً ، شحيحًا ، حريصًا على جمع المال ، قليل الدين ، لا يحفظ مسألة تامة فى دينه ، مع قلة فهم وذوق ، وغلاظة طبع ، على قاعدة أوباش التركمان ، وكان عاريًا من سائر العلوم والفنون ، غير ما ذكرنا ، لم أره منذ عمرى مسك كتابًا بيده ، ليقرأه ، هذا مع الجبن وعدم الثبات فى الحروب »[1].

---

(١) النجوم الزاهرة الجزء ١٥ ص ٤٧٣ .

وفى ترجمته لصهره يقول عنه :

« وكان عارفًا بأنواع الفروسية كلعب الرمح وضرب الكرة وسوق المحمل والبرجاس ، رأسًا فى ذلك جميعًا ، إمام عصره فى ركوب الخيل ومعرفة تقليبها فى أنواع الملاعب المذكورة ، انتهت إليه الرئاسة فى ذلك بلا مدافعة ، لا أقول ذلك لكونه صهرى ، بل أقوله على الإنصاف ، مع دين وعفة عن المنكرات والفروج ، وقيام ليل وزيارة الصالحين دومًا ، غير أنه كان مسيقًا وعنده حدة مزاج ، ولم تكن شجاعته فى الحروب بقدر معرفته لأنواع الملاعيب والفروسية[1] ، وعلى الرغم من المركز المرموق الذى وصل إليه فى عهد الظاهر جقمق إلا أنه يذكر فى ترجمته له عجز خزانة الدولة ، ونقص الاستعدادات العسكرية ، وينسب ما جرى بعده من اضطرابات إنما بسبب قلة الأموال ، كما يقدم لنا صورة لما كان يحدث بين المماليك والمتعممين ، أو السلطة المدنية والدينية ، فعندما يذكر ترجمة الأمير سيف الدين جارقطلو أتابك العساكر بالديار المصرية الذى توفى عام ٨٣٦ هـ يتحدث عن طيبته ، ويتطرق إلى جلوسه عند السلطان مع قاضى القضاة بدر الدين العينى ، كان القاضى يشدد على ضرب الخمر ، فإذا زاد على الحد يقول جارقطلو « يا قاضى ما تذكر إلا شربة الخمر وتبالغ فى حقهم بأنواع العذاب ، ليس ما تذكر القضاة وأخذهم الرشوة والبراطيل وأموال الأيتام » ، ولقد تطور الصراع بين هاتين السلطتين ، المدنية والدينية حتى اتخذ طابع العنف فى أعوام ٨٥٤ هـ ٨٥٧ هـ حتى ٨٦٠هـ ، إذ يحدثنا ابن تغرى بردى عما قام به المماليك الجلبان من تعد على المتعممين ، وإلحاحهم على السلطان فى طلب إقطاعات الفقهاء .

كما قدم لنا أيضًا صورة للمصريين الذين كانوا يصلون إلى مراكز الإدارة العليا فى الدولة ، وما كان يجرى عندما تنقلب الأحوال عليهم ، أو يتغير خاطر السلطان عليهم ، ويبدو ذلك واضحًا فيما جرى للقاضى زين الدين عبد الباسط ، الذى وصل إلى منصب ناظر الجيوش المصرية ، وهودمشقى الأصل ، مصرى النشأة ، جاء إلى مصر فقيرًا فلما تسلطن الملك المؤيد شيخ قربه وأدناه وولاه نظر الخزانة ، ولما عظم أمره سألنا فى السكن بعض دورنا ، فأجبناه إلى ذلك »[2] ، وبعد أن وصل إلى منصب ناظر الجيش ، واستمر به سنينا بدأنجمه يأفل ، حتى قبض عليه فى عهد السلطان الظاهر جقمق ، وسجن ، وصودر .

وفى عهد الملك المظفر حاجى ، وفى يوم الثلاثاء أول المحرم سنة ٧٤٨ هـ ، قبض على نديم الملك وكان اسمه الشيخ على بن الكسيح ، وضرب بالمقارع ضربًا عظيمًا ، وقلعت أسنانه

---

(١) النجوم الزاهرة الجزء ١٥ ، ٤٧٦ .

(٢) النجوم الزاهرة الجزء الحادى عشر ص ٢٤٨ .

وأضراسه ، ونوع له العذاب تنويعًا ، كان الشيخ على له حدبة فى ظهره ، كسيحًا لا يستطيع القيام ، إنما يحمل على ظهر غلامه ، تعرف بأحد الأمراء وصار يضحكه ، وعرفه الأمير بالملك المظفر ، فصاحبه الملك ، وعاقره الشراب ، ثم زوجه بإحدى حظاياه ، وصار يسأله عن الناس فنقل له أخبارهم على ما يريد ، وداخله فى قضاء الأشغال ، فخافه الأمراء وغيرهم خشية لسانه ، وراحوا يغدقون عليه الأموال ، وعندما مضت دولة السلطان المظفر حاجى ، تنبه إليه الأمراء ، فأمسكوه وسلموه إلى الوالى ، فعاقبه حتى هلك . .

أما الشيخ ناصر الدين ابن بنت الميلق فقد استدعاه السلطان الملك الظاهر برقوق سنة ٧٨٤ هـ ، وولاه قضاء الشافعية ، وفى البداية أظهر ابن ميلق تمنعًا زائدًا عن قبول القضاء وصلى ركعتى الاستخارة حتى أذعن ، وألبسه السلطان تشريف القضاء بيده وأخذ طيلسانه يتبرك به ، وهنا شعر كبار رجال الدولة بالخوف ، وظنوا أنه يحمل الناس على محض الحق وأنه يسير على طريق السلف من القضاة ، كان معروفًا عنه زهده ، وارتداؤه الثياب الخشنة ، والتجاهر بقول الحق ، وكان أول مابدا به أن عزل قضاة مصر كلهم من العريش إلى أسوان ، وبعد يومين تكلم أحد كبار الموظفين فى إعادة بعض المعزولين ، فاستجاب ، وهنا انكسرت هيبته ، ولم يقف الأمر عند ذلك إنما فوجئ الناس بأنه خلع الملابس الخشنة ، ولبس الشاش الكبير الغالى الثمن ، وبدا يترفع فى أحواله وأفعاله ، وبدا يجمع حوله جماعة مكروهة من الناس ، فانطلقت ألسنة الجميع بالوقيعة فى عرضه وسخطوا عليه . .

* * *

ينفرد ابن تغرى بردى بين كل مؤرخى عصره والسابقين واللاحقين عليه بأنه اهتم بفيضان النيل اهتمامًا خاصًا ، فى نهاية أحداث كل سنة يقول « أمر النيل فى هذه السنة الماء القديم كذا ذراع ، مبلغ الزيادة كذا ذراع » ، لقد سجل تقلبات النيل منذ الفتح الإسلامى حتى عام ٨٧٢ هـ الذى يختتم به النجوم الزاهرة ، يرصد فى كل سنة أدنى مستوى وصلت إليه المياه أيام التحاريق ، وأعلى زيادة وصلت إليه أثناء الفيضان ، وكان متوسط انخفاض مياه النهر أيام التحاريق ما بين أربعة أذرع إلى سبعة أذرع فيما عدا بعض السنين التى انخفض فيها الماء إلى أقل من هذا المستوى ، مثل سنتى ٢٥هـ ، ٥٠ هـ ، وكان هذا الانخفاض يهدد المزروعات والأشخاص والحياة عندئذ تشح الغلال ، وتبدأ المجاعة وفى أثرها الوباء . كان النيل هو ترمومتر الحياة فى مصر ، فى أيام الفيضان يبلغ أعلى مستوى له ستة عشر ذراعًا إلى تسعة عشر ذراعًا ، والمستوى الأخير يهدد القرى والجسور بالغرق ، وكثيرًا ما وصل فيضان النيل إلى درجة الخطورة مثلما حدث فى سنة ٢٠ هـ وسنة ١٠٠ هـ ، وفى سنة ٥٤٣هـ ، وفى سنة ٧٧٦هـ ، وفى سنة ٨٠٠ هـ .

ويصف لنا ابن تغرى بردى مقاييس النيل المختلفة ، منذ أول مقياس أنشأه عمرو ابن العاص بأسوان ، ثم مقياس الجزيرة الذى أنشأه أسامة بن زيد التنوخى فى عهد سليمان بن عبد الملك ثم المقياس الكبير الذى أمر به الخليفة المتوكل العباسى فى سنة ٢٤٧ هـ . وهو الذى استخدم فيما تلا ذلك من سنوات فى قياس مياه النيل ، ومن عصره يسجل لنا المؤرخ مشهدًا كان يتكرر كثيرًا فى مصر كلما توقف النيل عن الزيادة أيام الفيضان ، إنه مشهد الاستسقاء ، فى يوم الأحد الرابع عشر من رجب سنة ٨٥٤هـ، أمر السلطان أن يدور المحتسب على الناس ويعلمهم بأنه سيتم غدًا الاستسقاء فى الصحراء وفى اليوم التالى ، « خرج قاضى القضاة شرف الدين يحيى المنياوى ، إلى الصحراء ماشيا من داره بين الخلائق من الفقهاء والفقراء والصوفية ، إلى أن وقف بين تربة الملك الظاهر برقوق وبين قبة النصر قريبًا من الجبل ، ونصب له هناك منبر ، وحضر الخليفة وبقية القضاة ، وصاروا فى جمع موفور من العالم من سائر الطوائف ، وخرجت اليهود والنصارى بكتبهم ، وصلى قاضى القضاة المذكور بجماعة من الناس ركعتين خفيفتين ، ودعا الله سبحانه وتعالى بإجراء النيل ، وأمن الناس على دعائه وعظم ضجيج الخلائق من البكاء والنحيب والتضرع إلى الله تعالى ودام ذلك من بعد طلوع الشمس إلى آخر الساعة الثانية من النهار المذكور ، ثم انصرفوا على ما هم عليه من الدعاء والابتهال إلى الله تعالى ، فكان هذا اليوم من الأيام التى لم نعهد بمثلها . . » .

* * *

لابن تغرى بردى كتب أخرى ، منها « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » وقد ترجم فيه لأعيان عصره ، وهذا أول كتبه ، ثم أتبعه بكتاب مختصر فى التاريخ يعد تكملة لكتاب السلوك للمقريزى ، وتتبع فيه بالتسجيل أحداث مصر فى فترة زمنية قدرها اثنتا عشرة سنة تلى السنة التى توقف عندها المقريزى ، ثم بدأ فى تدوين كتابه الموسوعى الضخم « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » والفضل الأول فى بدء الاهتمام بنشر هذا الكتاب يرجع إلى المستشرقين الهولنديين جوينيل وماتس ، نشرا منه القسم الأول بين سنتى ١٨٥٢ و ١٨٥٣ ثم نشرا منه القسم الثانى فى سنة ١٨٥٧ ، وتضمن القسمان تاريخ مصر حتى سنة ٣٦٥ هـ ، وفى سنة ١٩٠٨ قرر قسم اللغات السامية بجامعة كاليفورنيا نشر النجوم الزاهرة وتولى مسئولية نشره المستشرق الأمريكى وليم بوبر ، فبدأ عام ١٩٠٩ بنشر الأجزاء التالية للقسمين اللذين تم نشرهما ، واستمر فى هذا العمل حتى ١٩٣٠ حيث أتم تلك المهمة العلمية الضخمة .

وفى سنة ١٩٢٨ بدأت دار الكتب المصرية فى طبع الكتاب ، وتم نشر اثنى عشر مجلدًا على مدى أربعين عامًا صدر آخر مجلد منها سنة ١٩٥٦ ، وتضمنت أحداث التاريخ المصرى حتى

سنة ٨٠٨ هـ ، وتضمنت هذه الأجزاء تعليقات قيمة لمحمد رمزى المفتش بوزارة المالية ومؤلف القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، وهذه التعليقات التى يتم من خلالها شرح الوظائف المملوكية والآثار والمنشآت التى يرد ذكرها ، وتحديد أماكنها الحالية فى قاهرة القرن العشرين سواء الباقى منها أو المندثر ، تعتبر جهدًا علميًا ضخمًا فى حد ذاته قد يغيب عن أعين الباحثين فى الهوامش والملاحظات .

ثم صدرت الأجزاء الأربعة الباقية ، الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر ، والسادس عشر ، وكان صدور الجزء الأخير منها عام ١٩٧٢ ، وهكذا يكون الكتاب بأكمله قد تم تحقيقه وطبعه ، وبين دفتيه تستقر النجوم الزاهرة متاحة لكل من يهم بالترحال فى تاريخ مصر العربية ، أو دراسته . .

ابـــن إيـــاس
صاحب بدائع الزهور فى وقائع الدهور

« اليوم سبت ، سادس عشر من شعبان ، عام اثنين وعشرين وتسعمائة ، فى المساء والليل مسدل فوق قاهرة ذلك الزمان المضطرب ، مضى الشيخ محمد أحمد بن إياس الحنفى المصرى ، إلى بيتـه مرتجف الـروح ، مضطرب الفكـر ، فتـح صفحات كتـابـه «بدائع الـزهور فى وقـائع الدهور» تاريخه الكبير الذى بدأ يدون فيه تـاريخ مصر منذ بدء الخليقة ، كان يستعد ليضيف إلى أحداثـه أخطر ما سيـدونه ، كـان يشهد هذه الأيـام غير العادية التـى تتقرر فيهـا مصائر كبيرة ، ويلتوى مجرى أمم وتتحول حياة شعوب .

« اليوم أشيعت هذه الكـاينة العظيمة التى طمت وعمت وزلزلـت لها الأقطار ، وما ذلك إلا أن أخبار السلطان والعسكر انقطعت مدة طويلة ، ثم حضر كتاب على يد ساع مطرد من عند الأمير علان ، الدوادار الثانى أحد الأمراء المقـدمين فذكر أن السلطان كان يكذب فى أمر سليم شاه بن عثمان ويصدق ، إلى أن حضر مغلباى دوادار سكين وهو فى حال النحس بزمط أقرع على رأسـه ، وهو لابس كبر عتيق دنـس ، وراكب على أكديـش هزيل ، وقد نهب بـركة وأخذت خيوله وقماشه ، وأخبر أن ابن عثمان أبى من الصلـح وقاله له : قل لاستاذك يلاقينى عند مرج دابق . . . »[1] .

لقد جاءت الأخبار بعد انقطاعها مدة طويلة تبلبلت فيها الخواطر ، وحارت النفوس ، بما جـرى فى مرج دابـق شمال حلب ، حيـث دارت الدائرة على جنـود السلطان الأشرف قنصـوة الغورى ، قتل من قتل ، وفر من فر ، ومات السلطان شهيدًا بعد أن بح صوته «وطق فى رأسه فرخ جمر ، وهو ينادى عساكره ، (يا أغوات . . . يا أمراء . . هذا وقت المروءة » ، غير أن ما كان مقدرًا جرى . . .

---

(١) بدائع الزهور . الجزء الخامس ص ٦٨ .

وتصل تفاصيل الأحداث إلى ابن إياس ، ويسرد الوقائع كما تحقق منها كيف اصطف الجيشان ، كيف كان العسكر من المماليك المصرية مقومًا بألف إنسان من بنى عثمان ، وكيف هزم « العثمانية » أول الأمر ، غير أن الخيانة أطلت برأسها فقد خامر خاير بك أو (خاين بك) على السلطان فى الباطن ، مما جعل الدائرة تدور على جيش السلطان الغورى ، وينهى ابن إياس أخبار الموقعة المشئومة : « لم يقع لمصر من قبل مثل هذه الكاينة العظمى ، والحادثة المهولة » .

وبصبر المؤرخ ، وبأناة الشيوخ ينتظر مجئ الأخبار ، وقد ظلت هذه الأحداث وما جرى لمصر مادة ما تبقى من عمر ابن إياس وكتابه ، حتى عام ٩٢٨ هـ ، وليبقى الكتاب الضخم الذى تزيد صفحاته على الثلاث آلاف صفحة نابضًا بحب عريق لمصر ومنقذًا لفترة زمنية كاملة تزيد على الثلاثين عامًا شاهدها المؤلف يومًا بيوم ، تنبض الصفحات التى تدون سنوات الاحتلال العثمانى بأرقى آيات حب المؤلف للبلد الذى عاش فيه ، لقد كانت أصول ابن إياس غير مصرية ، لكن كتابه يفيض بوطنية صادقة ولكى نتتبع أصول عائلة ابن إياس يجب أن نعود مائة وخمسين سنة قبل الغزو العثمانى .

فى زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون اشترى مجموعة من بينهم مملوك اسمه أزدمر العمرى الناصرى أبو الذقن ، أصبح أحد مماليك السلطان الناصر ، تدرج فى مراتب الوظائف حتى صار من كبار الأمراء زمن السلطانين حسن وشعبان ابنى الناصر بن قلاوون ، فى أيامهما تولى إمرة السلاح ، ويمكن أن نجد بعض أخباره فى كتاب « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » لابن تغرى بردى ، ثم تقلد نيابة صفد ، وطرابلس ، وحلب ، وأخيرًا اختاره السلطان شعبان لنيابة دمشق عاصمة الشام ، لكن الموت لم يمهله فتوفى فى الطريق إليها سنة ١٣٦٦ م .

كان ازدمر العمرى جد ابن إياس لأمه ، أما جده لأبيه فهو الأمير إياس الفخرى ، أحد مماليك السلطان برقوق ، وكان دوادارا ثانيًا ، لكنه عزل عن وظيفته ، وأصبح هو وابنه أحمد ينتميان إلى فئة أولاد الناس ، وهذه الفئة كان لها موقع خاص ، فهى أبناء الأمراء الذين ماتوا وشغلت وظائفهم ، وكان المتبع أن يمنح الواحد منهم عددًا من الفدادين « إقطاع » يعيش منه ، بشرط اندماجه فى الجيش السلطانى عند نشوب الحرب ، ويكون صالحًا للخدمة فى إحدى الوظائف المدنية أيام السلم .

وبرغم ضخامة ما كتبه محمد أحمد بن إياس فنلاحظ أنه تحاشى الكتابة عن أسرته ، أو عن نفسه ، وبرغم ذلك يمكن التعرف من خلال كتابه الكبير على بعض المعلومات عن أبيه ،

كان أحمد بن إياس من أشهر فئة أولاد الناس ، وعلى اتصال دائم بمشاهير الدولة من الأمراء والكبار ، عاش حوالى أربع وثمانين سنة أنجب خلالها عددًا كبيرًا من الأبناء ، بلغ عددهم خمسة وعشرين ذكرًا وأنثى ، لم يوضح لنا ابن إياس ترتيبه فى هذه الذرية الضخمة ، إنه يذكر مولده فى سطر عابر من تاريخه الضخم .

« وفى ربيع الآخر من هذه السنة ، كان مولد الناصرى محمد أحمد بن إياس مؤلف هذا التاريخ ، وذلك فى يوم السبت سادس الشهر بعد طلوع الشمس وسماه والده محمد أبى البركات »[1] .

ويخبرنا أيضًا أنه لم يبق من أخوته بعد وفاة والده غير بنت واحدة ، وصبيين اثنين هما : مؤرخنا نفسه ، وأخوه يوسف . فى هذه الفئة « أولاد الناس » نشأ ابن إياس ، وكان لنشوئه فيها عاملان ، أولهما أنه بانتمائه إلى هذه الفئة جعله بعيدًا عن متناول مؤرخى العصر ، ومؤلفى السير والتراجم ، فتناءت عنا أخباره وسيره ، مما جعل المادة التى تصلنا عن حياته قليلة جدًا ، خاصة وأن ابن إياس لم يخصص فى كتابه الكبير إلا ما مجموعه نصف صفحة للحديث عن نفسه أو عن عائلته .

أما العامل الثانى ، والبالغ الأهمية فإن نشوءه فى هذه الفئة جعله قريبًا من الحياة اليومية للشعب ، مما أفسح المكان فى تاريخه لأخبار لا نجدها فى كتب التاريخ الأخرى التى كان مؤلفوها أعضاء فى السلطة المملوكية مثل ابن تغرى بردى الذى كان وزيرًا . لقد كان أولاد الناس بعيدين عن صراع السلطة ، ويمكن القول إنهم كانوا يعيشون على هامش المجتمع المملوكى الحاكم ، لهذا كانوا قريبين إلى المجتمع المصرى بطبقاته المتوسطة والفقيرة ، أصبح ابن إياس من خلال هذا الوضع قريبًا من الهموم اليومية لرجل الشارع ، معايشًا لها ، وحياة الشعب تبرز لنا حية ، متدفقة من خلال أدق الأخبار التى أوردها ابن إياس جنبًا إلى جنب مع أخبار السلاطين والحروب والصراعات .

* * *

« وفى ذى الحجة ، جاءت الأخبار بوقوع فتنة عظيمة بين أولاد ابن عثمان ملك الروم ، وفيه عز وجود الفلفل من مصر ، حتى بيع كل حمل فلفل بمائة دينار . .)[2] .

« ومن الحوادث فى غيبة السلطان ، فى شهر رمضان ، وجد إنسان سكران ، فقبض

---

(١) بدائع الزهور الجزء الثانى ص ٢٦٣ .

(٢) بدائع الزهور الجزء الثانى ص ٥ أحداث ذى الحجة ٨١٥ .

عليه وضرب الحد ، ثم طيف به القاهرة ، فلما وصل إلى الصليبية ، ثارت عليه العوام فقتلوه وأحرقوه بالنار . . . »[1] .

« وفى شوال ، جلس السلطان للحكم بين الناس فى الاصطبل ، وضرب فى ذلك اليوم ابن الطبلاوى والى القاهرة بالمقارع ، وكان لذلك سبب ، وذلك أن شخصًا غرق له ولد ، فلما شاوروا الوالى فى دفن الميت ، فلم يمكن أباه من دفنه حتى يحضر له خمسة دنانير، وكان أبو الغريق فقيرًا ، فلم يقو على ذلك القدر الذى قرر عليه ، فما وسعه إلا أنه ترك ولده ملقى على شط الخليج وهرب ، فبات الغريق ليلتين حتى أكل الكلاب رجليه فلما بلغ السلطان تغير خاطره على ابن الطبلاوى وضربه بالمقارع . . »[2] .

« وفى شعبان وقعت نادرة غريبة وهو أن شخصًا من المماليك الجراكسة كشف رأسه بين يدى السلطان فوجده أقرع ، فضحك عليه السلطان فقال له ذلك المملوك «اجعلنى والى القرعان يا مولانا السلطان ، فأجابه السلطان إلى ذلك ، وأخرج له مرسوما سلطانيا بذلك ، وأن يكون شيخ القرعان ، وأخلع عليه خلعة ، فصار يدور فى الأسواق والحارات ويكشف رؤوس الناس ، فمن وجده أقرع فيأخذ منه دينارًا حتى أعيان الناس فضج منه أهل القاهرة وشكوه إلى السلطان فضحك ونادى فى القاهرة للقرعان بالأمان والاطمئنان وأن كل شيء على حاله . . . »[3] .

« وفيه ثار جماعة من العوام على المحتسب على بن القيس ورجموه . .)[4] .

« وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهو أن السلطان أعاد إلى جماعة ما كان أخذه منهم من مال لما صار الناس فى التجريدة الأولى » . . فتعجبوا الناس نفسه من ذلك ، لكونه فعل هذا من تلقاء نفسه ، وأشيع بين الناس أنه رأى فى المنام ما أوجب رد هذا المال على أربابه ، فكان حال الناس معه كما قال القائل فى المعنى .

كنا نؤمل أن ننال بجاهكم	خيرًا يكون على الزمان معينًا
والآن نقنع بالسلامة منكم	لا تأخذوا منا ولا تعطونا [5]

---

(١) بدائع الزهور الجزء الثانى ص٢٤ أحداث رمضان ٨١٨ .
(٢) بدائع الزهور الجزء الثانى ص ٤٠ أحداث شوال ٨٢١ هـ .
(٣) بدائع الزهور الجزء الثانى ص ١١٤ أحداث شعبان ٨٣٠ هـ .
(٤) بدائع الزهور الجزء الثانى ص ٢٧٥ أحداث رجب ٨٥٣ هـ .
(٥) بدائع الزهور الجزء الثالث ص ٥٦ أحداث شعبان ٨٧٥ هـ .

« وفيه نودى من قبل السلطان بأن أحدًا لا يشكو أحدًا للسلطان إلا بعد أن يرفع أمره لاحد من الحكام ، وكان قد كثرت شكاوى الناس بين يدى السلطان حتى أن امرأة شكت زوجها للسلطان لأجل أنه وطئ جارية فى ملكه ، فما طاقت زوجته الغيرة فشكته إلى السلطان »[1] .

« وفيه ولدت امرأة أربعة من الأولاد فى بطن واحد ، وهم صبيان وبنتان وكان أبوهم فقيرًا فحملهم إلى السلطان ، فلما وضعوا بين يديه تعجب منهم ورسم لأبيهم بعشرة دنانير وخمسة أرادب قمح[2] .

ولكن شنعت عليه الناس أن مصروف عمارة المدرسة كان من وجوه المظالم ومصادرات الناس ، وأخذ أغلب رخامها من أماكن شتى بأبخس الأثمان ، وأخرب قاعة شموال اليهودى الصيرفى وأخذ أبوابها ، وفعل مثل ذلك بعدة قاعات ، وقد سمى بعض اللطفاء هذه المدرسة المسجد الحرام لما وقع فيها من غصوبة الأرض ومصروف العمارة من مال فيه شبهات ، وقد شنعوا الناس قبله على المؤيد شيخ لما بنى جامعه الذى بجوار باب زويلة أكثر ما شنعوا على الملك الأشرف قنصوة الغورى ، وأهل مصر ما يطاقون من ألسنتهم إذا أطلقوها فى حق الناس[3] .

« وفيه وقعت نادرة غريبة وهو أن شخصًا من أبناء التجار يقال له عمر بن عبد اللطيف ، وكان والده من أعيان التجار ، فأشيع عنه أنه قد قتل زوجته فى بيته خشب وأحرقها بالنار لأمر وقع منها . . . »[4] .

« وفيه رسم السلطان بشنق شخص زغلى[5] فشنق على باب زويلة ومن الحوادث أن شخصًا شابًا يقال له سكيكر أشيع عنه أنه قد قتل أباه ، فلما عرض على السلطان لم يقر بشىء فسجن بالقشرة حتى يكون من أمره ما يكون »[6] .

« ومن الحوادث فى ذلك اليوم أن امرأة خرجت تتفرج على السلطان وكانت حاملا ، فجاءتها ضربة على بطنها فنزل الولد من بطنها فى الحال »[7] .

---

(١) بدائع الزهور الجزء الثالث ص ٦٣ أحداث ربيع الأول ٨٧٦ هـ .

(٢) بدائع الزهور الجزء الثالث ص ٧٢ أحداث ذى الحجة ٨٧٧ هـ .

(٣) بدائع الزهور الجزء الرابع ص ٥٣ أحداث ذى الحجة ٩٠٨ هـ .

(٤) بدائع الزهور الجزء الرابع ص ١٠٠ أحداث جمادى الآخرة ٩١٢ هـ .

(٥) زغلى أى مزيف .

(٦) بدائع الزهور الجزء الرابع ص ١٦٠ أحداث جمادى الأولى ٩١٥ هـ .

(٧) بدائع الزهور الجزء الرابع ص ٣٣٦ أحداث شعبان ٩١٩ هـ .

« ومن الحوادث أن شخصًا خياطًا يقال له نجا بن تمساح زنق صبيًا صغيرًا عمره عشر سنوات ، فزنقه فى بيت الجزيرة الوسطى ، فاستغاث الصبى فذبحه ذلك الخياط وأرماه فى البئر ، فلما شاع أمره قبضت أم الصبى على الخياط ، وعرضته على السلطان ، فاعترف بقتل الصبى ، فرسم السلطان بشنق ذلك الخياط فى المكان الذى قتل فيه الصبى »[1] .

« وفرح كل واحد من الناس بسلطنته[2] ، وكان محببًا للعوام فإنه كان لين الجانب قليل الأذى غير متكبر ولا متجبر ، فلما انتهى أمر المبايعة أخلع السلطان على أمير المؤمنين يعقوب ونزل إلى داره فى موكب حافل ، وزالت دولة الغورى كأنها لم تكن[3] .

« وفى يوم الثلاثاء عاشره وقعت حادثة غريبة ، وهو أن ملك الأمراء خاير بك أشهر النداء فى القاهرة بأن كل من رأى كلبًا يقتله ويعلقه على دكانه فبادرت الناس على القبض على الكلاب ، صارت التراكمة يمسكون الكلاب من الطرقات ويوسطونهم نصفين بالسيوف فقتلوا فى ذلك اليوم ما لا يحصى من الكلاب » . .

« فلما تزايد الأمر فى قتل الكلاب ، طلع الزينى بركات بن موسى المحتسب إلى ملك الأمراء خاير بك وشفع فى الكلاب من القتل . . »[4] .

وفيه حضر شخص من حلب فهلوان ، ونصب فى بركة القرع التى بالجنينة صوارى وحبالاً ، وكان يوم الجمعة فاجتمع الجم الغفير من الخلايق ، فلما صعد على الحبال أظهر أشياء غريبة فى صنعة الفهلوانية وهو واقف على الحبال ، منها أنه نصب له أوماج وبتيه وأرمى بالنشاب فى البتيه وهو واقف على الحبال ومنها أنه مشى على الحبال وهو مقيد وعيناه مربوطتان بخرقة ، ومنها أنه مشى على الحبال وفى رجله قبقاب وتحته ألواح صابون . . . »[5].

« وفيه وقعت حادثة شنيعة وهو أن شخصًا من العوام كان أصله مؤذنًا فدخل إلى بعض الغيطان وقطع عيدان خيار شنبر ووضعهم فى قفة فقبض عليه الخولى وحصل بينهما تشاجر ، فأغلظ عليه الخولى القول وأتى به إلى حيث الوالى وقص عليه أمره فطلع به الوالى وعرضه على ملك الأمراء وهو حامل القفة التى فيها الخيار الشنبر ، فلما علم ملك الأمراء

---

(١) بدائع الزهور الجزء الرابع ص ٣٧٨ أحداث ربيع الآخر ٩٢٠ هـ .

(٢) يقصد طومان باى .

(٣) بدائع الزهور الجزء الخامس ص ١٠٥ أحداث رمضان ٩٢٢ هـ .

(٤) بدائع الزهور الجزء الخامس ص ٢٤٩ أحداث ربيع الآخر ٩٢٤ هـ .

(٥) بدائع الزهور الجزء الخامس ص ٢٥٢ أحداث ربيع الآخر ٩٢٤ هـ.

بذلك ، وكان ملـك الأمراء حرج على بيع الخيار الشنبر وصار يشتريـه على ذمته ويتجر فيه ، ثم أن ملك الأمراء رسم للوالى بشنق ذلك الرجل الذى سرق الخيار الشنبر »[1] .

« وفى يوم الاثنين ثامن عشر توفيت زوجة المقر الشهـابى أحمد بن الجيعان وكانت جركسية الجنس تدعى شهـد دار وكانت مبدعة فى الحسن والجمال من أجمل النسـاء حسنًا ، فافتتن بها المقر الشهابى أحمد بـن الجيعان حتى أشغلته عن أمور أحوال المملكة ، قيـل إنها كانت تحسن الضرب بـالسبع آلات المطـربة وهـى : الجنك والعـود والسنطـور القانـون والدرج والكمنجـا والصينى . . »[2] .

وهكذا تنبض صفحات بدائع الزهور بأحـداث الحياة اليومية المصرية خاصة فى الفترة التى عايشهـا ابن إيـاس ودون تاريخهـا يومًا بيـوم ، ويمكن أن يحتـوى بدائع الـزهور مـن هنا على مرحلتين أساسيتين ، الأولى ينقـل فيها ابن إياس عـن كتب المؤرخين السابقين ، مع صيـاغة الأحداث بأسلوبه الخاص ، ثم ينتقل من الاعتماد الكلى على كتب السالفين إلى مرحلة الاعتماد على المعاينة والمشاهدة ويبدو هذا الانتقال واضحًا اعتبارًا من سنة ١٤٦٨ م (٨٧٢ هـ) وهى السنة التـى بلغ فيها ابن إيـاس العشرين من العمـر ، وخلال تلك الصفحات العـديدة . . «أورد أخبار السـلاطين والخلفاء والأمراء مـن سلطنة وولاية وعـزل ووفاة وذكر أحـوال الفئات المملوكية مـن ثورة أو ركود ، وكتب فى النظـم الإدارية ، والأحوال الاجتماعية والأعيـاد الدينية وغير الدينيـة ، ووصف المواكـب والأسمطه السلطانيـة ومواسم لعـب الكرة والصيـد وسجل مناسيب النيـل زمن الفيضان والتحـاريق وذكـر الأرصاد الجوية مـع خسوف القمـر وكسوف الشمس وهبـوب الريـاح وسقوط الأمطـار وشرح أحـوال العلماء والأدباء والشعـراء والمؤرخين والأعيان والتجار ، وترجم للمتوفين منهم ترجمة طويلة أو قصيرة حسب المقام ، وذكر المنشآت والمبانى السلطانيـة والأميرية من مساجد وعمائر ورباع وقباب ومدافـن ، وتتبع أخبار الأسعار اليومية وشئون المحاصيل والمسكوكات من الذهـب والفضة والنحاس . . »[3] .

نلاحظ أن ابـن إياس لم يكن يورد الخبر أو الواقعـة بروح باردة ، أو يكتفى بالتـدوين ، بل كان يبـادر بالتعليـق ، تعليق إنسـان ذى روح مرهفـة متأملـة ، أقرب إلى الصـوفية ، بـل إن أسلوب تدوينه للأحداث التى سبق أن كتبها مؤرخون آخرون يختلف ، فهو يضفى الحيوية على

(١) بدائع الزهور الجزء الخامس ص ٢٥٥ أحداث جمادى الآخرة ٩٢٤ هـ .

(٢) بدائع الزهور الجزء الخامس ص ٣٣٩ أحداث جمادى الآخرة ٩٢٦ هـ .

(٣) الدكتور محمد مصطفى زيادة ـ سلسلة تراث الإنسانية ، المجلد الثالث .

الحدث ، ويبدو هذا واضحًا فى حادثة قتل السلطان المؤيد لابنه إبراهيم بالسم ، إذا ما قارنا رواية ابن إياس للواقعة ، ورواية شهاب الدين ابن حجر العسقلانى لها فى كتابه « إنباء الغمر بأبناء العمر » .

كان ابن إياس شجاعًا أيضًا ، إذا فرض السلطان ضريبة على الناس هجاه بقصيدة ، أو ذكره بالكلام القاسى ، وبالتأكيد أن هذا كان يصل إلى حكام ذلك الزمان وكثيرًا ما يتحسر ابن إياس على ما جرى فى زمانه من جانب الحكام فى حق الرعية « حدث أن أصيب السلطان الغورى بارتخاء فى جفنيه هدده بالعمى عندئذ راح يرفع المظالم عن الناس وألغى عددًا من الضرائب ، فكثر له الدعاء بالشفاء ، وتمنى ابن إياس النجاة له ، وكلما زاد ارتخاء جفون السلطان كلما زاد عدله فى الناس ، وعم الرخاء ، وحدث أن أحد الأطباء داوى له عينيه ، وأصبح يرى كالعادة ، عندئذ عاد الحال إلى ما كان عليه فكثر الدعاء عليه من الناس ، وانتقده ابن إياس بشدة » .

وتبرز روح النقد هذه بشدة بعد غزو العثمانيين لمصر ، لقد اهتزت روح ابن إياس بما جرى فى أواخر عمره ، ، وبدأ ينزف أسى فى سطور الجزء الأخير من كتابه . لقد سار جنود العثمانيين كالبهائم فى الطرقات ، لا قائد لهم ، ولا نظام ، يلوطون بالغلمان ، ويخطفون النساء ويهتكون الأعراض ، وسجل ابن إياس ما فاضت به روحه فى قصيدة طويلة ، يرثى فيها ما جرى لمصر ، يبدؤها . . .

نوحوا على مصر لأمر قد جرى عمت مصيبة كل الورى

كانت روحه تغلى ، صحيح أن العثمانيين كانوا مسلمين ، وعندما طلب السلطان الغورى من المغاربة الخروج لحربهم قالوا نحن ما نحارب إلا الفرنجة ، لكن سيف العثمانيين لعب فى رقاب المصريين ، كانوا همجًا اجتاحوا مصر التى تباهى بملكها الملوك . وتسجل صفحات بدائع الزهور أول صيحات اليقظة الوطنية المصرية ضد المحتل فى تاريخها الحديث ، ولا يكتفى ابن إياس بقصيدته ، إنما يورد قصيدة أخرى لشاعر من عصره اسمه قانصوه بن صادق تدور حول نفس المعنى ، إن ابن إياس يصب سخطه على العثمانيين الغزاة الذين فعلوا بمصر ما لم يفعله بختنصر البابلى ، وكان أشد ما آلمه الخراب الذى حاق بالفلاحين وجعلهم يهجرون أرضهم ، وتحول مصر من سلطنة تحمى البحرين والحرمين إلى ولاية يعين حاكمها من استامبول ، إن الاحساس المتدفق بالوطنية المصرية لدى ابن إياس فى هذا الزمن البعيد ليهز الروح حتى الآن .

ولم يكتف ابن إياس بمهاجمة العثمانيين ، إنما قاطع احتفالاتهم ، وأعيادهم ، ويجب أن

نعلم أن مـا كان يكتبه ابن إيـاس كان يشيع ويعرف ، وقـد ظل الكتاب متداولاً فترة طـويلة تحت حكـم العثمانيين . وهكـذا تعتبر صرخـات ابن إيـاس ضـد العثمانيين أول احتجـاج فى التاريخ ضد هذا النوع الفظ من الاحتلال ، وطليعة الروح الوطنية فى الشرق العربى .

* * *

يتضـح من الكتـاب أن المؤلـف قرأ الكثير مـن الكتـب التى تـدور حـول تاريـخ مصر ، والموسوعـات التاريخية الكبيرة قبل أن يبـدأ فى تدوين كتـابه ، بدأ فى تـأليف كتابه حـوالى عام ١٤٩٣ م « ٨٩٩ هـ » . أى عنـدما كان يبلـغ الخامسة والأربعين من عمـره ، وفى هذه الفترة كانت المنطقة تمر بأحداث متلاطمة ، فمنذ أواخر سلطنة قايتباى والعداء أصبح سافرًا للدولة العثمانية بسبب انتصـار المماليك على العثمانيين فى أطراف آسيا الصغرى خمس مـرات متتالية ، وفى الشرق ظهر الخطـر البرتغالى على التجـارة المملوكيـة فى الهند بسبـب اكتشاف طـريق رأس الرجاء الصالح .

والطريـف أن ابن إيـاس لما ظهر الفرنجـة فى المحيط الهندى قـدم تفسيرًا طريفًـا وهو «أن الفرنجة قد تحايلوا حتـى فتحوا السد الذى بناه عليهم فيليب المقدونـى وتسربوا منه إلى المحيط الهندى » أمـا فى مصر فقد دب العطب إلى أوصـال السلطنة المملـوكية ، وإن سادهـا استقرار نسبى زمـن الغورى ، تلك بعض الملامـح العامة التى عـاشها المؤلف أثناء سنـوات نضجه ، وفى خضـم هذه الأحـداث كان متفـرغًا بصبر ودأب فى تصميـم كتـابه والإعـداد له وفى سنـة ١٥٠٨ م حدث مـا عكر عليه صفو حيـاته وهدده بعـدم اتمام الكتاب ، لقد ضاقـت أحوال السلطان الغـورى المالية ، فلجأ إلى حـرمان أولاد الناس من إقطـاعاتهم ، وذهب إقطـاع ابن إياس إلى أربعـة من المماليـك الصغار ، وكان ابـن إياس قد استطـاع بفضل هـذا الإقطاع أن يعيش عيشة راضية وأن يتفرغ للكتابة غير أنه لحسن الحظ لم يبق طويلاً بعيدًا عن أرضه ، فقد شكًا إلى السلطان ما حاق به ، واستجاب السلطان له ، استمر ابن إياس بعد ذلك فى تدوين زمنه حتى عام ١٥٢٢ م ، أى عندما بلغ السادسة والسبعين من عمره .

ويشير ابن إياس ، فى الجزء الثـالث « ص ١١٨ » إلى كتاب آخر له اسمه « نـزهة الأمم فى العجائب والحكم » ، ومن مؤلفاته الأخرى كتاب « عقود الجمان فى وقائع الأزمان » وهو كتاب صغير فى تاريخ مصر لا تربطه رابطة ببدائع الزهور ، وكتـاب « مرج الزهور فى وقائع الدهور » ويدور حول قصص الأنبياء والرسل وكتاب « نشق الأزهار فى عجـائب الأقطار » ويدور حول الفلك وهيئة تركيب الكون .

* * *

يتميز أسلوب ابن إياس بتلقائية وحرارة ، وإيقاع هادئ فى السرد ، مهذب . ساخر كفكاهة المصريين ، بل إن فيه روحًا مصرية هادئة ، خاصة عندما يتحدث عن الزمان ، أو يسخر من الحكام ، إنه يبدأ فصول كتابه بجملة « رب يسر وأعن » ثم يمضى سرده هادئًا راسخًا كإيقاع الأيام فى زمنه : وإذا ما جرت حادثة ومضت بدون أن تترك أثرا يعلق قائلاً « ولم تنتطح فى ذلك شاتان » .

كما نجد كثيرًا من الألفاظ العامية فى جمله وهذه الألفاظ تضفى حيوية وحرارة على صياغته للحدث أو الخبر . وعندما يصف المطر تكاد تشعر به « فيها من المحرم فى رابعة : أظلم الجو وأمطرت السماء مطرا غزيرًا حتى أوحلت منه الأسواق واستمرت تمطر يومين متوالية » ، وعندما يظلم فقير ولا تجد قضيته من ينصفها يقول « وراحت على من راح . . . » .

وعندما يتجاهر الناس بالمعاصى وينادى فيهم السلطان بالكف عن ذلك يقول «فسمعوا من أذن وخرج من أخرى » ، وعندما يموت أمير ظالم يصف قائلاً « وحصل منه الضرر الشامل لجماعة كثيرة من الناس مصادرات وأخذ بيوت ورزق وحل أوقاف وغير ذلك من مفاسده » .

وعندما يستولى السلطان على ثروة أحد الأمراء يقول « واحتاط على موجودة من صامت وناطق » ، وعندما يقدم أحدهم رشوة يقول « وبرطل عليه برطيلاً كبيرًا . . . » وكلمة برطيل لا تزال تستعمل فى مصر بمعنى الرشوة ، وهو يلتزم الدقة فى تدوينه للأحداث فيقول مثلاً (وقد شاهدت ذلك بعينى) [1] عند وصف موكب السلطان ، أو يقول بعد سرده لما فرقه السلطان على المماليك « لم التزم صحة ذلك » [2] وعند كسوف الشمس يقول « وكسفت الشمس فى ذلك اليوم كسوفًا فاحشًا » ، وعندما تنتهى سنة يقول « وخرجت هذه السنة على خير » وعندما يعم الوباء « تزايد أمر الطاعون بالديار المصرية وحصل للناس غاية الرعب » .

ويصف أحد الرجال عصره « كان الشيخ عبد الباسط ضنينًا بنفسه وعنده يحتل البعض مكانًا لا يتفق مع إمكانياته « فتلاعبت به الدنيا لكثرة هرجه ، وركب فيها فى غير سرجه » وعندما يتحدث عن السلطان كان حكمه مستقرًا « كانت الناس فى أيامه فى لهو وفرح وخلعة» .

إن المعلومات التى وصلتنا عن ابن إياس قليلة فعلاً ، ولكن شخصية المؤلف وروحه ،

---

(١) بدائع الزهور الجزء الرابع ص ٢٩٣ .

(٢) بدائع الزهور الجزء الرابع ص ٢٩٤ .

ونبضه ، كل هذا موجود فى كل صفحات الكتاب حتى لتشعر بإيقاع الزمن ، وطريقة حديث أهل عصره ، وتعليقـاتهم المصرية الصميمة ، ولاشك أن هـذا يضفى تفردًا على ذلـك المؤلف الذى كان قريبًا مـن الفن ، إذ حفظ لنا صفحات حية من عصره تنبض وتفيـض وأنقذها من العدم .

* * *

تجب الإشارة إلى الجهـد الرائع الذى قام بـه الدكتور محمـد مصطفى « مدير متحـف الفن الإسلامى سابقًا » فى نشر بـدائع الزهور ، هذا الجهد الذى استغرق عمرًا ، لقـد دعاه الدكتور باول كـاله عـام ١٩٢٨ إلى الاشتراك معه فى نشر الكتـاب ، تم بـالفعل نشر الأجـزاء الثالـث والرابـع والخامس فى سلسلـة النشرات الإسلاميـة التى تصـدرها جمعيـة المستشرقين الألمانية ، وتتناول هذه الأجزاء تاريـخ مصر وتسرد الوقائع الهامة اعتبارًا من سنـة ٨٧٢ هـ (١٤٦٨ م) حتى سنـة ٩٢٨ هـ (١٥٢٢ م) . على اعتبـار أن ابن إياس كان المؤرخ الوحيـد تقريبًا الذى عاصر هذه الفترة الحاسمة من تاريخ البلاد .

* * *

وكـان من الغـريب أن يصـدر هذا الكتـاب الهام بعيـدًا عن وطنـه ، ولكنه أصبـح أخيرًا متـاحًـا للـدارسين والقـراء ، بعـد أن أصـدرته الهيئـة العـامـة للكتـاب ، وكـان هـذا قـرارا اتخذه المرحـوم الشاعـر صلاح عبـد الصبور رحمه الله وجـزاه خيرًا ، وأخرجـه إلى حيز التنفيـذ الدكتور عز الدين إسماعيل رئيس الهيئة العامة للكتاب حاليًا .

تـاريخ الـتراث العـربى لسـزكين

اكتشفت الكتـاب أثناء زيارتـى لجامعة مارتين لوثر بمدينة هـالة فى ألمانيا ، تعـرفت على الدكتور عـرفة مصطفى وهو استاذ أصلاً فى جـامعة الأزهر يدرّس اللغات القديمـة المندثرة .
وفى مكتبته الخاصة أطلعنى على الجهد العلمى الذى يقوم به مـن أجل ترجمة موسوعة « تاريخ التراث العربـى » للعلامة التركـى فؤاد سزكين بـالمشاركة مـع أساتذة آخـرين . منهم الـدكتور محمود فهمى حجازى . والدكتور سعيد عبد الرحيم .
أطلعنى على الأصل الألمانى . ويقع فى ثمانية مجلدات ، مـا تم حتى الآن ترجمة مجلدين من الأصل ، صدرا فى عشرة مجلدات باللغة العربيـة ، أشرفت على المشروع ، ومولته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وما زال العمل مستمرًا .

بعد عـودتى إلى القاهرة أرسلـت خطابا إلى الجامعة ، إلى رئيسهـا الدكتور عبد الله بـن عبد المحسـن التركى ، أخبرتـه اهتمامى بـالكتاب ، وتعـذر الحصول عليـه فى القاهـرة ، وأبديـت استعدادى للحصول على نسخة وفقًا لأية شروط .

بعد عشرة أيام فقط ، فوجئت بخطاب من المسئول عن إدارة المكتبات بالجامعة يطلب منى التوجـه إلى مطار القاهـرة لاستلام نسخة أرسلـت كهديـة مضيت إلى المطار لأعـود بمجلدات الكتاب العشرة ، وكأنـى حصلت على كنز نفيس ، فقيمة الكتاب لاتعـادلها قيمة أخرى مهما كانت .

ماذا نجد فى هذه الموسوعة ؟

* * *

يقول الـدكتور عبد الله بـن عبد المحسن التركى فى مقـدمة المجلد الأول « إن هـذا الكتاب «تاريخ التراث العربى » يكشف بجلاء عظمة تاريخنا الثقافى الممتد عبر القرون ، ويؤكد اهتمام سلفنا رضى الله عنهم ، بالبحث ونشر العلم .
« وكان قد سبق للهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة إصدار المجلد الأول من الكتاب فى جـزأين بترجمة الـدكتوريـن فهمى أبـو الفضل ومحمـود فهمى حجـازى . ثـم تـوقف اصـدار

الكتاب ، لـذلك صحت عزيمـة الجامعة على تـرجمة ونشر المجلدات الخاصـة بعلوم القـرآن والحديث والفقـه والعقيدة والتـاريخ والشعـر العربـى واللغة والنحـو والبلاغـة والنثر الفنـى والعروض والأدب والفلسفة والمنطـق وعلم النفس والأخلاق والسيـاسة والاجتماع . واسندت ترجمة المجلـد الأول إلى الدكتور محمود فهمـى حجازى ، وترجمة الجزء الثـانى إلى الدكتور عـرفة مصطفى . كما عهـدت إلى اساتـذة متخصصين فى الجامعة قـراءة الترجمة العربيـة للكتاب . وقامت إدارة الثقافة بالجامعة على طبعه ونشره . . » .

* * *

إذن ، خصص الجزء الأول من المجلد الأول ، لعلـوم القرآن والحديث ، ويقع فى خمسمائة صفحة من القطع الكبير ، يقول المؤلف فؤاد سزكين فى المقدمة العامة للكتاب إنه كان قد عقد العزم منـذ سبعة عشر عـامًا على عمـل ملحق بمخطـوطات مكتبـات استامبـول يضيفها إلى الكتاب الشهير لبروكلمان « تاريـخ الأدب العربى » وقد تـرجم هذا الكتاب إلى اللغـة العربية وصدر عن دار المعارف بالقاهرة فى خمسة أجـزاء ، يقول سزكين إنه لم يكن يدرى أنه مقدم على مغامـرة كبرى ، فبعد فترة مـن الزمـن قرر المستشرق رشر O.Resher ، وهو حجة فى تـاريخ التراث العربى أن يشترك فى هذا العمل ، وأن يقدم للبحث والدراسة كل المادة التى جمعها منذ زمن بعيـد ، وخاصـة أثناء عملـه بالمكتبة السليمانية بـاستامبـول ، عندئذ قـرر سزكين عـدم الاكتفاء بالخطة السابقة ، إنما جمع كل ما يمكـن جمعه من المواد والفهارس . والدراسات التى ظهرت بعـد كتاب بروكلمان ، وكـذلك من دراسـاته الخاصة للكتـب المطبوعة . ومجمـوعات المخطوطات . عندئذ تنازل العلامة رشر لسزكين عن هذه المواد ، وتخلى عن المشاركة فى العمل ، فالعمل ضخم ، غير واضح المسار والنهاية ، وكان الأستاذ رشر قد تقدم فى العمر كثيرًا .

* * *

إذن . . انفرد سزكين بالعمـل فى هذه الموسوعة ، وعندما انتهى مـن الجزأين الأول والثانى وأعدهما للطبع . اتضح انهما فى الحقيقة عمل جديـد مستقل عن كتاب بروكلمان ، لقد درس سزكين كـل المواد المتاحة وحققهـا ، وراجع ما ذكـره بروكلمان وأضـاف إليه مجموعـة كبيرة من المعلومات المكملة مثل تاريخ المخطوطات . وعدد أوراقها وصفحاتها .

لقد ذكر أولاً المخطوطات التى قدمها بروكلمان ، واتبعها بمخطوطات جديدة عثر عليها .

يقول فؤاد سزكين :

« وقد كـان من الممكن أن يخرج هذا الكتـاب فى صورة أحسن وأكمل لـو أتيحت لى فرصة الحصول على مساعدات مالية ، فجل رحلاتى العديدة فى أنحاء أوروبا ، وإلى شمال أفريقيا ،

وكذلك إلى الشرقين الأدنى والأوسط حتى إلى الهند ، انفقت عليها من مالى الخاص ، وكذلك ما تكلفته للعديد ممن ساعدونى ، وما دفعته ثمنًا للمراجع والفهارس ، وتصوير المخطوطات ، واستخراج المقـالات من المجلـدات العلمية . وقبـل سنوات رصـدت هيئة اليـونسكو مبلغًـا لتساعـد فى إخراج كتـاب « بروكلمان » إخـراجًا جديـدًا . ولكن اللجنـة المكونـة لهذا الغرض أرجأت البت فى هذا الموضوع حتى تبحث ما إذا كان عملى هذا يمكن أن تشمله هذه المساعدة أم لا . ولكـن الموضوع كـان يؤجـل ، ولعل السبـب الحقيقى لهذا التـأجيل أنهم رأوا وجـوب اشتراك مجموعة مـن العلماء فى عمل كهذا يقوم كـل واحد منهم ببحث مجال بعينـه من مجالات المخطوطات العربية ولا جدال أن إنسانًـا واحدًا لا يستطيع أن يمتلك زمام كل مجالات التراث العربـى ، ولكنى رأيت بنفسـى تعذر إمكانيـة اشتراك مجموعـة من العلماء ، وفوق ذلـك فإن اقتناعى يزداد كـل يوم بأن دراسة التراث العربى لم تتقـدم بعد تقدما كافيًا ، يتيـح لنا الاتفاق على زمن نشأة فروع العلوم العربية المختلفة ، التـى تبحث فى هذا الكتاب ، وهذا الاتفاق هو الشرط الأساسى للقيام بعمل جماعى كهذا . وربما يطول انتظـارنا حتى يمكن تحقيق مثل هذا العمل الجماعى ، فلابـد ـ أولاً من تكرار جهود عـدد من العلماء يبحث كل واحـد منهم ـ على حدة ـ المواد الجديدة . ويجمـع الدراسات الحديثة هكذا . قام الأستـاذ فؤاد سزكين بهذا الجهد العلمى الضخم بمفرده .

* * *

خصص الجزء الأول من المجلد الأول كما أشرت لعلوم القرآن والحديث ، يذكر المؤلف أولاً كتب القـراءات فى العصر الأموى ، فيترجـم لكل مـن قرأ القـرآن فى العصر الأموى ، فيـذكر تعريفًا به وبحياته ، ثم مصادر ترجمته ، ثم آثاره المكتوبة .

ثم ينتقل إلى العصر العباسى . حيث شهد هذا العصر تطورًا فى الدراسات اللغوية خاصة فيما يتعلق بشرح المواضع المشكلة فى القرآن الكريم ، وكـانت مراكز هذه الدراسات فى البصرة والكوفة والحجاز .

ثم يقدم كتب التفسير فى العصر الأموى ، والعصر العباسى .

الباب الثـانى يخصصـه لعلم الحديث ، منـاهجه . وتطـوره ، فى صدر الإسـلام ، ثم فى العصرين الأمـوى والعباسـى ، ونجده يترجم لكـل علماء الحديث النبـوى الشريـف ، يـذكر تـراجم لحيـاتهم ، ومـؤلفاتهم ، ومصـادرهـم ، والمخطوطـات المتبقيـة فى عصرنا الحديـث . أماكنها ، وأرقامها فى المكتبات .

الجزء الثانى من المجلـد الأول ، خصص للتدوين التاريخى عند العـرب . تناول ، تاريخ

الجاهلية فى العصر الأموى ، ثم العباسى ، ثم درس تدوين التاريخ العام وتاريخ الدولة الإسلامية . وحركة التأليف التاريخى فى العصر العباسى ، والتاريخ المحلى ، وتاريخ المدن ، ثم التاريخ المحلى وتاريخ المدن فى وسط الجزيرة العربية وجنوبها ، ثم التاريخ المحلى وتاريخ مدن الشام ، والتاريخ المحلى وتاريخ المدن فى العراق ، والتاريخ المحلى وتاريخ المدن فى إيران والشرق ، ثم التاريخ المحلى وتاريخ المدن فى مصر والمغرب ، ثم التاريخ المحلى وتاريخ المدن فى الأندلس ، ثم يتناول التاريخ الثقافى ، وأخيرًا . . حركة التأليف فى العصر العباسى .

ونجد استمرارًا لنفس منهج الكتاب ، حيث يورد مقدمة عامة للموضوع ، ثم يتناول المؤلفين ، يذكر ترجمة كل منهم ومصادر ترجمته ، وآثاره ، وأين توجد ، إذا كانت مخطوطة . وأين طبعت إذا كانت مطبوعة . وحتى يتضح أكثر منهج المؤلف ، ونقف على الجهد الهائل الذى بذله سأورد نموذجًا من الجزء الثانى من المجلد الأول .

* * *

الجهشيارى

هو أبو عبد الله . محمد بن عبدوس بن عبد الله الجهشيارى . أصله من الكوفة ، نشأ مع أبيه فى بغداد ، وكان أبوه حاجبًا للوزير على بن عيسى ، فخلفه على الحجابة له ، ثم للوزير حامد بن العباس فى خلافة المقتدر بالله ، وتوفى فى بغداد سنة ٣٣١هـ/ ٩٤٣م .

(أ) مصادر ترجمته :

مروج الذهب للمسعودى ٨/ ٢٤٩ الفهرست لابن النديم ١٢٧ ، ٤٢٧ ، الوافى بالوفيات للصفدى ٣/ ٢٠٥ ، النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٣/ ٢٨٩ . أخبار الراضى بالله ـ تحقيق كانار ـ الجزائر ١٩٤٦ ، ١/ ١٤٣ . الأعلام للزركلى ٧/ ١٣٥ . معجم المؤلفين لكحالة ١٠/ ٢٧٥ وانظر بروكلمان ملحق ١/ ٢١٩ .

ـ كتب سورديل عنه فى دائرة المعارف الإسلامية .

ـ كتب عنه لاتس رسالة جامعية .

(ثم يورد عنوان الرسالة ، والجامعة ، وتاريخ مناقشتها) .

(ب) آثاره :

« كتاب الوزراء والكتاب » .

لم يصلنا إلا قسم مخطوط منه . يوجد مخطوطًا منه فى : المكتبة الوطنية بفيينا ٩١٦ (٢٠٤ ورقة ، ٥٤٦ هـ) .

نشره منشك .

وحققه مصطفى السقا ، إبراهيم الأبيارى ، عبد الحفيظ شلبى القاهرة ١٩٣٨ وجمع مواد القطع المقتبسة عنه فى الكتب المطبوعة وذلك فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ١٨/ ١٩٤٣/ ٣١٨ - ٣٣٢ .

وجمع سورديل قطعًا أخرى من مخطوطين اثنين . وكتب بها بحوثًا جديدة عن القسم الثانى من كتاب الوزراء والكتاب .

وكتب سورديل أيضًا عن القيمة الأدبية والوثائقية لكتاب الوزراء ، والكتاب اعتماد خاص على الفصل الخاص بهارون الرشيد .

* * *

وهكذا . نجد هذه الدقة العلمية مع الشعراء ، والكتاب ، والعلماء ، والحفاظ ، والفلاسفة ، والأطباء ، والحكماء ، والمنجمين ، ورجال البحر ، أى أن الكتاب موسوعة موثقة ، علمية ، لسائر مؤلفات التراث العربى ، وسجل دقيق فريد لكل ما نشر منه ، والدراسات التى وضعت عنه ، والمخطوطات التى لم تنشر منه .

فى الجزء الثالث من المجلد الأول نجده مخصصًا للفقه ، أما الجزء الرابع فمخصص للعقائد والتصوف .

المجلد الثانى كله يتكون من خمسة أجزاء ، مخصص للشعر ، الأول يتضمن مقدمة ودراسات ، والثانى مخصص للشعر فى العصر الجاهلى ، والثانى للشعر فى صدر الإسلام ، والثالث للعصر العباسى ، والرابع للعصر العباسى أيضًا ، والخامس لشعراء مصر والمغرب والأندلس فى العصر العباسى .

كذلك طبع من الكتاب جزء خاص مستقل يتضمن قوائم بجميع مجموعات المخطوطات فى مكتبات العالم .

حتى الآن صدرت عشرة مجلدات من الترجمة العربية ، ومن المنتظر صدور بقية الأجزاء تباعًا ، فتحية للمؤلف فؤاد سزكين ، وتحية لمن ترجم ، وتحية لمن دعم وأصدر هذا السفر الموسوعى الجليل الذى يبرز عظمة الحضارة العربية .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفهـــرس



رقم الايداع : ٤٠٩٣/٩٧
I.S.B.N. 977 - 09 - 0380 - 9

مطابع الشروق

القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



منتهى الطلب إلى تراث العرب

إزاء ندرة المصادر، وعدم تعامل دور النشر الكبرى مع التراث العربى، وتعثر إصدارات مهمة ظلت مستمرة منذ أن عرفت مصر المطبعة، فكرت فى التعريف بمصادر تراثية ربما يصعب الحصول عليها الآن، إما لندرتها وإما لارتفاع سعرها بما يعجز عنه الشباب محدود الإمكانية .

لذا فكرت فى إعداد عروض وافية لعدد من هذه المصادر المهمة، بحيث تعطى فكرة شاملة عنها . فإذا اهتم قارئ بكتاب معين، فليتجه إليه ولا يعانى ما عانيناه فى البحث عنه . وقد حرصت على ذكر الناشر والسنة التى طبع فيها الكتاب .

وقد آثرت أن أبدأ بعرض عدد من كتب التراث المختلفة فى الأدب، والتاريخ، والفن الحربى، على أن أتبع هذا المجلد . بآخر أخصصه للتعريف بكتب التراجم فى التراث العربى، وثالث أقدم فيه مصادر القص العربى، ورابع أقدم فيه أهم ما كتب حول العمارة الإسلامية من القدماء والمحدثين . راجيًا بذلك أن أكون قد أسهمت بجهد ضئيل فى التعريف بتراثنا العربى ومصادره التى يصعب الوصول إليها والعثور عليها، يومًا بعد يوم، متمنيًا من الله العلى القدير أن يهبنا العمر والقدرة على تحقيق ما نطمح إليه من التعريف بتراثنا العريق الذى يحيا فينا ولا نراه .

جمال الغيطانى